

مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية
سلسلة تاريخ المغرب

تاريخ شمال أفريقيا القديم

تأليف
اصْطيفان اگْصيل

ترجمة
محمد التازي سعود

HISTOIRE ANCIENNE
DE L'AFRIQUE DU NORD

Par Stéphane GSELL

الجزء الخامس

الممالك الأهلية

نظامها الاجتماعي والسياسي والاقتصادي

الرباط، 2007





مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية
سلسلة تاريخ المغرب

تاريخ
شمال أفريقيا القديم

تأليف
اصْطيفان اگْصيل

ترجمة
محمد التازي سعود

HISTOIRE ANCIENNE
DE L'AFRIQUE DU NORD

Par Stéphane GSELL

الجزء الخامس

الممالك الأهلية

نظامها الاجتماعي والسياسي والاقتصادي

الرباط، 2007

أكاديمية المملكة المغربية

العنوان : شارع الإمام مالك، كلم 11، ص. ب. 5062
الرمز البريدي 10100
الرباط - المملكة المغربية

تليفون (037) 75.51.46 / (037) 75.51.99

البريد الإلكتروني **E-mail** : alacademia@iam.net.ma

فاكس (037) 75.51.01

اسم الكتاب : «تاريخ شمال أفريقيا القديم»

أصله الفرنسي : "Histoire Ancienne de l'Afrique du Nord"

تأليف : اصْطيفان اكْصيل Stéphane Gsell

ترجمه إلى العربية : محمد التازي سعود

التصفيف الضوئي : أكاديمية المملكة المغربية

السحب : مطبعة المعارف الجديدة، الرباط

الإيداع القانوني : 2007/1945

ردمك : 9981-46-052-4 (المجموعة)

ردمك : 9981-46-058-3 (الجزء الخامس)

مطبعة المعارف الجديدة - الرباط 2007

محتويات أجزاء

كتاب "تاريخ شمال أفريقيا القديم"

لاصْطيفان اڤْصيل

الكتـاب الأول

الممالك الأهلية

نظامها الاجتماعي والسياسي والاقتصادي

مـدخـل

1

سندرس في الجزأين الخامس والسادس من هذا التاريخ النظام الاجتماعي والسياسي، والحياة المادية وأخلاق الأهالي ومعتقداتهم في الأزمنة التي لم يكونوا فيها عرفوا الخضوع لرومة. وسيكون الحد الجغرافي لهذه البحوث هو الحاشية الشمالية للصحراء.

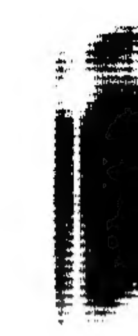
إن التيبسْتي le Tibesti اليوم – ومن بين الصحراء كلها – هو وحده الأرض التي يقيم فيها السّود وهم في آراضيهم. ولاشك أنهم سكنوه منذ عهد بعيد جدا. وفي جهات آخرى، فإن أقواما سود اللون أو ذوي لون غامق على الأقل، يحرثون جل الواحات. وهي على العموم آماكن غير صحية. ومع ذلك فيمكنهم العيش بها لانهم عادة لا يتأثرون بالحمّى. فبعضهم يرجع لأصول سودانية، وبعضهم مستولدون من سودانيات ورجال بيض. كما ينحدر بعضهم الآخر من السكان الذين سكنوا الصحراء منذ عهد بعيد، والذين توالدوا بكثرة مع الأقوام الواردين عليهم.

غير أن هؤلاء الرجال لا يملكون الأرض التي يشتغلون فيها. والأغلب هو أن البساتين يملكها البربر[1] الذين لا يسكنون بالواحات، لأن مناخها لا يناسبهم، وليس لهم بها مخازن للغلال. فهم رحّل يعيشون في الهواء الطلق، ويتحملون الفوارق المناخية الكبرى، وينتقلون بقطعانهم إلى حيث يجدون الماء والمراعي. ويقتطعون لأنفسهم أكبر قسط مما أنتجته جهود السود. وحتى البيض الذين يسكنون الواحات بصفتهم تجاراً أو ملاكاً، فإنهم في الأغلب في حماية وتبعية الرحّل. ويؤدون لهم الأتاوات، ويحتفظ الرحّل لأنفسهم بعمليات نقل البضائع التجارية.

فلأي عهد يرجع هذا الوضع ؟

المتأكد هو أن البيض كانوا سادة للصحراء في القرنين التاسع والعاشر للميلاد. فالإسلام كان آنذاك يتقدم خلال الصحراء، وبها التقى مع البربر فأسلموا. أما عن الأزمنة السابقة فلا نعرف سوى شهادة واحدة، وهي توجد في بحث جغرافي صغير كتب حوالي 350 (م) ورد فيه: «جنوبي إفريقيا - أي إفريقيا الرومانية الرسمية وهي طرابلس وتونس - تمتد صحراء واسعة جداً. وعلى ما قيل يسكن في بعض المواقع بها عشائر من الباربار Peuplades barbares ليسوا كثيري العدد، ويسمّون مازيك وأثيوبيين»[2]. وكما سنرى فإن لفظة مازيك Mazices تطلق لزوماً على البربر.

لا يبدو أننا نستطيع العودة إلى تاريخ أبعد في القدم. ذلك أن سيطرة الرحّل على الصحراء كانت نتيجتها تربية الجمل، لكن لم يبرهن على وجود هذه الحيوانات بكثرة في إفريقيا إلا من بداية القرن الرابع، ولربما تكون قد انتشرت بها منذ القرن السابق، إذ لا يمكن أن نفسر



بغير هذا تلك العلاقات التي لا شك أنها كانت نشيطة جدا وواسعة بين ولاية طرابلس وداخلية القارة في عهد حكم السيقيريين Les Sévères.

ولا شك أن أغلبية البربر الذين جاءوا إلى الصحراء لم يقيموا عن طيبة خاطر بهذه المناطق الجرداء. فلابد أن الرومانيين طردوهم إليها. وبالتأكيد ففي عهد السيقيريين حدثت في الحدود التغيرات الكبيرة التي مدت الولايات الإفريقية في اتجاه الجنوب. وفي عهدهم كذلك فرض التقدم الحاصل في الزراعة الاستيلاء على مقاطعات واسعة كانت حتى ذلك الحين متروكة للقطعان الضالة.

إن الجمل قد مكّن المطرودين من الحياة في الصحراء، بل إنه ربطهم بها. فكانوا بها طوال قسم كبير من السنة يوجدون في أحسن الظروف الصحية. وفوق هذا، فبالجمل يمكن للراعي أن يصبح هو المسيطر أو على الأقل المساعد الضروري في التجارة الصحراوية أو التجارة عبر الصحراء. بالجمل يستطيع أن يصل إلى الواحات المنبثة خلال هذه المجالات الواسعة، وأن يفرض عليها سيطرته ويثبتها بها. بهذا أصبح هؤلاء البربر الفارّون فاتحين.

ولربما أن الهجرات والفتوحات تدرجت على عدة قرون، وحتى بعد سقوط الشمال الإفريقي في قبضة العرب. وقد ظن البعض أنه عثر من جديد في الصحراء الكبرى على أسماء العشائر التي ورد ذكرها في بلاد البربر في العهد الروماني أو العهد البيزنطي. وكلها مقارنات مشكوك فيها. ومع ذلك فمن المقبول أن تكون عشيرة إيفْراص Iforass التي تعيش في «أدْرار» ترجع إلى عشيرة إيفراس (بالترقيق) Ifuraces التي كانت في القرن السادس تعيش بولاية طرابلس.

ويمكن أن نعزو للرجال القادمين من الشمال إدخالهم للصحراء المقابر المخروضية الشكل والأسطوانية الشكل، المكوَّنة من الحجر الجاف، والمعروفة جدا في وطنهم القديم. كما يُعزى لهم بالتأكيد إدخال الأبجدية ذات الأصل الليبي، والتي يستعملها الطوارق حتى اليوم. ولكن لا ينبغي المبالغة في دورهم التمديني. فقبلهم بعهد كبير كانت هنالك واحات مزروعة بإتقان كما يشهد بذلك هيرودت[5]. ولم يكن هؤلاء الرعاة الظواعن يستطيعون أن يعملوا شيئا ما في ميداني غراسة الأشجار والبستنة. ومن الصحيح أن بعض البربر ممن عاشوا عيشة استقرار فيما سبق. قد جاءوا وأقاموا في بعض المراكز بالصحراء، كالهراطقة[*] الذين أسسوا في القرن الثامن سجلْماسة على جانب المغرب، وأسسوا في القرنين العاشر والحادي عشر مدينة سدْراتة بالقرب من وارگْلة ثم مدن مزاب حيث مكثوا. فلا شك أنهم أنشأوا الحياة حيثما كونوا لأنفسهم وطنا جديدا. ولكنهم خارج عن واحاتهم لم ينشروا سيطرتهم على الصحراء مثلما فعل الرحّل.

لقد قلنا لماذا نعتقد أن تغلغل هؤلاء الرحّل لم يحدث قبل القرن الثالث للميلاد. والامر يتعلق هنا بالصحراء الوسطى والغربية بجنوب المنطقة التي ندرس تاريخها. وهناك – على وجه التحقيق – مسوغات للاعتقاد بأن الصحراء الشرقية، بغرب مصر قد كان بها بعض البربر، قبل ذلك بكثير، يسيطرون على الأقسام الصالحة للسكنى بالصحراء الليبية. إن هذه الطوائف من الأقوام البيضاء الذين حاولوا اقتحام وادي النيل منذ الأُسر المصرية الأولى، وقاموا بمحاولات عنيفة في نهاية

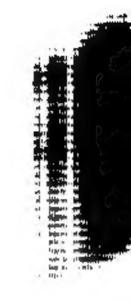
(*) لا شك أن الكاتب يقصد بالهراطقة الخارجين على المذهب السني وهم الخوارج الذين أسسوا مدينة سجلماسة في المغرب حول سنة 140 هـ.

القرن الثالث عشر وبداية القرن الثاني عشر ق.م، لم يكن قدومهم من الأراضي المجاورة للبحر الأبيض المتوسط بين مصر وسدْرة الكبرى فحسب، بل من جهات بعيدة في الجنوب. وهذه القبائل وهؤلاء الشيوخ تشهد أسماؤهم بأنهم كانوا يتكلمون لغة شديدة القرابة باللهجات البربرية[4]. وبعد ذلك فإن مؤرخا إغريقيا نقل عنه ديودور الصقلي[5] نجده يصف عادات الليبيين المقيمين بشرق الصحراء، وهم على ما يحتمل أجداد المازيك البربر. وكانوا في عهد الإمبراطورية السفلى والعهد البيزنطي يجولون بنفس المناطق. ومنذ عهد هيرودوت فإن النَصمونيين Nasamons وهم إحدى عشائر ساحل سدْرة الكبرى، كانوا يزورون واحة أوجيلا Augila بجنوب سرْنيكا (برْقة) ويجمعون منها غلة التمر. فلربما أنهم كانوا بهذا يستعملون حق التملك، على غرار ما يفعله حتى اليوم بعض البربر الرحّل في العديد من الواحات.

وبعيدا إلى الغرب، لا تأتينا النصوص القديمة بأية حجة على وجود لأجداد البربر بالصحراء، ولا حتى في شمال هذه المنطقة. ولا يمكن الاستشهاد ببطليموس الذي ذكر أن بجنوب الولايات الرومانية في ليبيا الداخلية منطقة تسمى جيتوليا Gétulie وعشيرة تُدعى ميلانوجيتول (أي الجيتليون السُمْر) Mélanogétules. إن الجيتوليين كانوا من البربر. ولكن في هذا الفصل فإن مؤلف العالم الجغرافي الإغريقي مليء بالأخطاء والخلط. ذلك أن أسماء كثيرة لإفريقيا الشمالية تظهر من جديد في ليبيا الداخلية، وهذه أغلاط واضحة.

ويحسن الإصغاء لفقرة واردة في رحلة حنّون التي يرجع تاريخها لما لا يقل عن القرن الرابع ق.م. فيحكي حنّون أنه عندما وصل لمصب نهر لِكْسوس العظيم – وهو وادي درْعة بجنوب المغرب – وجد بعض

الرعاة من اللَّكْسيين[6] Lixites. فأنشأ معهم علاقات ودية، وأعطوه تراجمة منهم لمتابعة حملته. وفوقهم في الجبال كان يسكن الأثيوبيون الذين لا يحبون الضيوف. إن هذا قد يمكننا من الاعتقاد بأن اللكسيين أنفسهم لم يكونوا أثيوبيين، ولربما أنهم كانوا أيضا يتكلمون إحدى اللهجات الليبية التي يفهمها بعض مرافقي حنّون. غير أنه لا يلزم الأخذ بهذا الاستنتاج المزدوج. وعلى كل فإذا كان اللكْسيون ليبيين، فلابد أنهم كانوا عبارة عن جالية يحيط بها الأثيوبيون. وقبل بداية التاريخ المسيحي بقليل ذكر أن الأثيوبيين كانوا في نفس الحين بساحل دَرْعة وشاطئ المحيط، أي إنهم كانوا يقيمون حيث كان اللَّكْسيون الذين لقيهم حنّون.



لقد درسنا فيما سبق النصوص العديدة التي تؤكد أن الحاشية الشمالية للصحراء كانت - حتى القرون المسيحية الأولى - هي الحد بين البيض والسود. فلم يكن بالصحراء حسب علمنا سوى الأثيوبيين، أي الأقوام الذين كانت بشراتهم ضبعا غامقة جدا. ولكننا مع ذلك نجهل هل كانوا شديدي القرابة النسبية بالسود السودانيين الحقيقيين أو كانت لهم خاصيات خِلْقية مختلفة قد توجد أيضا عند الفلاحين من أقيان الواحات.

ولربما أن المستقبل سيعرفنا هل إن أجداد البربر في بلاد البربر لم يسبقهم هؤلاء الأثيوبيون فيها. فاليهم في الصحراء ترجع دون شك هذه الأدوات النيوليثية التي تثير العجب بكثرتها وإتقانها، والتي تكثر فيها السهام التي هي الأسلحة المفضلة عند شعوب إفريقيا الداخلية، والتي يفضل الليبيون عليها الرماح. وهؤلاء الأثيوبيون هم الذين وسعوا

حقولهم على طول الوديان التي لا تزال تجري فيها الأنهار اليوم. ولابد أنهم تجمعوا في بعض المواقع الممتازة حيث كوّنوا الواحات بغرس النخيل وجرّ المياه.

إنهم في تلك الأزمنة لم يكونوا يخضعون لسادة قادمين من الشمال. وقد تكونت عندهم أمم بالمعنى الحقيقي. نذكر منها الفروسيين Pharusiens أو البيرّسيين Perorses بجنوب المغرب، والنكّربنيين Nigrites بجنوب الجزائر والكرمنْطيين (Garamantes) الذين قال عنهم هيرودت[8] إنهم شعب كثير العدد. وكانوا يسكنون العران. وعلى رأسهم ملك. وقد كان لهذه العشائر، أو للبعض منها على الأقل، ميل فطري للحروب. فكان لها خيول وعربات. وفي القرن الخامس قبل الميلاد كان الكرمنْطيون يخترقون الصحراء لمطاردة الأثيوبيين الترّغوليين Troglodytes[9]. وقد امتدت سيطرتهم في نهاية القرن الميلادي الأول فشملت قسما من السودان.

وبالتاكيد لم يكن السود الساكنون بالصحراء يجهلون الليبين ولا المستوطنين أو الفاتحين من الفينيقيين والاغريق والرومانيين الساكنين بأرض الليبيين. فقد كانت لهم بهم علاقات تجارية يمكننا تصورها. ومنذ عهد هيرودت، كانت القوافل التي لم تكن بها الجمال بعد - تذهب من ساحل السدْرتيْن لتصل إلى ارض الكرمنْطيين. وغربي هؤلاء الكرمنطيين كانت تعيش عشائر تلقى عنها الكاتب الاغريقي بعض المعلومات. وعلى ساحل المحيط، قام حنّون بتأسيس مستوطنة سيرْني (Cerne) التي كان يأتيها التجار الفينيقيون في القرن الرابع للمتاجرة مع الأثيوبيين. وكذلك فإن القرطاجيين كانوا يذهبون إلى حيث لا ندري على الساحل المحيطي لاستجلاب الذهب الذي يأخذونه مقابل

بضاعتهم الزهيدة. والظاهر أن هذا الذهب كان يأتي من السودان. ولربما أن هذا المعدن الثمين كان أيضا ينقل إلى ساحل السدْرتَيْن بو سطة القوافل التي كانت تخترق إمّا أرض الگرمنطيين وإما بعض الواحات الاخرى.



وقد ظن البعض انه عثر على علامات للتأثير البونيقي حتى في لغات افريقيا الاستوائية[10]. ثم إن الخطأ الذي يجعل النيل ينبع من جبل الجبوب المغربي هو خطأ انتشر بين الإغريق قبل القرن الرابع. ويفسر بتشابه نباتات النيل وحيواناته بمثيلها في بعض الانهار النازلة من الجانب الجنوبي للسلسة الجبلية المحيطية Atlantique، التي كانت نعرف بأنها «جبل الفضة»، وهذا هو الاسم الذي سماها به أحد الاغريق المتقدمين زمنا على ارسطوطاليس[11]. ولربما سماه به أيضا الفنيقيون الذين قد يكونون عرفوا بهذه المنطقة معادن للفضة[12].

ولربما ان هذا النهر – ولكن من ناحية مجراه الأسفل – هو الذي كان في عهد هيرودت قد وصله النصمونيون Nasamons الذين لم يقتنعوا بزيارة واحة اوجيلا أو بالتوجه شرقا حتى واحة أمون الشهيرة، كما كان يفعل الكثير منهم. فاتجهوا نحو الغرب مخترقين الصحراء إلى أن التقوا اخيرا برجال سود يعيشون على شاطئ نهر مليء بالتماسيح.

ومن ناحية أخرى فإن بعض الصحراويين كانوا يرحلون إلى أراضي البربر. وقد دلنا سْترابون Strabon على الفاروسيين الذاهبين الى سرْتا (قسنْطينة) لاشك لبعض الأسواق التي كانت تعقد هناك. فكان عليهم ان يخترقوا أراضي فيها مستنقعات وبرك، لم يكن ماؤها صالحا للشرب، لأنهم كانوا يحملون معهم قربا مليئة بالماء مربوطة تحت بطون

خيوليهم. فهي إذن الشطوط الملحة Chotts salés بسهوب المغرب الشرقي وبالجزائر.

ويُحتمل أن البيض والسود في الأراضي التي تجاوروا فيها، لم يأنفوا من التزاوج فيما بينهم. فبطليموس يتحدث عن الميلانوجيتول Mélanogétules [1]. ونستطيع القول من غير تأكيد أن هذا الإسم كان يطلق على عشيرة كان المولدون الهجناء من السود والجيتوليين بها كثيري العدد. ونجهل أين كانت تقع مساكنهم.

لكن العلاقات بين الصحراويين والبيض لم تكن دائما علاقات سلام. ففي حقبة زمنية نجهلها ذهب الفاروسيون Pharusiens والنُّكْريتيون Nigrites على ما قيل للقيام بحملة قصد تخريب المتاجر الفينيقية التي على ساحل المحيط [1]. وفي أواسط القرن الاخير قبل الميلاد، حدث نزاع بين بوكود Bogud الملك الموري وبين الاثيوبيين فذهب لمحاربتهم في عقر دارهم. وكذلك فإن السود من سكان المناطق الصحراوية القريبة جدا من أراضي البربر، قد قدموا للمشاركة في بعض الثورات ضد الرومانيين و البيزنطيين في نهاية القرن الرابع وأوسط القرن السادس[5]. ولم يكن الكرمنْطيون يوجهون عنفهم الحربي ضد السود فحسب. فقد كانوا يعرفون طريق السدّرتيْن. وكان يطيب لهم ان يسلكوه عندما تواتيهم الفرص لغزو المناطق التابعة لمدن الساحلية الغنية. وكانوا يأوون الهاربين الذين يلتجئون الى اراضيهم خصوصا عندما يأتي هؤلاء اللاجئون ومعهم غنائم يطالب الكرمنطيون بحظهم منها.

وقد اضطر الرومانيون لتأديب هؤلاء النهاب الصحراويين عدة مرات. ولأجل منعهم من معاودة نهبهم وسلبهم. وكذلك لضمان

المواصلات مع السودان فإن الرومانيين جعلوهم إلى حد ما في تبعية مشددة. وحول نهاية القرن الميلادي الأول ذهب بعض ضباط الجيش الروماني إلى قلب إفريقيا عن طريق أرض الكرمنْطيين ، وكان ملك هؤلاء الكرمنطيين هو دليل الحملة. وفي عهد حكم السيفيريين Sévères فان لحيوش اتخذت لها مراكز في بعض الواحات الواقعة بعيدا بـ خر منطقة طرابلس. ومع ذلك فان الحدود الرسمية للإمبراطورية في هذه الجهة لم تتعد حاشية الصحراء.. بينما في جنوب تونس، وفي جنوب لأور س وجنوبها الشرقي، فانها لم تكد تقتحم الصحراء.. واخير فربها من جهة الموريطانيين وقفت بعيدا جدا عن الصحراء.

إذن فمن المحتمل أن البربر بموافقة رومة أو بدونها – شرعوا في ذلك العهد بالانتشار في الصحارى الوسطى والغربية. فكان هذ بد ية لعهد جديد لهذه المنطقة التي لم تشارك حتى ذلك العهد سوى بحظ ضئيل في مصير الشمال الافريقي، والتي يختلف سكانها عن لليبيين في عاداتهم، كما يختلفون عنهم في مظهرهم الخلْقي. ولربما ن إر دة لحصول على العبيد كان من شأنها ان تدفع بسادة الأرض البربرية إلى مناطق السود بالصحراء وبما خلفها من ارض السودان. غير أنه نظر لان لاثيوبيين كانوا يبدون قادرين على حماية أنفسهم، فإن هذه الار دة علاوة على ما ذكر اعلاه لم يكن لها وجود، لان شمال إفريقيا كان هلا بالسكان، ولم يكن هناك لزوم ليد عاملة أجنبية. وإذا كانت القو فل لعـدة من الجنوب تجلب إلى سواحل البحر الابيض المتوسط بعض لسود الذين التقطهم الكرمنطيون، أو الذين وقع اصطيادهم بطريقة أو باخرى، فلا شيء يبرهن على ان هذه التجارة قد اكتست اهمية كبيرة. ن الصحراء كانت حقا في العهود العتيقة حاجزا مانعا للبربر، ولم يجْر تاريخهم إلا في أراضيهم.

2

حتى اوائل العهد المسيحي تقريبا. فإن هؤلاء البربر وأرضهم لم يكونوا معروفين معرفة جيدة لدى الاغريق واللاتانيين. وذلك هو ما لاحظه سترابون Strabon في قوله[1] «إن اكثرية الشعوب التي تسكن ليبيا شعوب مجهولة. وإن قسما صغيرا من هذه الأرض هو وحده الذي وصلته جيوش او رحالة اجانب. أما الاهالي فقليل من بينهم من يصل إلينا. ثم إنهم لا يقولون كل شيء، ولا يمكن الاطمئنان إلى ما يقولونه».

منذ القرن السابع ق.م. وخصوصا في القرن السادس. فإن كثيرا من إغريق اسيا الصغرى ابحروا في اتجاه الغرب. ولم تلبث مرسيليا الفوصية Phoceenne أن أخذت حظا متفوقا في هذه الحركة التجارية. ولم يكتف المقدامون منهم بالتردد على طرطسوس Tartessos المدينة الإسبانية الكبيرة، التي كانت عند مصب الوادي الكبير Guadalquivir بل تقدموا نحو الجنوب على طول سواحل ليبيا [2].

والمقبول عموما هو أن البحارة الذين كانوا يتجهون لما وراء أعمدة هرقل، كانوا يسيرون مع سواحل ايبيريا. ومع ذلك فيبدو ان السواحل الواقعة على البحر الابيض المتوسط من ارض البربر لم تكن مجهولة لديهم تماما. وبهذا تجمعت المعلومات التي استفاد منها العلم الايوني، والتي لم يعف عليها النسيان كلها فيما بعد. وإن كنا لم يصلنا منها سوى أصداء ضعيفة.

ثم إن قرطاجة نحت مزاحميها، فاسرعت بتخريب المستوطنات الدورية التي تأسست ما بين السدرتين في نهاية القرن السادس ق.م. وتثبتت في حدود منطقتها، متغلغلة داخل سدرة الكبرى منذ الانصاب

التي سُمّيت باسم أضْرحة فيلين Autels de Philène (أو باسم أضرحة الفيلينيين des Philènes). وأغلقت جبل طارق في وجه الأجانب. وفي القرن الخامس ق.م ذكر هيرودوت العشائر التي كانت على ساحل لسدْرتيْن وأعطانا عن عاداتها معلومات مقتضبة لعله استقاهـ من مؤلف أقدم عهداً[1]. ولكنه لا يقول أي شيء عن الأهالي سكان بلاد البربر فيما وراء الساحل الشرقي للقطر التونسي.

في القرن الرابع ق.م. كُتبت رحلة تحمل خطأ اسم البحّار سيلكْس Scylax المعاصر للملك داريوس. فيها يصف وصفا سريعا سواحل شمال إفريقيا التي على البحر الأبيض المتوسط وكذلك سواحل المحيط إلى مابعد المغرب. ومن المحتمل أن يكون قسم من هذه المعلومات راجعا إلى بعض الجغرافيين الايونيين المتقدمين زمنا على هيرودت. كما أن قسما آخر من هذه المعلومات يبدو من أصل قرطاجي. ونجهل كيف بلغت هذه المعلومات إلى الاغريق. ولا يكاد هذا المؤلف يعرفنا بشيء عن الأهالي. ومثل ذلك يجب أن يقال عن وثيقة بالغة الاهمية في مجالات أخرى، وهي الترجمة الإغريقية لرحلة حنّون.

إن حملة أكاطُكْليس التي وقعت في نهاية القرن الرابع ق.م، قد عرّفت الاغريق بالعشائر التي كانت تعيش بتونس وبشرق الجزائر. وقد تحدث عنها ديودور الصقلي نقلا عن واحد او عن عدة من الكتُب الذين عاصروا الأحداث واستطاعوا الرجوع إلى مصادر حسنة. ومع ذلك فإن روايته لا تهتم بالاهالي إلا قليلا. وبهذا ففائدتنا منه تكون هزيلة جدا.

وكذلك فإن إراتُسْطين Eratosthène كتب في الثلث الاخير من القرن الثالث ق. م مؤلفا ضخما في الجغرافية، ذكر فيه المقاييس العامة للارض المسكونة وأين جرى ذكرها في مختلف الأقسام التي قسم كتابه

عليها، وأعطى المعلومات اللازمة لكتابة خريطتها. والكتاب عملُ رجل من رجال الخزانات العلمية وليس من الرحّالة. وبالنسبة لإفريقيا، فإنه استخدم رحلة حنّون. كما يحتمل أنه استخدم وصفا لسواحل المحيط كان أحد معاصري اگاطُكْليس وهو اوفِلاس Ophélas المتآمر على مدينة قورينة Cyrène قد أمر بجمع ذلك الوصف. و لاشك أن عملية هذا التجميع كانت من «مقال في الموانئ Traité des ports»، الذي ألفه سنة 260 ق.م تيموسثْين Timosthene القائد البحري الإغريقي المصري، الذي أعطى فيه البراهين على جهله بالسواحل فيما بعد قرطاجة. ونجهل المصادر الأخرى التي رجع إليها إراتُسْطين. ولا شك أنها لم تكن عديدة ولا وثيقة. وهو نفسه انتبه إلى أننا نعرف الشيء القليل الأكيد عن قسم كبير من مناطق الغرب، وذلك لأن القرطاجيين يمنعون من الوصول إليه. وقد ضاع مؤلفه هذا. أما الفقرات التي استقاها منه كتّاب آخرون حدث عهدا، فإن القليل من بينها يتعلق بشمال إفريقيا.

ثم إن الحروب البونيقية جعلت الرومانيين على اتصال بالملوك وبالشعوب النوميدية، الأعداء منهم والأصدقاء. ولكن سّترابون Strabon كان على حق في لومه فاتحي العالم على أنهم عموما يعوزهم الفضول العلمي، وعلى فقدانهم على الأقل لروح النقد في الملاحظة. لأن ذلك لازم في العلم الحقيقي. والبحوث الطريفة تبقى من مميزات الاغريق الذين يكتفي الكتاب اللاتانيون في الأغلب بنقلهم أو تلخيصهم.

وفي موسطة القرن الثاني ق.م خرج پوليب Polybe في صحبة سيبْيون الاميلي Scipion Emilien إلى إفريقيا. وكان ذلك أول الامر في بعثة مستعجلة لدى مسينيسا، ثم بعد ذلك طالت لعدة شهور أثناء الحرب البونيقية الثالثة. وبذلك استطاع أن يراقب الاهالي وأن يسألهم. وقد

جرت له محادثات مع أمرائهم مثل مَسنيسا وكُلوسا Gulussa. وأخيرا ففي سنة 147ق.م جعل سيبْيون رهن إشارته بعض السفن، فقدم وصحْبته إغريقي آخر شهير هو بنايتْيوس Panaetius برحلة على طول السواحل متوغلا إلى ما بعد أعمدة هرقل. أما عن الأزمنة السابقة، فإنه رجع إلى بعض الكتاب الاغريق الذين كانت لهم علاقات متينة مع القرطاجيين، وكانت لهم معلومات حسنة عن أهل إفريقيا. ونحن نعلم حالة التلف التي كان عليها مؤلفه في التاريخ حينما وصل إلينا، بحيث أن القسم الأكبر من روايته المتعلقة بافريقيا قد ضاع، وكذلك الامر بالنسبة لكتاب المخصص للجغرافية. وبرغم هذا فإن تاليف يوليب Polybe – ويجب أن يضم إليه ما أخذه منه كل من تيت ليفْ Tite-Live وأبْيين Appien [2] يبقى لدينا واحدا من أحسن المصادر. في حين يجب أن نتلقى بكثير من الحذر ما ذكره تيت ليف وأبْيان وغيرهما مروي عن الاخباريين الرومانيين.

والخلاصة هي أنه إذا كانت الحروب البونيقية فرصة لنا لنتعرف قليلا على الأهالي «المغاربة» في القرنين الثالث والثاني، فليس الامر سوى بصيص نور يعقب ظلاما يكاد يكون شاملا. فلا يوجد مقال يشرح حالتهم السياسية والاجتماعية، ويقدم لنا حضارتهم، بحيث لا يقع الاهتمام بهم إلا بقدر ما شاركوا في الصراع الكبير الواقع بين رومة وقرطاجة.

في النهاية القصوى للقرن الثاني، كتب أرتيمدور الأفْسوسي Artémidore d'Ephèse مؤلفا قيّما في الجغرافيا وصف فيه بتفصيل شواطئ البحر الابيض المتوسط، كما ذكر فيه عرضا بعض الشواطئ التي على بحار أخرى. وكان قد قام ببعض الرحلات تحضيرا لعمله. وهكذا فإنه جال تقريبا بمجموع البحر الداخلي (البحر الابيض

المتوسط) بل إنه عبر أعمدة هرقل. لكن وصفه لشواطئ بلاد البربر[1] لا يعرف إلا مما اقتبسه منه سترابون. ويحتمل أن الوصف لم يكن يشتمل الا على القليل مما يتعلق بالأهالي، لأن الوصف عبارة عن قسم من مؤلف موضوعه الطواف البحري.

بعد أرتميدور بقليل. ذهب بوزيدونيوس الأفامي Posidonius d'Apamée إلى قادس، فاقام بها ردحا من الزمن ليقوم ببعض الدراسات العلمية. ومن هناك توجه إلى إيطاليا. وأثناء رحلته البحرية هذه دفعته الريح الى شواطئ إفريقيا، الأرض التي يبدو انه لم يزرها من قبل. ومع ذلك فانه تحدث عنها في واحد أو اثنين من مؤلفاته. ربما في مؤلفه عن المحيط Traité sur l'Océan، وتحدث عنها بالتاكيد في تاريخه الذي كان يمتد من أحداث سنة 144 الى 78 على الاقل. وكان بوزدونيوس يعطي في مولفه هذا مجالا واسعا للجغرافيا وللتاريخ الطبيعي وللاثنوغرافية. إذن فيمكن أن نفترض انه عرض لها في واحد او اكثر من الاستطرادات، أثناء الحديث على بعض الحروب الإفريقية كحرب يوغرطة، وحملة بومبي. وحيث أنه هو لم يكن يعرف البلاد، فلابد انه سأل البعض من أصدقائه من الارستقراطية الرومانية الذين شاركوا في هذه الحملات، كما سأل دون شك بعض اهل قادس ممن ذهبوا إلى موريطانية. ولقد ضاع مولفه هذا، غير أن المعلومات التي اعطاها عن إفريقيا الأهلية اعتمدها اثنان من المولفين الذين وصلتنا آثارهم، وهما سالُسْت Salluste وسترابون Strabon.

إن حملة يوليوس قيْصر في إفريقيا قد جرت أحداثها بالولايات الرومانية. واليومية الدقيقة المضبوطة التي تركها لنا احد رفقاء السلاح للدكتاتور، لا تعرفنا بالاهالي كثيرا.

وعلى النقيض من ذلك، فإن سالُسْت بعده ببضع سنين تحدث عن حرب يوغرْطة التي كانت نوميديا مسرحا لها. وقد كان هو في سنة 46 45 ق.م حاكما لولاية جديدة شملت قسما كبيرا من هذه المنطقة. فهو إذن لم يكن يجهل البلاد ولا السكان.

وكتابه ثمين لدينا من هذه الوجهة. ولكننا عندما ندرس حرب يوغرطة، فسنوضح أن المعلومات الشخصية لسالُسْت يجب ان لا نُعتبر فوق ما تستحقه. وسنرى أنه على ما يبدو اقتبس اقتباسا واسعا من بوردونْيوس. ليس فحسب في رواية الأحداث، بل حتى في وصف لمواقع. وبنقله هكذا عمن تقدمه، فانه ارتكب أخطاء مربكة جدا لا تليق باحد البروقنصلات السابقين في إفريقيا[2].

ومن بين ذرية مَسنيسا، وجد بعض الأمراء الذين كانوا يتباهون بتعاطيهم للثقافة. وقد ترك لنا سالُسْت ترجمة مختصرة على ما يحتمل لنص أدرجه هيمّبسال Hiempsal ملك نوميديا في مؤلف مكتوب باللغة لبونيقية. وذلك فيما يتعلق بالأصول المزعومة لشعوب شمال فريقيا. وهي خرافة يصعب اكتشاف بعض أجزاء الحقيقة من خلفها. كما لم نفقد لبس لدينا الكتاب الضخم عن ليبيا الذي كتبه يوبا الثاني باللغة الاغريقية. وهو موضوع لا شك ان هذا الملك الموريطاني قد كان أهلا ليعالجه. ولكن حتى في هذا الميدان الذي كان بمستطاعه ان يبدع فيه، فمن المحتمل أن يكون حماس الثقافة الهيلينية لديه دفع به ليستقي كثيرا من قراءاته الإغريقية.

وقبله أصدر بعض الاغريق مؤلفات عن ليبيا باسم Libyca نكاد اليوم لا نعرف عنها شيئا[3]. وهذا العنوان يمكن أن يصلح لموضوعات متنوعة. لذلك فإن هذه المؤلفات التي كتبها في بعض الأحيان كتّاب لا

يعرفون افريقيا مطلقا، لم تكن – على وجه التاكيد – سوى مجاميع جمعت حول معطيات غير وثيقة. فمنذ مدة وقع الاهتمام بما يبدو عجيبا في اخلاق الشعوب البربرية Barbares وبسهولة كان يقع تلقي قول الذين كانوا يزعمون انهم عرفوا هذه الاخلاق (والعادات) بطريقة او باخرى، وكان الناس يرددون هذه الأقوال عصرا بعد عصر. وتاريخ هيرودت برهان على هذا التطلع للغرائب في القسم المتعلق بليبيا كما في غيره. وفي عهد يوبا الثاني أصدر العالم المشارك الشهير نيقولا الدمشقي Nicolas de Damas كتابا بعنوان «مصنف في الاخلاق العجيبة Recueil de mœurs extraordinaires» كان لليبيين فيه ذكر، وقد بقيت لنا منه فقرات يجب أن لا نوليها اعتبارا كبيرا «إذ أن احد هذه النصوص إنما هو صدى لهيرودت».

وهناك كاتب اخر معاصر ليوبا الثاني، هو سترابون Strabon الذي أنهى مصنفه الكبير في الجغرافيا بوصف شمال إفريقيا[24]. وهو وصف يسعدنا وصوله الينا نظرا لفقرنا، لكنه دون شك وصف متوسط القيمة، بالغ في الاختصار، غير منسق وغير خال من بعض الاخطاء المادية الكبيرة[25]. ولعل صاحبه كان يسرع لانهاء الموضوع.

فلابد انه كان قليل الاهتمام بالمنطقة التي – باستثناء قرطاجة لم تلعب اي دور في تنمية الحضارة. في حين أن الجغرافيا، في نظر سترابون، كانت بالخصوص درسا لرجال السياسة وتفسيرا للأحداث التاريخية الكبرى التي كان العالم مسرحا لها. وحيث انه لم يزر بلاد البربر، فلابد أن يتحدث عليها نقلا عن الاخرين[26]. ولم يتعب نفسه بأن يقدم عن البلاد لوحة مطابقة لها في العهد الذي أصدر فيه كتابه. فقد ذكر ما حدث آخيرا من موت يوبا الثاني الذي خلفه على المُلك ابنه

بَطْليموس، الأمر الذي حدث في 23 أو 24 للميلاد. وكانت سن سترابون إذ ذ ك تقرب من الثامنة والاربعين. وكان قد أنهى كتابه الجغر فيـ قبل ذلك بزمن كبير، أي في السنة السابعة للميلاد على ما يحتمل. ففي لكتاب إذن إضافة، ويؤكدها أنه في فصل اخر قد تحدث عن يوب الثـي وكأنه لا يزال حيا. وهذه الإضافة يمكن تفسيرها بكل سهولة ذلك أن ملك موريطانية (يوبا الثاني) كان ذا شهرة عريضة، مما جعل خبر موته ينتشر بسرعة ليصل حتى اسيا الصغرى التي كان بها سترابون يقضي سنوات شيخوخته. فلم يتحدث لنا بأي شيء عن الحروب لتي جرت بـفريقيا في عهد أغسْطس [27]. ويذكر عدنا مهدمة بينما هي في عهد هذ الامبراطور كانت قد أعيد بناؤها. ولكنه عندما انتهت كتابة الكتاب لم يكن على علم بما يتعلق بإفريقيا. وسترابون يسهو مثلا عن ذكر الحمة لتي قام بها البروقنصل كُرْنيلْيوس بلْبوس C. Balbus سنة 20 ق.م في قلب الصحراء حتى أرض الكرمنْطيين. وكانت بالنسبة للجغر.في حدثا مهما جدا. ويورد حديثا جرى بينه وبين احد خلفاء كُرْنيلْيوس بلْبوس هذا بإفريقيا وهو كنايوس بيزو Cn. Piso (لعله هو كنايوس كلبرينوس بيزو الذي كان قنصلا سنة 23 ق.م). وقد اوضح له هذا الشخص أن لصحراء الافريقية بواحاتها شبيهة بإهاب النمر الذي تتناثر عليه البقع. لكن بالتأكيد فان سترابون تلقى هذا الكلام من مخاطبه دون ان يجري معه بحثا عميقا عن ليبيا. وأخيرا، وباستثناء ذكره ليوبا ولبطيموس، وكذلك باستثناء ذكره للوضع الإداري الذي جُعِلت فيه الولاية الرومانية سنة 27ق م، فإنه كان يجهل ما جرى بإفريقيا بعد يوليوس قيصر. بل لقد كان يقع له أن يجعل في الحاضر ماضيا يرجع لما قبل حملة الدكتاتور ضد يوبا الأول وأصحاب بومْبي[28] Pompeiens وكن سترابون قد كتب تاريخا يمتد من أحداث سنة 144 إلى سنة 31 أو 27. وفي بعض

لفصول من جغرافيته استعمل ما استفاده من المعلومات التي حصلت له أثناء تأليفه لكتابه هذا في التاريخ. وقد ذكر عرضا اسم أحد المؤرخين الرومانيين هو تانوسيوس Tanusius كما ذكر اسم ايفكْرات Iphicrate الذي قد يكون على وجه التحقيق هو هِبْسكْرات Hypsicrate الذي نعلم من جهة أخرى أن سترابون قد استقى منه في تاريخه. ولعل لأمر كذلك أيضا بالنسبة لتانوسيوس. ولكننا خلافا لما افترضه "لغر لا نعتقد انه استخدم كتاب حرب يوغرْطة Bellum Iugurthinum لسَلُسْت ولا كتاب حرب إفريقيا Bellum Africum الذي يروي حرب قيْصر.

ونظرا لمعرفته الناقصة باللغة اللاتانية ولقلة تقديره للمصنفات لتي كتبها لرومانيون، فانه استخدم على الخصوص الكتاب الاغريق. ففي وصفه لليبيا ذكر منهم ثلاثة، ويحتمل انه لم يرجع الى غيرهم، وهم إرتوستّين Eratostene، وأرْتميدور Artemidore، وبوزدونْيوس Posidonius. وحيث ان آثارهم قد ضاعت فمن العبث أن نزعم أننا نشير أو نوضح ما عند سترابون مأخوذا عن أي منهم. وهو لم يستخدم ارتميدور إلا في لحديث على الشواطئ، لأن كتاب أرتميدور لا يبتعد عنها، ولابد أنه لخصه كثيرا. أما استخدامه لبوزدونيوس فمقبول فيما يخص مقالاته عن لحيوانات والنباتات وعادات الاهالي. وهكذا، وباستثنا ، بعض الجزئيات، فإن سترابون يقدم لنا بشحَ كبير إفريقيا عجوزة، وهي افريقيا من عهد إرتُسْتين في نهاية القرن الثالث، وعلى الخصوص إفريقيا في عهد أرْتميدور وبوزدونْيوس، أي في نهاية القرن الثاني وبداية القرن الاول.

وأصدر بُمْبُنْيوس ميلا Pomponius Méla جغرافيته في سنة 44 لميلاد. غير أنه رجع للمصادر القديمة على غرار سترابون. وقد كان «ميلا» Méla أديبا أكثر منه عالما. ومؤلفه خال من كل إبداع، وليس فيه

ما يدل على جهد واسع في البحث. وكان معجبا جدا بسالُسْت ككنب،
ولذلك فلا عجب من أن يستقي منه أسطورة أضرحة فيلين. ولم يكن في
حاجة إلى ثقافة واسعة ليعرف ان يوبا الثاني كانت له عاصمة تحمل
فيما قبل اسم يُول Iol، ثم سماها هو باسم قيصرية Caesarea. وكذلك
كان يستطيع، وبدون عناء، أن يعرف ان مستوطنة رومانية قد نشئت في
زيلي Zili على الشاطئ المحيطي لموريطانيا. لأنه من هو
طنجنترا Tangentera المدينة الاسبانية التي نقل اليها اهل زيلي في عهد
اغسطس. هاتان الفقرتان من وصف ميلا لشواطئ الشمال الإفريقي،
كانتا وحدهما اللتين تتحدثان عن حقبة ما بعد بداية الإمبراطورية. وبهذ
فميلا Mela يكون قد رجع إلى مصدر اقدم، ولكنه مع ذلك مصدر متاخر
عن يوليوس قيصر[26] وهو مصدر مكتوب باللغة اللاتانية. واستقى منه
پّلين الطبيعي Pline le Naturaliste. وقد ظن البعض أن المولف هو
فرون Varron الذي توفي سنة 27 ق.م عن سن تقارب التسعين. كما قيل
ب كرنيليوس نيبوس Cornelius Nepos الذي كان لا يزال حي بعد سنة
32. (وقد ذكر پْلين كلا منهما من بين مصادره في كتابه الخامس الذي
وصف فيه إفريقيا). غير أنها جميعا افتراضات ضعيفة. ولربما ن
المصدر المشترك بين كل من ميلا Mela وپّلين Pline عن الشواطئ
يكون هو نفس المصدر الذي اعتمده في الحديث عن السكان الذين
يعيشون جنوبي بلاد البربر، اي يكون كاتبا لاتانيا ذا ثقافة إغريقية
اصلا، ويستقي مباشرة او بطريقة غير مباشره، ولكن بصفة واسعة من
هيرودُت. اما عن المصدر المشترك بين كل من ميلا، وپْلين فيما يخص
شواطئ القارة الافريقية من البحر الاحمر إلى موريطانية، فهناك دواع
حسنة للاعتقاد بأن هذا المصدر هو كُرْنيلْيوس نيبوس C. Nepos. ولكن
هذا ليس معناه لزوم القول بمثل ذلك لشمال إفريقيا. وايا ما كان الامر،

فان الوصف المختصر الذي خلفه لنا ميلا Mela عن المنطقة - وهو وصف لا يتعدى السواحل - لا يرجع تاريخه مثل كتابه إلى منتصف القرن الميلادي الاول، بل إنه يرجع في الحقيقة إلى اواخر عهد الجمهورية الرومانية.

وإلى جانب هؤلاء الكتاب الذين سبق أن ذكرناهم، يحسن إضافة بعض الاشارات المختصرة التي يقع العثور عليها هنا وهناك لدى بعض الاغريق واللاتانيين الذين هم غير موثقين دائما.

إما النقوش (الابغرافيا) Epigraphie فإن ما تضبطه لدر سة النصوص هزيل جدا. والنقوش المكتوبة باللغة البونيقية ليس من بينها ما يمكن ارجاعه على وجه التاكيد الى عهد ملوك نوميديا، سوى مجموعة مملّة من النذور Ex-Voto من قُسنطينة. وهناك نصبان في دُقّة Dougga منقوشان باللغتين البونيقية والليبية. احدهما لتكريس أحد المعابد والثاني لتكريس معبد لمسنيسا. وباستثناء عدة من النقوش الاخرى بدُقّة Dougga التي يساعدنا نقش معبد مسنيسا قليلا على فهمها، فان النصوص المنقوشة باللغة الليبية تورخ، أو يبدو انها تورخ بالعهد الروماني. وعلاوة على ذلك فلا نتبين منها سوى اسماء الأشخاص.

اما المسكوكات Numismatique فتزودنا بوثائق كثيرة، مثل النقود التي سكّ بعضها الملوك وسكت المدن بعضها الآخر. ومنذ اكثر من ستين سنة الف عنها مولَرْ L. Müller كتابا[30] لا يزال حتى اليوم نافعا وإن كان الكثير مما عزاه فيها يعتبر خاطئا او متنازعا فيه. على ان الاكتشافات المتاخرة والقراءة الصحيحة لكتابات النقود قد عدلت من بعض الاخطاء، كما أن كنزا وفيرا من دوانق Deniers يوبا الثاني قد وقع

اكتشافه بالمغرب. وقد وسع معارفنا كثيرا بهذا الأمير. ومع ذلك فلا يزال هناك الكثير من الريب فيما يتعلق بفهم وتأويل النقود النوميدية والمورية، وعلى الخصوص منها ما يتعلق بنقود المدن[31].

اما البنايات التي أقامها الاهالي قبل السيطرة الرومانية، فلم يبق منها سوى المقابر. وهي مدافن بالحجر الجاف لعموم الناس. وبصفه عامة لا يمكن التاريخ لها بتدقيق. وإن كان قسم كبير منها يرجع دون شك لعهد الذي نكتب له تاريخه هنا. وهي اضرحة من الفن لبونيقي أو لإعريقي، اي مقابر ملكية واسعة عبارة عن رجام ليبية Tumulus libyques، أي أكوام من الحجارة مغطاة بغطاء أجنبي.

إذن وبعد إعطاء هذه الإيضاحات، يسوغ لنا التساؤل عن الوثائق التي بين إيدينا. هل تمكننا من ان نعرف من كانوا اجداد البربر قبل أن تخضعهم روما لقوانينها ؟. ان دراستنا ستمتلئ بالهفوات والغموض والشكوك. ولكي نفهم ماضيا يتوارى عن أعيننا، لابد لنا في الأغلب أن نتذكر أن هولاء الأهالي الافارقة من بين سكان سواحل البحر الأبيض المتوسط – هم اشدهم اصرارا على وضعهم الاجتماعي وعلى تقاليدهم وعاداتهم. إن ما كانوا عليه في الازمنة المعروفة جيدا، بل وحتى ما هم عليه اليوم، قد كانوا والى حد كبير– عليه خلال القرون السابقة على ميلاد المسيح. وبكل تاكيد لا يجب أن نجعل من الاغاليط التاريخية منهاجا، لاننا بهذا سنتعرض لكتابة إحدى الروايات، لا التاريخ. ولكن غالبا ما تكون إحدى الوثائق في مظهرها عديمة النفع او مشكوكا فيها، ولا نكتشف عن قيمتها إلا إذا ضمنت في نطاق مجموعة اعيد تكوينها على غرار غيرها من المجموعات المألوفة لدينا.

الكتاب الأول

الممالك الأهلية
نظامها الاجتماعي والسياسي والاقتصادي

الفصل الأول

إطارات المجتمع الأهلي

1

كان الناس في العهود البدائية يعيشون في جماعات صغيرة ويتنقلون دون شك لجمع النباتات والجدور والفواكه والحيوانات الصغيرة لصالحة للأكل، لكي يتعاطوا للصيد. ولكن كان غير هؤلاء يكوّنون جماعات كبيرة. ففي مواقع ما قبل التاريخ الراجعة لعهود بعيدة جد ، ونظرا لما اشتملت عليه من مصنوعات، تسمى بالمصنوعات الآشولية acheuléennes، والآشولية المُسْتيرية acheuléo-Moustériennes، وبالآشولية السّولترية acheuléo-solutréennes، وبالمُسْتيرية Moustériennes فان هذه المو قع تتكدس فيها المئات والآلاف من الادوات والأسلحة. ولابد ان كثير منها قد استعمل في ان واحد معا ذلك أن كثرة هذه الأدوات التي هي في العادة متجانسة جدا، لا يمكن أن تفسّر فحسب بكون الانسان قد اقام بالموقع إقامة طويلة امتدت عدة قرون. ففي عهد الصناعة التي

اطلق عليها اسم الصناعة الجيتولية Gétulienne او اسم الصناعة الاورنياسية aurignacienne فإن الرماد وكوم قواقع الحلزون وادوات لحجارة المقطوعة. إن كل ذلك يكوّن طبقات سميكة، تمتد في أغلب الأحيان على مساحات واسعة. وفي ذلك برهان في أن واحد على أن نفس الموقع قد أقامت به أجيال متعاقبة كثيرة، وعلى كثافة السكان لذين عاشوا جنبا لجنب. فبعض المواقع يبلغ مائة وخمسين و مائتي متر طولا.

وتوجد مواقع أخرى من العهد الحجري القديم Paléolithique، هي في الحقيقة مواقع متواضعة. لم يقم بها سوى بضعة اشخاص. وكذلك لأمر بالنسبة للكهوف والمغارات. لكن مواقع الهواء الطلق او مساكن هل المغارات troglodytes كثيرا ما نجدها تتلاقى على مسافات متقاربة جد . بحيث لا يمكن ان نصدق ان سكان هذه المواقع والكهوف بقي بعضهم أجنبيا عن البعض الآخر.

ومن الطبيعي أن الأرض التي تعطي باستمرار وعن سعة خيرات صدمية. لابد انها تجتذب عددا كبيرا من السكان. وأن تمسك بهم، فيكون بمستطاعهم أن يعيشوا مستقرين. ثم إن الحاجة إلى أن يكون لما . سبل المنال لانه لا يجري بكل مكان - تفرض عليهم أن يتجمعوا ويتقاربوا بقدر الامكان. ويدفعهم لذلك أيضا احتياجهم لدفاع عن نفسهم. لأن هذه الارض التي يستغلونها، لابد ان يكونوا قادرين على الاحتفاظ بملكيتها ضد أي دخيل.

فما هي إذن العلاقات التي كانت بين الرجال والنساء والاطفال الذين كانوا يكوّنون هذه المجتمعات ؟ قد يكون من المعقول أن نصرح

ببساطة أننا لا نستطيع معرفة شيء من ذلك. لكن في بعض العادات التي تحدثت عنها النصوص القديمة أو التي لا تزال حية إلى اليوم، ظن البعض انه عثر على بقايا من ماض بالغ في القدم، أي على براهين - أو على الاقل اشارات - بوجود اختلاط بدائي بين الجنسين. فقبل كل شيء يجب أن لا نفرض هذه التأويلات. ولكن لابد من التثبت من قيمتها عن قرب. لان هذا الذي يسمّى بالاختلاط لم يلاحظ له في ايامنا وجود مؤكد في أي مكان حتى لدى الشعوب الأشد همجية.

فعند عشيرة المخْلوسيين Machlyes وعشيرة الأُوصيَين Auses وهما من سكان شاطئ سدّرة الصغرى، كان النساء - حسب قول هيرودت - شركة بين الرجال. فلم يكن هناك زوج. وانما كان الجنسان يختلطن على طريقة البهائم. وكذلك النصمونيون Nasamons. وهم عشيرة من سدّرة الكبرى. فقد كانت لهم اتصالات بأي امرأة، وعند الجنْدنيين - ومساكنهم بين السدّرتَين - Gindanes كان النساء يفتخرن بأن يحببهن أكبر عدد ممكن من الرجال. وكن يضفن حلقة من الجلد حول كعوبهن عقب كل فوز ينلنه[16].

ان المبالغات والتعميمات المفرطة في مثل هذا الموضوع لا تكون نادرة الوجود. لذلك فليس اكيدا ان تكون المعلومات التي تلقاها هيرودت صحيحة. وهناك اغريقي آخر يحكي لنا كيف كان يتزوج المخلوسيون. هؤلاء الليبيون الذين لم يكن الزواج معروفا لديهم[17]. ويذكر هيرودت نفسه ان المخلوسيين والاوصيين كانوا يعطون اعتبارا كبيرا لبكرة بناتهم[18]. وبعد ما اكد انهم يختلطون على طريقة البهائم. (وهي طريقة نقول نحن عنها انها ليست طريقة جميع البهائم)، فانه قدمهم لنا وهم ينظمون أسرهم بأحسن ما استطاعوا. فحينما يصل ابن إحدى النساء

سن الإدراك يعقد الرجال اجتماعا بعد ذلك بثلاثة أشهر ويعلنون أنه ابن من يشبهه[5]. وواضح أن الطفل إذا ربّته أمه حتى هذه السن، وكان له أب شرعي، فما ذلك إلا لإحداث علاقات مسؤولية خاصة بين هذا الأب وابنه. وكذلك يحدثنا هيرودت أيضا ان الزواج كان موجودا عند النصمونيين الذين لم يكونوا يرفضون أي امرأة إذا صدقنا قوله.

واليك ما يقوله عن الزواج «حين يتزوج أحد النصمونيين لاول مرة، فالعرف يطلب من العروسة ان تهب نفسها أثناء الليلة الأولى لجميع المدعوين. وكل واحد اتصل بها يقدم لها الهدية التي جاء بها»[6]. فيمكن أن نفترض ان هيرودت كان فيما يخص هذا الموضوع على علم جيد.

فنفس العادة كانت في العصور القديمة موجودة في جزر البليار غير بعيد عن أرض البربر. وفي العصور الوسطى كانت موجودة عند «غمارة» التي هي إحدى عشائر المغرب[7]. كما لوحظ وجودها في أمريكا الجنوبية وفي الاقيانوسة Océanie. وقد أعطيت لها عدة من التفسيرات، ومن بينها تفسير يرى فيها بقية من الشيوعية. فالجماعة قبل تنازلها عن حقوقها لصالح فرد واحد، تستعمل هذه الحقوق مرة أخيرة. وليس هذا سوى افتراض لبق ولكنه لا ينطبق على الحالة عند النصمونيين، لان الزواج عندهم لا يكون نتيجته الاستيلاء الخاص للزوج على امرأته.

أما الآدرْماشيون Adyrmachides، وهم شعب كان يجاور مصر، فلهم حسب هيرودت عادة لا نجدها عند غيرهم من الليبيين «إنهم يقدمون للملك الفتيات اللواتي هن على أهبة الزواج، وإذا أعجبته إحداهن فإنه يفتضها». هذا حق السيد أو حق الليلة الأولى. وهنا أيضا

لاشك أن هيرودُت كان على علم جيد بالموضوع. لأن هذا الحق الذي نعرف له بعض الأمثلة في شمال افريقيا إلى عهد قريب. والذي كان موجودا في جزر كناريا. قد كان مستعملا كذلك عند غير البربر. ولا يجهل احد أنه حوفظ على استعماله مدة طويلة في بعض بلدان أوربا. ويقال أنه بقية من عهد الاختلاط البدائي، وان المستفيد منه، وهو الرئيس أو الكاهن، يكون في هذه الحالة ممثلا للجماعة. كما ذكرت لها تفسيرات اخرى. ولعل حسنها هو الافتراض القائل بانه امتياز استأثر به الاقوى لنفسه.

في سكّا Sicca (وهي مدينة الكاف بتونس) كان النساء يتعهرن لزو ر في معبد لآلهة كان اللاتانيون يطلقون عليها اسم ڤينوس Venus. فهل كنت هذه عاده من أصل اهلي؟ الأمر ممكن ولكن يحتمل انها نتقت إلى هذا المكان على يد بعض الاجانب كالفينيقيين أو غيرهم. وهناك قبيلة عربية - لا بربرية - هي قبيلة أولاد نائل Ouled Nail وليه تنتسب البنات اللواتي ينعاطين جهرا حتى اليوم حرفة العهارة ليجمعن ثمن الجهاز.

وبعض النساء لهن صبغة التقديس، إذ يُعتبرن إلى حد ما من الصلحاء. ولا يمكننا أن نعزو – من غير تردد – إلى أصول مغرقة في القدم لسهولة التي بها يسلم هولاء النسوة انفسهن لاول قادم(٦). فلاشك ن مثل هذه الاخلاق قد كان معمولا بها عند أجداد البربر. كما كن معمولا بها عند الكثير من الشعوب. ولكن لا شيء يسمح بان نرى فيها بقايا من وضع اجتماعي كانت فيه النساء شركة بين الرجال وإذا لم يكن المسألة ببساطة مسألة تكسب او مجون، فإن السحر يعطين لنفسر الاصح. وهناك اعتقاد كان فيما مضى واسع الانتشار، وهو نه بعملية تعاطف فان التعامل الجنسي يساعد التناسل – أيا ما كان –

وعلى الخصوص يساعد على وفرة نمو الحبوب المزروعة في الأرض. ومن هنا كانت الطقوس المختلفة التي استمر الناس على مراولتها حتى بعد أن توقفوا عن فهم كنهها وبعد تشويهها غالبا. وكذلك عميات البغاء التي لم يبق لها من قداستها سوى المكان الذي تزاول به. والتي صارت تستوجب أجرة، وحتى التي صارت تقنع بالفساد الجنسي بسبب النسيان الكلي لأصولها.

ونفس التفسير صالح (الليلة الغَلْطة Nuit de l'erreur). وحسب كتب نقل عنه نيقولا الدمشقي Nicolas de Damas. ففي إحدى العشائر الليبية يجتمع الرجال والنساء في يوم محدد عقب اختفاء نجوم الثريا، وبعد تناول العشاء يذهب الرجال إلى النساء اللواتي يكن قد انعزلن في مكان على حدة. فتطفأ الأنوار، ويقع كل واحد على من يجدها منهن. إن هذا ليس خرافة، وهي عادة ذكرها في القرن السادس عشر ليون الإفريقي (محمد الوزان الفاسي) وقال إنها موجودة بعين الأصنام جنوبي صفْرو بالمغرب. ويقال إنها استمرت موجودة حتى اليوم في أماكن عديدة بالمغرب والصحراء. وليس لدينا شهادات من العهود القديمة على طقوس أخرى جنسية لاشك أنها قديمة الوجود جدا في بلاد البربر، ويمكن تفسيرها بنفس الطريقة. منها عادة الاحتفال الكبير بقران «خطيبي الخير» Fiancés du bien اللذين يتزوجان ليوم واحد. وهناك عادة الاحتفال في آن واحد بجميع زوجات (زيجات) السنة. ويبدو أن تاريخها كان في أول الأمر مرتبطا بحياة المزروعات، ولكنه اليوم يختلط غالب بأحد الأعياد الإسلامية التي يتغير موعد حلولها. وقد كانت هذه الزيجات الجماعية مستعملة في أمكنة أخرى عدا شمال إفريقيا مثل بروطونيا Bretagne.



وهناك عادة يرى البعض انها بقية من الاختلاط، وهي أن تُهدى للضيف إحدى نساء البيت الذي يضيف فيه. وقد اشار البكْري إلى وجودها عند إحدى القبائل بالمغرب. والى عهد قريب كان اهل «القبائل» (بالمنطقة المعروفة باسم القبائل kabylie) يفعلون مثل ذلك. وذلك بعض عمى لوحظ وجوده عند شعوب اخرى. ولكن منذ عدة قرون لم يعد ذلك بالنسبة للبربر سوى عمل كريم لإرضاء الضيف. وفي العصور الوسطى كان الغلْمان، لا النساء، هم الذين يقدمون هكذا في بلاد القبائل الصغرى. فهل كان هذا في الأصل أحد الطقوس التي ضاع مدلولها؟ يمكن افتراض ذلك، وإن كنا في هذا غير مستوثقين من شيء.

والخلاصة هي أن جميع الأحداث التي سردناها من قبل، ليس منها ما يؤكد صراحة فريضة الوجود لمجتمع بدائي نسوي. فبعض هذه الأحداث يحتمل تأويلات مختلفة ومشكوك فيها كذلك. وبعضها يحتمل جيدا أنه من طقوس السحر الجاذب Magie sympatique. وبعضها الآخر يمكن الاكتفاء بتفسيره بانه إرادة لاشباع وترضية الرغبات الجنسية الجامحة. لقد اشتهر الافارقة في العصور القديمة بكونهم قوما لا يسيطرون على غرائزهم. وكان القديس أغسْطين – وهو أعظمهم – قد استطاع ذلك، ولكن بعد صراع وأي صراع ترك لنا عنه اعترافات مثيرة. وكم كان يخشى ان يتردى ثانية! وفي الشعر الشعبي برهان على تسلط الحب على النفوس. كما أن التحلل الأخلاقي في العادة شديد لدى بربر اليوم، وإن الامر يكون أشد لو لم تكن الرقابة على النساء شديدة، ولو لم يكن الفاسقون معرضين للمخاطر إذا تعاطوا الأفعال الممنوعة.

غير أن هذا لا يتعارض مع وجود نظام ينشئ العلاقات الشرعية لصالح المجتمع.

2

ليس هذا محلاً لمناقشة إحدى المشكلات التي لا حل لها من الوجهة العملية. وهي مسألة التزاوج الدائم بين شخصين من جنسين مختلفين يلدان ويربيان الصغار لدى الإنسان كما عند البعض من الحيوان – هل هو حدث طبيعي، هو التجمع البدائي، أم قد تقدم عليه وضع من الاختلاط ؟ على كل حال فان الأسرة منذ عهد عهيد هي نظام قانوني، ولوجودها اهمية في المجتمع. لانها تمكن المجتمع من البقاء والاستمرار. إذن فبواسطة المجتمع تكونت الحقوق و لواجبت المترتبة عن ذلك.

ولاشك أن الأسرة والزواج الذي هو لها أساس، قديمان جدا عند الليبيين. فهيرودت، وهو اقدم الكتاب الإغريق الذين تحدثو لنا عن هولاء الباربار قد تعرض في مناسبتين لزيجات احتفل بها علانية [3] . فقدم لن النصمونيين وهم يزورون قبور أجدادهم المعروفين إذن معرفة جيدة. وفي الألف الثاني قبل الميلاد تظهر في بعض الوثائق المصرية نساء وأبناء بعض الرؤساء Chefs الليبيين.

إن العلاقة الشرعية بين الرجال والنساء يمكن أن تكون على عدة اشكال: برجل واحد مع امرأة واحدة، ورجل واحد مع عدة نساء، واخير – وهذا نادر جدا – بامرأة مع عدة رجال. وسنرى أن الحالتين، الاولى وهي الزواج الانفرادي Monogamise والحالة الثنية لرحل



والضرات Polygamie قد كانتا موجودتين عند الليبيين، بينما الحالة الثالثة وهي المرأة للأزواج Polyandrie، لا نعثر لها على أثر.

وكذلك، فلا برهان لدينا على أن أجداد البربر قد فرضوا على أنفسهم الزواج الخارجي Exogamie وهو منع الزواج بين رجل ونساء من نفس الجماعة أي ان يفرض عليهم الزواج من جماعات أخرى معلومة. فهذا التقنين الذي كان واسع الانتشار في امريكا الشمالية وفي أقيانوسة وغيرهما أيضا، يبدو أنه كان غير معروف في إفريقيا الشمالية مثلما كان غير معروف في آسيا الغربية وأروبا.

ويوجد على حالة من النقاء أو كان يوجد عند بعض العشائر الهمجية ما يسمى بأسرة الامومة، اي الانتساب للأم، بحيث أن هذه النسبة تعرف باسم الأم. وعند تذكر الأجداد فإن التسلسل يكون على الخط النسوي. وليس هناك قرابة اخرى شرعية في النسب. فالأسرة أحادية الجانب، والطفل ملك لأمه، وهو دائما مرتبط بظروفها وبظروف الكتلة المجتمعية التي منها الام. وأخ الام أو أحد أقربائها هو الذي يمارس على الطفل السلطة والرعاية اللتين يضطلع بهما الرجل.

ان أصل هذا النوع من التنظيم الأسري يمكن تفسيره عمليا بأن دور الاب في التنسيل قد كان في اول الامر مجهولا. وأن الانتساب إلى النساء قد استمر بعد ذلك بسبب خاصيته الواضحة الجلية التي يفتقدها الانتساب إلى الرجال. وكان الانتساب للنساء هو القرابة الأسرية الوحيدة التي كان من الممكن التاكد منها في الجماعات التي تستعمل الاختلاط الجنسي على فرض انه استعمل في فترات مؤقتة ومتعاقبة، بتعدد الرجال. غير أن تسمية الطفل باسم امه وانتمائه لأسرة

الام كثيراً ماستمر العمل بهما أيضا في أحوال شرعية من الزواج، حيث الآب معروف، وحيث المرأة تغادر أهلها وتذهب لتسكن مع زوجها. ونفس نظام الأمومة يوجد كذلك عند بعض السكان الزنوج بإفريقيا. ولابد أنه فيما قبل كان أكثر انتشارا، ثم أخذ في التراجع أمام الاسرة الابوية. وقد وقع التشبث بنظام الأمومة في إحدى الحالات التي لابد أن يكون فيها الدم نقيا بصفة لا تحتمل شائبة شك. وذلك في حق الميراث لتولي الحكم (يقول نيقولا الدمشقي إن الاثيوبيين يكرمون أخواتهم بصفة خاصة، والملوك يورثون الحكم لابناء أخواتهم، وليس لأبنائهم[39]). وفي العصور الوسطى كانت السلطة العليا تنقل بنفس الطريقة في الممالك السودانية بغانة Ghana ومِلّي Melli. ونقرا في البكْري حول هذا الموضوع في غانة قوله «ومذهبهم أن المُلك لا يكون إلا في ابن أخت الملك، لأنه لا يشك فيه انه ابن أخته. وهو يشك في ابنه ولا يقطع على صحة اتصاله به[40]».

وليس لدينا برهان على انه في أعصر التاريخ القديم قد وجدت عند الليبيين الأسرة الأمومية. بينما نجد عند البعض منهم الأسرة الابوية منذ الالف الثانية، غير أن تسلسل الانتساب عن طريق الام بقي معمولا به إلى أيامنا هذه عند الطوارق أو على الاقل عند قسم منهم. ولكنهم ينحدرون من أقوام أصولهم من بلاد البربر، وهم على ما يحتمل لم يصلوا إلى الصحراء إلا بعد عهد المسيح. والطفل في هذا الشعب هو للقبيلة ويلتحق بأمه في حالة نبلها أو عبوديتها. وإذا كانت المواريث الخصوصية وفقا للقانون الإسلامي تنتقل من خط الذكورة[41]، فإن الميراث السياسي لآحد الرؤساء ينتقل لأكبر من ياتي وراءه من إخوانه للأم. وإذا لم يوجد الأخ فينتقل الإرث للأكبر من أبناء خالته او للأكبر من





أبناء أخته الكبرى. ولنذكر أنهم لكي يعبروا عن القرابة المتينة لتي تربطهم - حسب اعتقادهم - بأوران Ourane، فإن من الطوارق من يقول بأن هذا الحيوان هو خالهم، وذلك ما يفسر بطريقة الانتساب للام.

لقد كان ذلك معمولا به في القرن الرابع عشر للميلاد. ونجهل هل هو أقدم من ذلك العهد. ويمكن الافتراض بأن البربر فاتحي الصحراء قد أخذوه عن الأثيوبيين بالواحات، أو من زنوج السودان الذين كانت لهم معهم علاقات كادت تكون دائمة، وسيطروا عليهم أحيانا. لكن الافتراض قد يواجهه اعتراض خطير. بحيث إذا كانت الأسرة الأبوية قد حلت في الغالب محل الأسرة الأمومية، فإن التحول العكسي حسب ما نعلم لم يلحظ له وجود ابدا. وعلى هذا فلابد من الاعتقاد بأن أجداد الطوارق قد حملوا من بلاد البربر الانتساب النسوي. وعلى كل فيبدو لي أن المشكلة لا يمكن أن تحل في الوضع الحالي لمعلوماتنا.

إن وجود هذا النظام الأسروي عند الليبيين يبدو أمرا لا مجال فيه للشك، ولا يبرر افتراض وجود حقبة من تاريخهم تجعل الرجال فيها كانوا خاضعين للنساء. فالانتساب للنساء يجد تبريره كما قلت في كونه أمرا مسلما. بالتحاق الطفل بالأم وبالحمل والولادة، و لعناية لتي تستطيع الأم وحدها أن توفرها للطفل وهو صغير. غير أن هذا لا يحتم وجود ما يسمى بالحكم النسوي Gynécocratie.

في ديودور الصقلي[43] نقرأ حكاية طويلة مستقاة عن كاتب إغريقي من أهل القرن الثاني قبل الميلاد، هو ديونيسيوس لمعروف بلقب سكوتبراكيون Scytobrachion، وهي - قبل عهد برصي Persee وهركول كان يوجد في القاصية الغربية لليبيا شعب من لأمزونات

Amazones. وكان النساء هنّ وحدهن اللواتي يُقبلن في الخدمة العسكرية. وأثناء هذه المدة كن يبقين عَذارى، ويتزوجن بعد ذلك لإنجاب الأطفال. وكان الرجال يبقون في حالة التبعية، وعليهم القيام بجميع الأعمال المنزلية، بينما جميع اعمال الدولة كانت مخصصة لنساء... إلخ... وبالطبع فإن هذه مجرد رواية يجب أن لا نعيرها أي اهتمام.

وكذلك فليس هناك من سبيل للحصول على معلومات حول ما قد يكون حكما نسويا بدائيا في الدور الذي لعبته بعض النساء في العهود التاريخية، مثل كورْيا Cyria التي شاركت في القرن الرابع الميلادي بحظ كبير في ثورة أخيها الامير فِرْوموس Firmus الموري ضد الرومانيين[44]، ومثل الكاهنة بطلة المقاومة ضد الفتح العربي، و لتي يقال أن موهبتها في التنبؤ بالغيب اعطتها نفوذا لا مثيل له، وز ولت بواسطة ابنائها حكما كاد يكون مطلقا على قسم كبير من البربر. وكذلك الامر بالنسبة لامرأتين اثنين ساحرتين كاهنتين، هما عمّة و خت نبيّ كاذب في قبيلة غُمارة بالمغرب الشمالي في القرن العشر لميلاد. وزَيْنب وهي ايضا ساحرة، وكان لها بعد هذا التاريخ بقرن من لزمان تأثير كبير على زوجها يوسف ابن تاشفين موسس دولة لمر بطين. وبعد ذلك في القرن الثالث عشر كانت ام يغْمُراسن امير تِمْسن، وهي امرأة رجلة Virile ذهبت إلى معسكر الأعداء لإبرام إحدى المعاهد ت، كما أن شِمْشي في القرن الرابع عشر كانت بمساعدة أبنائها العشرة تحكم قسما من بلاد القبائل Kabylie، وختاما ففي عهدنا وبنفس المنطقة فإن الوَليّة Maraboute لالّة فاطْمة كانت في سنة 1857 روح الثورة ضد فرنسا.

من بين جميع هؤلاء النساء الشهيرات، يتأكد ان بعضهن، ويحتمل جيدا أن البعض الآخر، لم يتقلدن أبدا اية سلطة قانونية، بل بفضل ذكائهن وقوتهن كانت لهن سيطرة زاولنها إما على المقربين من ذويهن أصحاب السلطة الشرعيين، أو زاولنها على مدى واسع وكان لاكثرهن طابع القداسة، فمنهن ساحرات ونبيات ووليات.

وعلى غرار ما فعلته - أو لاتزال تفعله - شعوب أخرى، فإن البربر يجعلون بسهولة للمرأة قوة سحرية نافعة او ضارة، وهم يخشون نقمتهن التي يمكن ان تكون لها أسوأ النتائج، وربما لهذا السبب يتحاشون ان يوقعوا بهن المصير الحربي الذي يوقعونه بالمغلوبين. وفي بعض قبائل المغرب، حيث منزلة المرأة هي دون بكثير من منزلة الرجل، يستطيع المرء الذي يهدده الموت أن ينقذ حياته بالالتجاء إلى إحدى النساء، فيتمسك بكنفها ويرجو حمايتها، وقل ان يجرؤ أعداؤه على انتهاك حرمة هذا الملجأ. وفي أعصر التاريخ القديم بل وبعده كذلك، كان يعزى للنساء - لا للرجال وعلى الاقل للأحياء منهم - موهبة التعرف على المستقبل، وهكذا فنحن نعرف متنبيات شهيرات، كان بعضهن من مستوى رفيع مثل أم مسنيسا، والكاهنة ملكة الاوراس.

والإسلام يقبل بوجود الوليات اللاتي من أنفسهن أو يرثن هذا النوع من الجاذبية المقدسة التي تعطي سلطة عديمة النظير لمن يملكها. ولكنه (اي الإسلام) نحى النساء عن الشعائر العامة[15]. وهذه النتيجة كانت أمرا جديدا على البربر. وقد وصف هيرودوت[16] حفلة دينية كبرى كان يقيمها الفتيات في ناحية سدرة الصغرى، وذلك بعدما فمن باحدى الشعائر السحرية لتنحية الشر. ولا يزال النساء يشاركن في العديد من الحفلات السحرية التي هي حية بشمال إفريقيا. ويكون من السهور البالغ

عزوه إلى نظام حكم نسوى بعيد العهد، بل ولا إلى تنظيم بداني لفدت المجتمعية على شكل أسر أمومية.

3

باستثناء ما يعمل به الطوارق، فإن النظام الأسروي منمش في كر مكان عند البربر. فلاشك أن البربر ينتمون لأجناس مختنفة. و ن سسلة ضويلة من الأحداث المجهولة قد جمعتهم أو قاربت بيهم. ولكن الزمان وحّد نظمهم الاجتماعية وكذلك أخلاقهم ولغتهم. ومن لعبث البحث لمعرفة من منهم الذين اعطوا ومن الذين أخذوا. والشيء الوحيد لذي يمكننا ملاحظته هو تشابه نظامهم الأسري مع نظام لشعوب التي اعتدنا تسميتها تبعا للغتها باسم الآريين والساميين. عى ن هناك بعض الاختلافات ففي غيبة البراهين الواضحة عما يخص عهود التاريخ القديم، فإن البعض من هذه الاختلافات يسوغ لنا ن نفترض - وبما يقارب الصواب - اننا امام قواعد وعادات سابقة في الزمن عى عهد الفتح الروماني والإسلامي.



إن الأسرة البربرية مؤسسة على الزواج، ولها رئيس هو الرجر، الدي لابد أن تسكن عنده المرأة، وأن تطيعه، وأن تخص له إخلاص الروجة. وتعدد الزوجات أمر مشروع. والبنوة تثبت عن طريق الاب، أي عن طريق زوج المرأة الوالدة، لأن هذا إذا عجز عن لإدلاء بحجة زنى زوجته، فلابد له من الاعتراف بأبوته للاطفال الذين تلدهم. وتبقى الأسرة في الوجود عن طريق الذكور، بينما يغادرها البنات بزو جهن. ولا يُعدّ أبناؤهن منها. وكذلك تنتقل الاملاك الشخصية بين لذكور، بينم

الزوجات والبنات اللواتي لهن حظ في الميراث حسب القانون الاسلامي.
ليس لهن أي حق في الميراث في العرف البربري.

أما أن يكون هذا النظام راجعا لتاريخ عتيق، فذلك ما لا يمكن الشك فيه. وإن قدم الوثائق المتعلقة بأجداد البربر هي النقوش المصرية التي تعرفنا أن في القرنين الثالث عشر والثاني عشر قبل الميلاد كان الحكم عند الليبيين ميراثا متداولا بين الذكور. وذلك برهان على وجود الأسرة الأبوية. وبعد ذلك نجد في النقوش الليبية والبونيقية واللاتانية بعض الأهالي يذكرون اسم ابيهم. وليس لدينا فيما اعتقد من إشارة بالانتساب للنساء. كما ان كل ما نعلمه عن الملوك والامراء ولي العهد في نوميديا وفي موريطانيا حول نقل السلطة الملكية في هاتين المنطقتين خلال القرون الثلاثة الاخيرة قبل الميلاد. كل ذلك ينفي الانتساب للنساء ويشهد بالانتساب للرجال.

إن حياة العزوبية قليلة الوجود جدا بين البربر. والتطليق والترمل يتبعهما عادة زواج جديد إذا لم تمنع الشيخوخة منه. وعلى العموم فالرجال والنساء يتزوجون لأول مرة في الشباب الباكر، في سن المراهقة تقريبا بالنسبة للنساء. وبهذا العمل يتبين لنا لماذا يكون اكثرهن لا يزلن أبكارا . وإن كان هذا لا يكفي لتفسيره. ففي عهود التاريخ القديم كانت العذرية Virginité مستحسنة. بل ربما كانت مفروضة على الفتيات. ولا يزال الامر معمولا به إلى اليوم. وفي جميع الجهات تقريبا يجب تقديم البرهان عليها جهرا عند اتمام الزواج (الدخلة). فإذا تعذر ذلك فسخ الزواج. وفي بعض القبائل فالمرأة المردودة هكذا، ربما يقتلها أهلها. ومنذ اقل من قرن، كان في منطقة القبائل Kabylie، إن الفتاة التي لها ابن سفاح تقدم للموت مع ابنها. كما أن القيمة الزواجية للأرامل والمطلقات هي اقل من قيمة الأبكار.

يحسن أن نميز في الزواج بين الطقوس وبين شراء لمر
فالطقوس هي ذات أصل سحري. وهي تقدم لبوم بصفة لية ففد
مغزاها في الاغلب. وكانت فيما مضى تعبيرا عن المعتقدات و لخشب
والمطامح المختلفة جدا. التي اختلطت فيما بينها من دون محو
للتوفيق. وأكثرها كانت له - أو يبدو أنه كانت له - قيمة تطهيرية
وقائية. إذ يجب إبعاد الأخطار التي يتعرض لها الزوجان عند اقتحامه
حياة جديدة. وطقوس أخرى ترمي على ما يحتمل إلى تنحية لشر الد
قد تجلبه الزوجة بتأثيرها السحري، ليس على الزوج فحسب، بل ح
على الأشخاص الحاضرين. أو قد ترمي الطقوس على النقيض من ذ
إلى الاستفادة مما يحتمل أن يكون في هذا التأثير من خير. و
الطقوس ما يرمي إلى تيسير عملية إتمام الزواج، وجعله زواجا خص
وضمان السعادة والوفاق للأسرة. وبعضها يمكن النظر اليه كبقية
طريقة الاختطاف، وهي طريقة للحصول على لمرأة مخالفة تمام لمخ
للطابع القانوني لنظام الزواج.

إن الزواج البربري هو في الواقع ناتج عن اتفاق عيني يحصل ب
ابوي الشخصين المتزوجين. إنه شراء يقوم به والد الشب من و
الشابة. ورضى هذه الاخيرة ليس ضروريا. وفي لاغب فإنه لا يط
منها. وفي بعض القبائل فإن حق الاب في بيع بنته، هو له حق مط
سواء سبق لها أن تزوجت او كانت بكرا. ولابد أن هذه كانت هي القا
البدائية. فإذا حدث أن خفت حدتها في بعض الجهات، وإذ ستطاع
الأرامل والمطلقات عادة ان يملكن زمام أنفسهن فمن لمحتمل أن ذ
كان على غرار التشريع الإسلامي. ومن نفس الشريعة اقتبس البر
المهر الذي يقدمه الزوج للمرأة، وقد يكون المهر حينا متميز عن ت
البيع. وحينا اخر يتداخلان، بل قد يختلطتان. وحسب الفنون لبربر

لبد بي. فإن ما أعطي لأب المخطوبة من ماشية، أو طعام أو مال فالأب يحتفظ به كله لنفسه على ما يحتمل.

وعدد الرجال – إذا لم ينخفض بسبب الحروب الفتاكة – إنما يختلف قليلا عن عدد النساء، ومع أن حياة العزوبة أمر استثنائي، فإن كثرة البربر يتزوجون ضروريا بزوجة واحدة، بل إن بعضهم يكرهون تعدد الزوجات مثل أهل مزّاب بالجزائر وقبائل حاحة وآخرين بالمغرب.

ومع ذلك فإن تعدد الزوجات قديم جدا بشمال إفريقيا، سابق جدا على انتشار الاسلام الذي يأذن به كما نعلم. فهناك نقش مصري من القرن الثالث عشر يشير إلى أنه بعد إحدى المعارك وقع أسر اثنتي عشرة مرأة لقائد الربو Rebou (هم الليبيون الشرقيون) وكان قد جاء بهن (للمعركة). على أن هناك براهين أخرى أحدث عهدا، وتمتد في الزمن ما بين القرن الخامس قبل الميلاد والقرن السادس للميلاد، ونشهد بوجود تعدد الزوجات في بلاد البربر. يقول هيرودت «عند النّصمونيين، اعتاد كل واحد أن يتزوج عدة نساء[47]. والأهالي الذين يعيشون بداخل الأراضي لهم حسب قول سترابون[48] نسوة متعددات». ويقول بمّبونيوس[49]. «كل واحد منهم له عدة نساء في آن واحد». ونقرأ في سالُسْت[50] قوله: «... عند النوميديين والموريين... لكل واحد حسب موارده عدة نساء، فلبعضهم عشر منهن. وللآخرين أكثر. وللملوك أكثر وأكثر. كما أن مصنف رواية «حرب قيّصر» في إفريقيا يشير إلى زوجات سوب الأول. وفي عهد الدولة المتأخرة يتحدث كلوديان Claudien بمبالغة مسموح بمثلها للشاعر عن «الزوجات الألف» عند الأفارقة[51] ففي القرن السادس يذكر بروكُبيوس Procopius كذلك أن الرؤساء لهم عدة نسوة[52] ويحكى أن القائد البيزنطي سليمان Solomon هدد بعض

الثوار بقتل أبنائهم الذين كان يحتجزهم رهائن عنده، فوصله منهم هذا الجواب: «يحسن بك أن يكون لك قلق على أبنائك، أنت الذي لا يؤذن لك بالزواج إلا من امرأة واحدة. أما نحن فقد نتزوج الخمسين إذ واتتنا الفرص. ولا يعوزنا الأطفال أبداً[33]».

فكما يستفاد من حل هذه النصوص، فإن الأغنياء والرؤساء والملوك هم الذين كان لهم نساء كثيرات. إذ كان بمستطاعهم أن يشتروهن وأن ينفقوا عليهن.

وكذلك كان للأمراء وللملوك محظيات، كن في الغالب من الإماء ولكن لم يكن لهن اعتبار الزوجات. والأبناء الذين يولدون منهن خارج الزواج لم يكونوا يُعدون أبناء شرعيين.

إن هذا الاقبال على تعدد الزوجات يفسره على الخصوص الطبيعة الشهوانية التي عند الأهالي. فالمرأة تشيخ قبل الرجل بسرعة. وأثناء شبابها فإن الولادة والرضاعة وغيرهما من الأسباب، كثيراً ما تمنعها عن الاتصال الجنسي. في حين أن الرجال لا يعنون أنفسهم بالإمساك عن ذلك. وعلاوة على هذا فإن من يتمنى كثرة الأطفال يجد في تعدد الزوجات ما يمكنه مما يتمناه، وذلك هو ما يشهد به جواب الموريين للقائد سليمان، بغض النظر عن صدق ذلك الجواب أو كذبه. وقد استطاع مسنيسا بتعدد الزوجات أن ينجب أربعة وأربعين من الأبناء. أما الأشخاص الذين هم من مستوى عادي، فالنساء لهم بمنزلة الخادمات، أي رأس مال يدر نفعاً، كما هي الحال بالنسبة للإماء تقريباً. وحيث إن تعدد الزوجات يسهل الخدمات المنزلية بتقسيم الشغل بينهن. فالزوجات أنفسهن يجدن فيه بعض المنفعة.



وسواء أكان الزواج بواحدة أم بزوجات متعددات، فإن الرجال يفرضون على زوجاتهم السكنى معهم في بيوتهم. والشيء الذي يميز أسسيا الحياة الزوجية هو تكوين اسرة دائمة لا ينقطع دوامها بالسن لتي لا تعود فيها المرأة صالحة للحياة الجنسية. والعيشة المشتركة لا تقبل عند البربر إلا بين أزواج شرعيين. و«الأسر الصورية» قليلة الوجود جدا بينهم. وبالنسبة للأغنياء – سواء بزوجة واحدة أو أكثر – فإن لتسري بنساء من منزلة أدون، لا يلغي الزواج، بل كأنه يكمله.

و لحق أن الزواج يمكن أن يفسخ لان الرجال لهم حق التطليق. وهم يستعملون هذا الحق عن سعة في كل مكان تقريبا. وبدون أن يبررو. أسباب قرارهم. والقدر المالي الذي سبق دفعه لشراء المرأة، فإنه عند بعض القبائل يرده أب المرأة المطلقة أو يرده زوج جديد. وحق التطليق هو حق لجانب واحد، إذ المرأة، وهي ملك للرجل بحق الشراء، لا يمكنها أن تتحلل من الزواج لا بإرادتها. ولا حتى بحكم القضاء. ولاشك أن هذه عادات بالغة في القدم. والإسلام في أمر الطلاق أقل قسوة عى النساء.

والرجال ليسوا ملزمين بالاخلاص للزوجة. بحيث أنهم إذا توجهو إلى لبغايا، فإن سلوكهم لا يعني غيرهم. ولا يكونون معرضين للمخاطر إلا إذ ساءوا لاحد الازواج بإجراء علاقات مع زوجته، او نقصو من لقيمة الزواجية لإحدى البنات بأن حرموها من بكارتها.

و لزوجة ملك كلي لزوجها الذي قد يكون له الحق في المتاجرة بها. وهذه لتجارة بالغة في القلة، وهي ممقوتة جدا. لأن الأسرة وهي تستمر من ذكر لذكر لابد أن يكون انتقال الدم فيها انتقالا حقيقيا. لهذا فإن زنى المرأة يعاقب عموما بعقاب الموت. كما أن الشريك تنزل به

عقوبات قاسية. وعندما يقول هيرودت إن النصمونيين يقبلون وجود لزواج مع العلاقات الحرة مع النساء، فإننا نتساءل هل هذا القول مطابق للحقيقة ؟ وعلى كل حال فاننا لا نجد من ذلك شيئا عند البربر، لا في الحاضر ولا في الماضي الذي يبلغه علمنا"[3] ولا يجب أن نستثني من ذلك سوى بعض الطقوس السحرية التي كانت تقام بين مدد زمنية بعيدة، غير معروفة جيدا لهذه الليالي (الليالي الغلطة) إن صح أن النساء المتزوجات كن يشاركن فيها.

وأحسن وسيلة لمنع الزنى، هي في حرمان الزوجة من فرصة قترافه. لكن نساء البوادي لسن خاضعات لهذه العزلة المفروضة على نساء المدن، وهي لا تتناسب مع قسم من الخدمات التي يجب عليهن اداؤها. فيخرجن سافرات الوجوه. وفي تنقلات الرحل، يكون النساء بالضبع بين الجموع السائرة، وغالبا ما يحضرن المعارك التي يخوضها زواجهن وإخوانهم وابناؤهن. ولكن يجب في حياتهن العادية أن يتجنبن عدم التحادث مع الرجال الذين ليسوا من أسرهن. بل ويجب أن يتحسبهم اذا لاقينهم. وفي الاسواق وغيرها من الامكنة العامة فانهن لا يقتربن منهم الا إذا كانت شيخوختهن تحول دون اي خطر في هذا الاقتراب. والاجتماعات تكون فيما بينهن. اما في المقبرة و في جل لحفلات. اما خارج العائلة فللجنسين حياة منفصلة انفصالا تاما.

برغم الطابع السحري والمقدس الذي يعترف به في بعض الظروف للنساء، فان البربر مقتنعون بان النساء دون الرجال. فالزوجة تخضع لزوج خضوعا كليا. وقد يحدث لاشك أن الزوجة بسبب جمالها او ذكائها يكون لها على الزوج تأثير قوي يجعله يحسن معاملتها أو يقبل آراءها. وبدون شك فإن القرطاجيات والرومانيات اللواتي تزوجن بأمراء

من الأهالي لم يخضعن لنوع من الاسترقاق. ونحن نعلم أي تأثير كان لصعوبة بعل (صفونسبي Sophonisbe) الجميلة المثقفة على فكر لملك سيفكس، والى أي حد أقلق الرومانيين زواجها الجديد. وفيما سبق ذكرنا أمثلة أخرى للقوة المعنوية التي نالتها نساء كن من دم بربري.

ولكنها أمثلة كانت استثناءات. وفيما مضى كاليوم. كانت المرأة من سود الناس خادمة تنوء بأشد الخدمات[؟]، وتسرع إليها الشيخوخة بسبب هذه الحياة القاسية، وكذلك من كثرة ما تلد.

ومع هذا فيجب القول بأن الطوارق يمتازون من بين البربر بالوضع الأحسن الذي يمنحونه لزوجاتهم. وقد رأينا أنهم وحدهم الذين يقبلون تسلسل النسب في الخط النسوي. وان هذا التسلسل، وإن كان لا يفضي الى نظام الامومية، فهو نوع من التشريف للأمهات. وهناك جوانب أخرى من أخلاقهم هي أيضا لصالح النساء. إذ لا يعاملن بعنف، ويتمتعن بحرية كبيرة يستعملنها ويبالغن في استعمالها. ويتنقلن كما يردن، ويتحدثن مع من يشأن، ويختلطن مع الرجال في الاجتماعات الموسيقية وغيرها[60]. ولا يتزوجن إلا إذا قبلن الزواج. والمقدار المالي الذي تؤديه اسرة الزوج هو مهر، وليس ثمن شراء، ويدفع لهن لانه ملك لهن. والاخلاص للزوجية هو الواجب الوحيد المفروض عليهن، من حيث المبدأ أكثر مما هو في الواقع، لأن البغاء قل أن يعاقب عليه بالعقاب القاسي. وفسخ الزوجية حق لهن، كما هو بيد أزواجهن أيضا، وإن كان لا يستعمله لا هؤلاء ولا أولئك، كما أن تعدد الزوجات هو أمر استثنائي.

إننا نعترف أن هذا الوضع للمرأة عند الطوارق يجعلنا أمام مشكلة مربكة. اذ لا يحتمل أنه وضع حديث العهد وقع بعد قدوم أجدادهم الى

الصحراء. وإذا كان لهؤلاء الأجداد نفس القوانين العائلية التي لغيرهم من البربر، فلا نرى لأي سبب من الأسباب يتخلون عنها. ونحن أميل إلى لاعتقاد بأن الأخلاق الحالية للطوارق. وهي غريبة في هذا المجال. قد نقلوها هم فيما مضى من شمال إفريقيا. وليس هذا مسوغ لنسسم بأنها كانت منتشرة أنتشارا واسعا في ارض البربر خلال العصور التاريخية. على الأقل في القرون التي سبقت عهد الميلاد وكذلك في لتي تلت. إن معلوماتنا مهما كانت هزيلة يمكن أن تكون كافية لتسوغ لنا التأكيد بأن الأسرة الأبوية قد كانت موجودة عند النوميديين وعند الموريين، بل ولتسوغ لنا الاعتقاد بأنه لم يوجد عندهم نظام عسي خر. ومن ناحية أخرى يتاكد ان حظ النساء كان على العموم حظ قاسيا جدا. لأن القانون الإسلامي - وهو أقل سخاء معهن - هو مع ذلك الطف بهن من العادات القديمة البربرية.

ولكن الجيتوليين الرحّل جيران الصحراء - التي سيهاجرون إليها فيما بعد - لا مانع لدينا من الافتراض بأنهم استعملوا تسلسل لنسب حسب الخط النسوي. وكذلك فلا مانع من الافتراض بأنهم حافظو بشدة على نظام تخلى عنه اهل الصحراء الآخرون منذ عهد بعيد. والحقيقة هي أننا ليس لدينا على هذا حجة مباشرة. فلنترك إذن هذه المشكلة لمستعصية. ولنبحث حالة الاطفال في الاسرة الابوية.

يقبل البربر كثرة الأطفال عن طيب خاطر. وقد بينا أن ذلك أحد لاسباب التي من أجلها يتخذون حين يستطيعون عدة زوجات. وحد في استمرار وجود أسرهم، فانهم يستقبلون بفرح ولادة الابناء. وفوق ذلك فإن الابناء عناصر قوة في الكتلة الاجتماعية التي ينتسبون إليها. ما لبنات فقدومهن لا يقابل بمثل ذلك الفرح الكبير. ومع ذلك فلا يقع

التخلص منهن لا بالقتل ولا بالتخلي عنهن. ويقمن بخدمات في عون الأم في شغالها المنزلية. وإذا بلغن سن الزواج كانت لهن قيمة تجربة تعوض الى حد ما النفقات التي انفقت عليهن. وكثيرون هم الكتاب القدماء الذين شهدوا بأن للافارقة ابناء كثيرين. والحقيقة هي ان هؤلاء السكان الذين يعيشون حياة صعبة جدا، لابد أن الموت في سن باكرة قد كان عندهم قويا فيما مضى كما هو اليوم.

ان الحياة المشتركة المتولدة عن الزواج تهدف على الخصوص الى ضمان السهر على الاطفال. فالأم تعنى بهم وتربيهم كما تستطيع، بينما الاب – وهو اقل مداخلة معهم – يهيء لهم وسائل العيش ويقوم بحمايتهم عند الحاجة. وأغلبية البربر يؤدون هذه الواجبات بعاطفة المحبة. ومن ذلك فان سلطة الاب مطلقة مثل سلطة اب العائلة الروماني Pater familias. ويمكنه مزاولة هذه السلطة بعنف وعلى غرار المجتمعات الاخرى التي لها نفس النظام العائلي. فإن الأب في الأصل كان له دون شك جميع الحقوق على ابنائه، وحتى حقوق الحياة والموت. اما بناته فيبيعهن هو لمن يريد الشراء. وابناؤه يبقون حتى اليوم خاضعين لسلطته إلى زواجهم الذي لا يمكنهم أن يعقدوه بحرية. فالأب هو الذي يقرره ويفاوض في شأنه، وغالبا ما لا يستشيرهم في ذلك. ولربما ان خضوعهم كان في الماضي يستمر إلى موت الاب، لانهم كانوا لا يخرجون من العائلة بعد زواجهم مثل أخواتهم النساء. فلم يكونوا يفعلون اكثر من اضافة حلقة جديدة إلى السلسلة الطويلة التي يكونها الذكور في هذه العائلة.

زيادة على البنوة الطبيعية التي يثبتها الزواج القانوني، فإن العرف البربري يعترف بالبنوة عن طريق التبني. ولكن خلافا للقانون الاسلامي،

فالتبني لا يقبل إلا إذا كان لابن الأخ، أي لصالح الفرد الاقرب في العائلة بعد الأبناء، أو عند عدم وجودهم. وهكذا ففي القرن الثاني قبل الميلاد كان الملك مسبْسا Micipsa قد تبنى يوغرطة Jugurtha ابن أخيه مَسْتَنْبعْل Mastanabal.

إن الأسرة البربرية التي وصفناها في خطوطها العريضة، تؤدي اهم أدوارها الاجتماعية، وهو الاستمرار في الوجود وتضامن الاجيال. وفي عهد كان فيه المتحضرون بالعالم القديم يحدون من عدد أبنائهم كانوا يقولون بكل سهولة إن الافارقة لهم ابناء كثيرون كثرة تجعلهم لا يحبونهم حبا جما. وقد كان لوم هؤلاء المتحضرين تبريرا لسبب لكبريائهم. لكن سالُسْت قد أوضح في بضع كلمات بالغة في الصواب عاهة تعدد الزوجات، إذ قال: «يفقد التعاطف في هذه الكثرة (من الزوجات)، وليس لواحدة منهن المكانة التي للقرينة الحقيقية، وإنما كلهن محقرات على السواء». ونضيف ان الوفاق قلما يخيم بين هؤلاء النساء، كما ان ابناء من أمهات مختلفات لا يرتبطون فيما بينهم برباط متين، كما لو كانوا إخوة من الأبوين. فالدسائس والضغائن والاحقاد تحوم حول الزوج، حول الاب وتسبب الضعف للمجموعة العائلية. ومع هذا فلا يجب أن ننسى ان تعدد الزوجات هو في الاخير امر استثنائي.

والسبب الحقيقي لضعف الاسرة البربرية هو في الحالة الوضيعة للزوجة، سواء في ذلك الاسرة المتعددة الزوجات والتي فيها زوجة واحدة. ولربما ان الامر في هذه الاخيرة اكثر. وفي هذا الموضوع فإن القانون الاسلامي كان دون شك تقدما للأهالي الذين طبقوه، وهو حق كثيرا ما جهله الناس. فالمرأة البربرية اشتريت كأنها بضاعة، وتطلق حسب هوى زوج لا تستطيع هي ان تنحيه، وتستسلم لإرادته الطاغية، وترزح تحت أفدح الأشغال. وليس لها على سيدها من سلطة سوى

جمالها الذي سرعان ما يبل. وسوى العلاقات التي تنشأ عن اعتياد البيت المشترك، وذلك إذا لم يجعل الزوج بقسوة حدا لهذه العلاقات. ولكن يعزيها على الخصوص حب أبنائها. فهو عادة حب قوي حد ولا ينقص مع السن.

4

وكما عند الاغريق وعند الرومان وعند غيرهم كذلك، فإن الاسرة الضيقة المتكونة من الزوجين وأبنائهما، هي عند البربر جزء من الأسرة الكبرة التي هي أيضا موسسة قانونية، أي إطار لا شك قد كونه، أو على كل حال اتخذه أحد المجتمعات قصد توزيع اعضائه فيه.

فبي مجموعة يكونها في الكبر عدد متفاوت من الذكور المنحدرين بالتسلسل الذكوري من جد مشترك. وينضاف لهؤلاء الرجال نسوتهم. اما البنت فانما هن من المجموعة ومن الاسرة الضيقة إلى أن يتزوجن.

هؤلاء الافراد الذين تجمعهم القرابة عن طريق الذكور هم المعروفون في اللاتانية باسم Agnati، وجماعتهم هذه، تسمى Gens (كنس). وهي التي تدعى في بلاد القبائل باسم تخرُوبْت Takherroubt. (من الاسم العربي "الخروبة" بعد ان اكتسى صيغة بربرية). وتدعى في المغرب باسم إيخْس Ikhs. وكان يسهل علينا ان نسميها نحن باسم لعشيرة Clan لو لم يكن المحدثون من علماء الاجتماع قد قرروا إطلاق هذا الاسم (العشيرة Clan) على جماعات ذات نظام مغاير.

لقد كان منتظرا اننا في النصوص اللاتانية المتعلقة بالاهالي الافارقة، نجد اسم كنْس gens هو الذي يطلق على هذه المجموعة. غير

جمالها الذي سرعان ما يبل، وسوى العلاقات التي تنشا عن اعتياد البيت المشترك، وذلك إذا لم يجعل الزوج بقسوة حدا لهذه العلاقات. ولكن يعزيها على الخصوص حب أبنائها. فهو عادة حب قوي جدا ولا ينقص مع السن.

4

وكما عند الاغريق وعند الرومان وعند غيرهم كذلك، فإن الأسرة الضيقة المتكونه من الزوجين وأبنائهما، هي عند البربر جزء من الاسرة الكبيرة التي هي ايضا مؤسسة قانونية، اي إطار لا شك قد كونه، أو على كل حال اتخذه احد المجتمعات قصد توزيع أعضائه فيه.

فهي مجموعة يكونها في الكبر عدد متفاوت من الذكور المنحدرين بالتسلسل الذكوري من جد مشترك، وينضاف لهولاء الرجال نسوتهم، ما لبثت فانما هن من المجموعة ومن الاسرة الضيقة إلى ان يتزوجن.

هؤلاء الافراد الذين تجمعهم القرابة عن طريق الذكور هم المعروفون في اللاتانية باسم Agnati، وجماعتهم هذه، تسمى Gens (كنْس)، وهي التي تُدعى في بلاد القبائل باسم تخروبْت Takherroubt. (من الاسم العربي الخروبة بعد أن اكتسى صيغة بربرية)، وتدعى في المغرب باسم ابخْس Ikhs. وكان يسهل علينا ان نسميها نحن باسم العشيره Clan لو لم يكن المحدثون من علماء الاجتماع قد قرروا إطلاق هذا الاسم (العشيرة Clan) على جماعات ذات نظام مغاير.

لقد كان منتظرا أننا في النصوص اللاتانية المتعلقة بالاهلي الافرقة، نجد اسم كنْس gens هو الذي يطلق على هذه المجموعة، غير

ن هذا اللـفظ (أي گنس) قد أطلقه الرومانيون على القبائل Tribus.
فعلى ما يحتمل كان ذلك في بادئ الأمر، حين كانوا لا يعرفونهم معرفة عميقة، وقبل أن يميزوا المجموعات العائلية Groupes familiaux لتي تتكون منها القبيلة.

واللفظان Familia وTribus هما اللذان كان الرومانيون يطلقونهم عى العائلة الواسعة عند الافارقة. فبمبونيوس ميلا Pomponius Méla حين تحدث عن الرحل بداخل الاراضي قال إنهم يعيشون في familiae لمتكونة من Agnati. ولفظ Familia يوجد ايضا بنفس المعنى حسب رأينا في إحدى الفقرات من پلين الشيخ Pline l'Ancien وفي أحد لنقوش التونسية[58]. ومن ناحية أخرى لدينا نقوش لاتانية بها اسم لأحد لاهالي مصحوب باسم الـ Tribus. وفي هذه النقوش ورد لفظ الـTribus متبوعا باسم علم يظهر أنه يدل على شخص. فيحسن الاعتقاد أن الـ Tribus كان عبارة عن مجموعة الاقرباء الذكور(Agnats = Agnati) المسمين باسم الجد المشترك بين أعضاء المجموعة[59].

وهل تعتبر عبادة هذا الجد والآباء الموتى عنصرا من عناصر لتضامن في المجموعة ؟ هناك نص من هيرودت سنعود إليه فيما بعد يمكن اتخاذه علامة وليس حجة في ذلك. يقول[60] «إن النصمونيين إذا راموا التكهن (بالغيب) فإنهم يذهبون إلى قبور اجدادهم ويناموه فوقها بعد أن يصلوا، وينفذون ما يرونه في المنام».

وعلاوة على ما ذكر، فإذا كانت القرابة الدموية توحد المجموعة، فان الحياة المشتركة تحافظ عليها. وذلك عند الرحّل في تنقلاتهم وفي قامتهم المؤقتة في أمكنة مختلفة، كما عند المستقرين إما في سكنى

موحدة او في مجموعة من المساكن المتلاصقة أو المتقاربة جدا. وهذه العيشة المشتركة أمكن في بادئ الامر ان تكون لها نتيجة طبيعية هي تمكية المشاعة. على الاقل ملكية الاشياء التي لم تجعلها طبيعتها مخصصة للاستعمال الشخصي مثل الادوات والاسلحة وغيرها...

وتحتاج المجموعة لرئيس يسيرها ويمثلها أمام المجموعات الأخرى المماثلة لها، والتي هي على غرارها جزء من مجتمع أوسع. وقد يكون هذا الرئيس هو الاكبر سنا من الفرع الاكبر كان هذا هو المعمول به في الكنس الروماني – أو قد يكون هو الأكبر سنا من بين جميع الاعضاء المكونين للقبيلة الذكورية Famille agnatique. ولعل البربر القدامى كدربتهم اليوم، وكعرب الجاهلية وغيرهم من الشعوب، كان عندهم السن - لا بكورية المولد Primogeniture – هي التي تخول حق السيادة. وسنرى ان هذا كان هو القاعدة في تولي الملك في القرن الثالث للميلاد في المملكة الماسيلية. ولاشك انها قاعدة استعيرت من القانون العائلي. وسنرى ايضا المكانة المهمة المعطاة للشيوخ في مجالس الجماعات المشتملة على عدد تتفاوت به الاسر الذكورية. ولابد ان الأمر كان كذلك في هذه القبائل. وعلى ما يبدو فان الرئيس لا يتصرف تصرف الحاكم المطلق، بل انه عادة يستشير الشيوخ الذين تحرروا من السيطرة الابوية عليهم بموت ابائهم، فاصبحوا على راس قبائل صغيرة.

اذا كان يبدو حقيقة ان القبيلة الذكورية هي كالقبيلة الضيقة (الاسرة) طريقة لتنظيم المجتمع الواسع الكبير، فانها قد اصبحت هيئة مستقلة. لا تقبل أن تتدخل في حياتها الداخلية أية سلطة أجنبية. فهي التي تعاقب بالموت الزوجة الزانية التي قد تُدخل بزناها دخيلا على

الجماعة. وتضامنها في مواجهة الاجانب قوي جدا. ويولد التزامات ومسؤوليات مفروضة على جميع الذكور. أما النساء فمعفيات عدة نظرا لضعفهن على الخصوص، وأيضا ربما لكونهن مقبولات داخل الجماعة فحسب. فالواجب يفرض على الجميع الانتقام من الشتائم وأعمال العنف ومن الجنايات الواقعة على احد أعضاء القبيلة. والعقاب هو القصاص[6]. ومن حيث المبدأ، فإن العرف البربري لا يقبل التصالح المالي، وقد استقى ذلك من القانون الإسلامي. ومن جهة أخرى فإن الجماعة متضامنة في مسؤولية الجريمة التي يقترفها أحد أعضائها، والثأر يمكن أن لا يؤخذ من الجاني نفسه، بل من أي عضو ذكر آخر تكون قيمته الرجولية مماثلة تماما لقيمة الضحية.

وإذا نشب خلاف بين شخصين ينتميان لقبيلتين مختلفتين لهما نظام ذكروري، ولم يشتد الخلاف إلى حد فرض الانتقام، فيقع على هاتين القبيلتين واجب البحث عن التسوية بالتراضي، أو طلب هذه التسوية باحد الوسطاء. وكذلك إبرام العقود فهو في القانون البربري العتيق عملية تربط مجموعتين قبليتين، وليس شخصين. وإذا كان شراء المراة قد أصبح عملية تخص ابوي من سيتزوجان، فلديث إشارات تدل على أن القبيلتين الذكوريتين كانتا في الاصل تشتركان في إبرام هذه الصفقة.

وزيادة على أعضاء المجموعة، فقد أمكن أن يضاف لها رجال آخرون من مستوى أحط كالأتباع والعبيد. ولكن ليس لدينا أي علم حول هذا الموضوع عن العهود العتيقة.

في أرض أطفالُها عديدون، فانه قلما تضمحل القبائل أو تنقرض الا بالحرب. ولكن هذه القبائل يمكن أن تنقسم على نفسها لعدة أسباب

كضعف العلاقات الرابطة، وكضعف الشعور بالعصبية بين فرد . يتباعدون شيئا فشيئا، وكالخلافات الداخلية التي تفضي إلى انفساد عنيف، وكالصعوبات التي تجدها هذه المجموعات التي تنمو على مر العهود في الاستمرار في الحياة المشتركة، وداخل النطاق الضيق الذي ضم الاجيال السابقة، والذي غالبا ما يصعب عليهم توسيعه، ومن ثم فيلزم الابتعاد.

5

إن القبيلة الذكورية، المتكونة من مجموعات اخرى مجهولة لدينا، تتمتع بحرية كبيرة داخل المجتمع الذي هي جزء منه، بل ويحتمل انها كانت تنعزل ماديا وتقضي هنا وهناك حياتها في استقلال تام. يقول بُمْبونْيوس ميلا [45]: إن الرحل بداخل الاراضي يعيشون في عائلات ذكورية متناثرة، بدون قانون وبدون إجراء لمداولات مشتركة. فمن المحتمل ان الامر كان على هذا النحو، ولكن ليس بكل مكان. وخلافا لما يعتقده ميلا Mela فانما كان هذا في بعض النواحي الفقيرة جدا، التي بها ندرة المراعي وقلة الماء لم تكونا تساعدان العدد الكبير من الناس على التجمع، ولم تكن هذه التجمعات العائلية الصغيرة فيها تخاف من مزاحمة من هو اقوى منها على خيراتها الهزيلة. فكان لابد ان يمكث اهلها حيث هم، لانهم اشد ضعفا من ان يقوموا إلى جهات اخرى في محاولات للسيطرة قصد تحسين مصيرهم.

ومع ذلك، فان ضرورة تكوين جماعات واسعة قد فرضت نفسها من وقت باكر على سكان أرض البربر. وكانت هذه الضرورة اقوى من الحب الشديد للاستقلال ومن روح الفوضى اللذين يكونان الخط الواضح في

مزاجهم. وقد سبق ان رأينا أن الحلل الكبيرة[63] قد وجدت منذ العهود لتي كان الناس يعيشون أثناءها بالمنتجات النباتية الطبيعية. وفسرت وجودها بالحاجة إلى الدفاع وبأن منابع الماء دعت إلى ذلك. وعندما نتشرت تربية الماشية والزراعة فإن هذه الضرورة في التجمع قد زادت شدة لزومها.

ن الجهات التي في ارض البربر توجد بها مراع طوال السنة هي قليلة نسبيا. ففي التل ييبس في الصيف كلأ السهول. كما ان كلأ الجبال كثيرا ما تغطيه الثلوج. والبرد في هذه الاماكن العالية يؤلم الماشية. فيحسن والحالة هذه أو قد يلزم القيام بالانتجاع Transhumance. فالسهوب Steppes تعطي وسائل للعيش طوال الشتاء. ولكن القطعان في لصيف يجب ان تغادر هذه المجالات التي يعوزها انذاك الماء. ولكلا وأن تتجه نحو التل. او ان تتجه إلى الاطلس الصحراوي إذا لم يكن من الامر مناص. اما الذين يسوقونها فإن حياة الرحل مفروضة عليهم. ننني لا نتحدث هنا على الترحل الكبير الذي يمتد من الصحراء حتى التل. لانه ناتج عن تربية الجمال التي لم تكن مستعملة بعد في العهد الذي ندرسه.

في المجتمعات القارة يكفي بعض الرعاة لسوق الماشية وحراستها. اما عندما تكون حمايتها من محاولات نهْبها أمرا ضروريا. وعندما تكون هي كل ما يملكه اصحابها - أو كانها كل ما يملكون فإن هؤلاء يكونون مضطرين لمصاحبتها. هم وعائلاتهم[64]. وكما يقول عنهم بوليب Polybe فإنهم يعيشون من قطعانهم[65]. وهم لا يسيرون عشوائيا. بل عليهم ان يتبعوا الطرق التي تتتابع فيها مراكز الماء. ويتأكدون من حرية المرور بالفجاج وممرات الجبال والشعاب والوديان التي تبلغ بهم إلى المواقع التي يمكنهم الاقامة بها. والتي يعرفون

مواردها لانهم عاشوا فيها في السنين الماضية. والحق أنه قد يحدث عهد طويل من الجفاف يحيل هذه الجهات إلى القحولة. وفي هذه الحالة يجب عليهم التحول إلى جهات أخرى. إلى حيث يكون قد هطل المطر. وحينما يذهبون فلابد لهم من المجالات الواسعة التي تتطلبها تربية الماشية.

بهذا تحدث الخلافات المتعددة مع الرعاة الآخرين، فيقع الصراع على الاراضي التي تكثر بها الامطار عادة وتضمن غزارة عيون الماء وخصوبة المراعي. وإذا انحبس المطر بالجفاف حدثت المعارك الشديدة لأجل حياة القطعان وحياة الناس. وفي الهجرات تحصل الخلافات حول نقط الماء. وبهذا فالمجموعات التي تكثر بها المواليد البشرية، والتي تنمو ماشيتها بسرعة تفرض عليها الضرورة اكثر فاكثر أن تنتشر في الارض، وأن تطرد او تدمر المجموعات التي تضايقها في توسعها. وتحدث كذلك الغزوات السريعة التي ليس لها من سبب سوى الطمع الكريه في خيرات الغير.

ان الحق في الحياة وإرادة حياة أفضل وكذلك الدفاع والهجوم، ان كل ذلك يفرض الاتحاد، ويفرض قدرا من الانضباط المشترك. ويفرض تكوين مجتمعات دائمة، لها القوة لصد الدخلاء عن الأراضي التي تريد الاحتفاظ بها لقطعانها، ولشق الطريق التي لابد ان تمر بها في هجرتها ذات الدورات المتكررة، ولها كذلك القوة للاستيلاء على المجالات التي تعوزها، وللقيام – اذا واتت الفرصة – بغزوات مربحة. وفي السير يقع التقدم جملة أو على افواج، حتى لا يقع الازدحام على الابار والعيون ولا تجف. اما في الاعلى فكل عائلة ذكورية تكوّن مجموعة من المساكن المتنقلة والمنعزلة غالبا، ولكنها مع انعزالها تكوّن قريبة من المجموعات الاخرى إلى حد يتيح بذل المساعدات. اما القطعان التي ترعى حول

الموقع فإنها تعاد ليلا إلى داخله لتحرس. ويجتمع رؤساء (شيوخ) العائلات لاتخاذ القرارات التي تعني الجماعة. وليس لدينا برهان على أن العلاقة التي تربط الأعضاء تكون قوية بعبادة جماعية.

في الاهالي يميز هيرودت تمييزا واضحا بين الرعاة و الفلاحين. فالاولون يسكنون مساكن يمكن نقلها. والاخرون لهم منازل ثابتة. وبعد ذلك بكثير نجد نفس التمييز. ولكنه تمييز ليس قاطعا. بحيث ... كان قد وجد عارفة يتعاطون لتربية الماشية وحدها. فان الذين يتعاطون الحرث لم يمنعوا انفسهم ابدا من اقتناء الماشية. ومع ذلك فمن الصواب أن يقال ان التعارض بين حياة الرعاة الرحل وحياة الفلاحين المستقرين هو تعارض سيطر خلال العصور على الحياة الاقتصادية بشمال إفريقيا.

ان الزراعة تربط المرء بالارض. وغراسة الاشجار تربطه بها اكثر. وهنا ايضا فاسباب الخلافات واخطار انتزاع الأرض متعددة نتيجة لذلك. فالخصومة تحدث بين الجيران على الماء الجاري الذي يمكن استعماله في السقي، والذي يمكن لاهل المنبع ان يمنعوا منه اهل المصب. والخصومة تحصل ايضا بسبب الأرض التي هي على حال من الخصوبة. والرعاة هم بصفة اخص الأعداء الطبيعيون للفلاحين. لأنهم يريدون الاحتفاظ لانفسهم بالسهول التي يشقها الفلاحون بالمحاريث. وعندما تخرج سنابل القمح والشعير من باطن الارض. تكون هي الطعام المفضل للماشية. والرحل يتنقلون بسهولة منذ ان اصبحوا يستعملون الافراس. فيقعون بغتة على الفلاحين المستقرين. وينهبون مساكنهم ويحملون معهم ما يجدون من الحبوب. وفي الحق إن الفلاحين يمكنهم خزن محاصيلهم في مخازن بباطن الأرض لا يعثر عليها العدو دائما. ولكن أملاكهم الاخرى وحريتهم، بل حتى حياتهم اذا كانوا يعيشون في

مساكن او حلل معزولة، اي وسط حقولهم. فهي تحت رحمة الرحل. والهجمات تكون مباغتة إلى حد أنهم لا يجدون في الغالب وقتا للفرار و الالتجاء إلى امكنة بعسر الوصول إليها.

فضمان سلامتهم يفرض عليهم إذن السكنى في قرى تحميها عوائق طبيعية، أو أسوار إذا لزم الامر. وتقام هذه القرى على العموم قرب منبع مائي يغري الناس بان يكونوا حوله جماعة تتناسب في كثرتها مع الكمية المائية التي يعطيها النبع. وهناك أسباب أخرى تدفع بهم ليعيشوا جماعة. وهي حب الحياة المشتركة. والمصالح المتبادلة التي يمكن أن يوديها البعض للبعض في المهمات التي تستلزم إنهاء سريعا وسواعد كثيرة. كالقيام ببناء دار والقيام بعمليات الحصاد. ولكن القرية في بلاد البربر كما في اسبانيا هي قبل كل شيء عبارة عن مجمع ذي هدف دفاعي للذين يستغلون الحقول المحيطة بالقرية. وعند الاغريق و اللاتينيين فان المنطقة التي تستغل في الزراعة ليست سوى منطقة تابعة للمدينة. بينما عند الافارقة فان المنطقة الترابية هي التي تنشئ القرية. وذلك لقلة المدن عندهم. والقرية قل سكانها أو كثروا، لا تكون واسعة ابدا لانها في الحقيقة ليست سوى ملجا دائم في موقع حصين. وتقام القرية طبعا اقرب ما يمكن من الحقول. بحيث يستطيع الفلاحون ان يذهبوا دون ان يضيعوا كثيرا من الوقت.

وحتى ايامنا هذه. او إلى ما يقاربها جدا. فبكل مكان عند البربر المستقرين في بلاد القبائل والاوراس كما بالمغرب في الريف والاطلس نجد طرازا من التجمع والتنظيم لابد انه يرجع الى اقدم العهود العتيقة. وإن كنا لا نستطيع معرفة الطريقة التي بها كانت وانتشرت. فالقرية هي

جمهورية متكونة من عدد من العائلات الذكورية التي تحافظ على تماسكها ضمنيا وعلى حقها – هي نفسها – في تسوية قضاياها الخاصة.

أما القضايا ذات الصالح العام فتجري مناقشاتها في تجمع (الجماعة بالعربية) يختلف تكوينه. وفيه تتخذ القرارات[46]. وفي الأصل لابد أن رؤساء (شيوخ) المجموعات هم الذين كان اجتماعهم يكون الجمهورية، أي رؤساء العائلات الذكورية. ولا يزال الأمر هكذا في بعض الجهات (بشمال المغرب وموسطته)، بينما في جهات أخرى يكون أعضاء التجمع نوابا عن عدد العائلات أو أعيانا منتخبين. وفي أمكنة أخرى فإن جميع الذكور الراشدين يحضرون التجمع. ولربما أنهم اكتسبوا هذا الحق من كونهم مدعوين للمشاركة في الدفاع عن القرية. لكن الشيوخ وحدهم هم الذين يتناولون الكلام أثناء المناقشات. وغالبا ما تكون القرارات المطلوبة قد سبق اتخاذها في اجتماع مصغر يكونه الشيوخ الوجهاء. وعلى كل حال فالشيوخ هم الذين يحكمون الجمهورية الصغيرة. وهكذا كانوا يحكمونها منذ خمسة عشر أو عشرين قرنا. وهناك بعض النقوش اللاتانية التي تعرفنا بشيوخ القصبت أي بمجالس للشيوخ عاملة في بعض القرى. Seniores de castella

وتفصل هذه الجماعات في قضايا مختلفة جدا في إصلاح المسالك، ومجاري المياه، في المقبرة وتوزيع مياه السقي، وتوزيع الأرض للزراعة حيثما تكون الملكية جماعية. وتبت كذلك في الخلافات حول الحدود الملكية العائلية أو الفردية. وتبت في فرض أشغال السخرة، وفي اقتبال الضيوف كما تفصل في تقارير الاتحاد أو الخلافات مع الجيران، وغير ذلك.

وبرغم طموح العائلات لان تبقى مستقلة، فإنها يستحيل عليها أن تحافظ على كمال حقها في الثأر وعلى مسؤوليتها الجماعية، فتكون الحالة هذه الحرب الاهلية باستمرار. فلصالح النظام يجب على الجماعة أن تتدخل وتعاقب المجرمين. والتجمع يحكم بالغرامات المالية على الشتائم والسرقات، وفي حالات الاضرار والضرب والجروح وغير ذلك. وبهذا يتكون قانون صغير للجزاء، ويكون عموما غير مكتوب. وهو في الجزائر يسمى قانون (أو كانون Qanoun). واللفظ لاشك من أصل إغريقي (Κανων) استعمله اللاتانيون في إفريقيا كما في غيرها وإن كان بمعنى مغاير. ويشك جدا أن يكون هذا اللفظ استمر معمولا به في بلاد البربر منذ العهود العتيقة، ولربما يكون انتقل اليها من المشرق في عهد حديث نسبيا. وعلى كل حال فلابد من قبول كون الأمر أشد قدما من اسمه. فالقانون العرفي للقرى البربرية - وهو بالتأكيد متقدم زمنا على الشريعة الإسلامية التي لا يتفق معها دائما - قد بدأ في التكوين منذ مولد هذه الجمهوريات التي ما كانت لتعيش بدون نظام منضبط بعقوبات.

والجماعة الذي يكونها الشيوخ، أو يسيرونها، يمكن أن تكون هي السلطة الوحيدة في القرية، بل ويحتمل جدا ان الامر كان هكذا في كل مكان. لان النصوص اللاتانية تذكر الشيوخ Seniores ولا تورد اي ذكر لولاد (حكام) محليين بجانبهم. وهذا يتفق مع طابع هذه «الجمهوريات»، حيث إن العائلات لا تقبل إلا بصعوبة وجود سلطة خارجية.

لكن تنفيذ عزائم التجمع، والحفاظ على الامن والنظام المضمون باجراءات الشرطة والعقوبات، تسند في الأغلب إلى عمدة Maire. وحسب ما نظن هو الوالي (الحاكم Magistratus) الذي يظهر مع الشيوخ

Seniores على أحد النقوش اللاتانية بنوميديا[6]. فالتجمع ينتخبه إما لسنة (وفي هذه الحالة يمكن تجديد انتخابه عادة)، وإما أنه ينتخب بغير تحديد للزمن ولكن مع إمكان تنحيته. ومن حيث القانون فهو وكيل اكثر مما هو رئيس. ومع ذلك فإن اختياره يقع من بين الاعيان، ويمكن أن تصبر له قوة حقيقية بفضل ثروته وشجاعته وذكائه ولباقته في استمالة لافكار وربط مصالح الناس به. وبهذا يمكن أن يخلد في ولايته، بل وأن يصبرها وراثية بالفعل.

تلك هي الخطوط الأساسية والعريقة في القدم لاشك، لتكوين القرى لبربرية، أي الوحدات السياسية التي تتجمع فيها الوحدات لاجتماعية لتي هي العائلات الذكورية. وهذه الأخيرة لابد ان تقدم تضحيات لصالح العام. ولكن التضحيات لا تكون سوى تنازل محدود. ثم إن لقرارات التي يتخذها الشيوخ، انما تتخذ بمقتضى اتفاق بينهم جميعا، وليس بموجب ارادة من هم اكثر عددا. وضرورة الحصول على هذه الموافقة الجماعية تدفع الى قبول التراضي. ويصلح قانون العقوبات في لجنح على الخصوص. اما في الجرائم فالعائلات تعتبر على العموم ن شرفها لا يسمح لها بان تتنازل عن حقها وواجبها في الثار[65].

6

من فوق العائلات الذكورية، ومن فوق مجموعات العائلات لرعوية والجمهوريات القروية، فإن القبائل هي عبارة عن دويلات اتحدية تكونت لدفاع او الهجوم. وذلك نظرا لأن المجموعات السفلى لا تملك كل منها على انفراد القوة للحفاظ على وجودها أو على تحقيق مطامحها في التوسع والسيطرة المربحة. أو في الانتقام.

فالقبيلة، التي لها أساس متين عند شعوب أخرى مثل الغاليين والجرمانيين الذين تلتحم عندهم عناصرها في وحدة ترابية وسياسية وادارية ودينية واقتصادية، ليست عند البربر سوى تجميع للمجموعات التي تحافظ بشدة على سيادتها وعلى روحها الإقليمية. والتي تنفصل بسهولة عن إحدى القبائل لترتبط بواحدة أخرى عندما تملي عليها مصلحتها ذلك. فهي قبل كل شيء، بل إنها في الأغلب ليست سوى رابطة سياسية وعسكرية ضد الأجنبي. والذين يكونونها يدعون تعسفا أنهم أقرباء على الطريقة الذكورية. لان الجد المشترك بينهم (الاعلى) ليس سوى شخص أسطوري. ثم إن السهولة التي بها تضم القبائل إلى نفسها عناصر جديدة تكفي للدلالة على زيف هذه القرابة الدموية.

منذ الألف الثاني قبل الميلاد. ذكرت الوثائق المصرية قبائل إفريقية بين وادي النيل والسدرتين. اما بالنسبة لبلاد البربر نفسها، فإن مصادرنا لا تساعدنا على الرجوع لأبعد من القرن الخامس قبل الميلاد. وفي الفصل الموالي سنذكر القبائل القليلة التي لا تتعدى العشرين والتي يعرفنا بها هيرودت، وكتّاب اخرون أحدث عهدا منه حتى عهد السيطرة الرومانية. وقد كانت اكثر عددا. وكانت النطاقات الجغرافية التي عاشت فيها ضيقة المجال عادة، بحيث إن عهد أوغُسْطس كان فيه المئات من هذه القبائل في ولاية إفريقيا، أي في تونس وطرابلس (ليبيا حاليا) وفي شرق الجزائر[69]. وكان الاغريق يطلقون عليها اسم إثني εθvη، كما أن اللاتنيين كانوا يطلقون عليها اسم كنْتِس Gentes. وأحيانا دعوها باسم Populi و Nationes (وكلها تؤدي معنى القبيلة والشعب والعشيرة...).

والعناصر التي تتكون منها القبيلة هي حتما مجموعات الجيران الذين يتشاركون لحماية أراضيهم أشد حماية، فيصبحون بهذا

متضامنين في حماية منطقة متفاوتة السعة. ولا يمكن تصور قبيلة من غير منطقة ترابية تخص بها نفسها، أو تكون رهن إشارتها على الاقل، فتسكنها دوما أو خلال قسم كبير من السنة. وتتكون هذه الشركة عموما بين ناس يحيون حياة متشابهة. فلهم والحالة هذه نفس المصالح التي يذبون عنها. وغالبا ما تكون هيئة الأرض هي التي تعين الحدود لقبائل، شأنها في ذلك شأن القرى Les pays في أرض الغال القديمة وإن كان ذلك بصفة أخف وبكثير من المرونة، بحيث ان الكثير من المناطق الترابية للقبائل الافريقية هي في نفس الحين مناطق طبيعية.

لقد انتشرت الزراعة ببطء عند الليبيين. فاذا كان سكان شرق تونس يتعاطون في القرن الخامس قبل الميلاد لزراعة الحبوب.وإذا كان الامر كذلك بالنسبة للسكان الذين أخضعتهم قرطاجة لسيطرتها المباشرة، فان اكثرية النوميديين والموريين من سكان شمال الجزائر والمغرب كانوا في بداية القرن الثاني يقتصرون على تربية الماشية. وذلك حتى في الجهات التي قد تمكنهم فيها التربة والمناخ من الاقتداء بما يفعله الأهالي في شرق بلاد البربر. ولم يكن من الضروري لهذه القبائل الراعوية من اهل التل ان تقوم بتنقلات طويلة. فكان يكفيها أن تكون لها سهول للرعي في فصل الشتاء.. وغابات وجبال تسوق إليها قطعانها أثناء الصيف وتجد فيها الصيد بكثرة. ولابد أن هذا المظهر المزدوج هو ما كانت عليه المناطق التي كانت القبائل تنجح في تكوينها لها أو تجتهد في تكوينه[70]. وبين سهلين أو شعبين على ملك قبيلتين مختلفتين، فان سلسلة شجيرة تصلح لتكون منطقة حدود. وربما لا يهتم احد بان يخط فيها خطا لحدود مدققة. وتستطيع القبيلة أن تقيم منتجا بمكان عسير في حاشية الاراضي المنبسطة والجبال. فتلتجئ إليه اذ

فتحم أرضها أعداء أقوى منها، وتضع فيه غالبا مقتنياتها الثمينة وكذلك الحبوب التي اشترتها أو استولت عليها بالقوة.

والانتقال من الحياة الراعوية إلى الحياة الزراعية يكون إما بمجهود نحو الأفضل نحو حياة أكثر اطمئنانا، وإما أن يكون انحطاط لابد ن يرضى به ولو موقتا مُربو الماشية الذين فقدوا ماشيتهم. وغالب م يكونون هم الذين يذهبون للاقامة حيثما يستطيعون. اما لقبائل لزراعية الأخرى، فتفضل السهول حيث تتمكن من المعاقبة بين الحقول المستريحة والحقول المزروعة. ويكون لها نطاق من المرتفعات التي تقام فوقها لقرى، وتحمل البساتين حين تتسع غراسة الأشجار وتنمو، بينم الغابة من الخلف تعطي الخشب الضروري للتدفئة والبناء.

ويكوّن الرعاة المقيمون بالسهوب قبائل لابد ان مناطقها الترابية و سعة جدا، نظرا للموارد الهزيلة لهذه المناطق حتى في فصل الشتاء. فإذ ج. الصيف فالقبيلة بكاملها تهاجر إلى التل أو الى الاطلس لصحراوي. ولربما أنها تكون لنفسها هنا منطقة ترابية تكون تتمة لمنطقتها في السهوب. فتقيم بها الماوي ومخازن الحبوب. لكنها في لاغلب لابد أن تسوق قطعانها خارج ترابها وتنال حق الرعي عن رضى أو بالقهر.

وحيث إن القبائل هي عبارة عن ارتباطات لمجموعات مستقلة، فإنه نظرا لذلك يمكن ان تستغني عن الرئيس. فالقرارات المشتركة تتخذ في مجلس لممثلي هذه المجموعات. وهو مجلس لا يجتمع إلا عندما تفرض الظروف ذلك. وهولاء الممثلون هم إما النواب عن جماعات الشيوخ، بل ربما هم جميع أعضاء هذه الجماعات في الحالات الخطيرة، أو هم عُمْدات القرى. ويشير كوريبوس Corippus في القرن السادس

للميلاد إلى شيوخ (أو أباء) Patres إحدى القبائل الذين قرروا استسلامها لأحد الجنرالات البيزنطيين. وكذلك في نقش لاتني يرجع لنفس العهد تقريبا، نجد الشيوخ (أو الكبار) Seniores يكونون حسبما يبدو مجلسا لقبيلة آخرى.

ولا يكون الرئيس ضروريا إلا عندما يتعلق الامر بخوض الحرب. والمجلس الفيدرالي هو الذي ينتخب إذن احد الاشخاص ويعطيه القيادة لمدة الحرب أو لسنة. هكذا كانت الأمور تجري في بلاد القبائل Kabylie.

غير أن هذا الرئيس يمكن أن يستغل السلطة المؤقتة التي اعطيت له والنفوذ الذي ناله، والاعتراف بالجميل الذي حصل عليه بالخدمات التي أداها، فيرفض التنازل حين يحل السلام. ويمكن ان يكون من رفقائه في الحرب جيشا من الانصار الاوفيا. ومن الاتباع يساعدونه على البقاء في المنصب. وبهذا يصبح في الحقيقة أميرا، وليس طاغية دائما، إذ من الحصافة انه يحترم من جانبه استقلال المجموعات المكونة للقبيلة. وقد يحدث أن يجمع ممثلي هذه المجموعات و ن يستشيرهم عند اتخاذ مقررات مهمة. وبعد ما يحول هذه لسلطة لفائدته طول حياته، فإنه يجتهد ليجعلها وراثية في عائلته. وإذا كان انتقال السلطة يوجب عملية انتخابية آخرى - وهو ما ليس لدينا عليه برهان - فالأمر لا يكون سوى عملية شكلية.

فيما يجاور مصر نلاحظ أن قبائل اللّبو Lebou أو الرّبّو Rebou كانت عند نهاية الألف الثاني قبل الميلاد يراسها امرا، ور ثبون[1] . وفي القرن الخامس قبل الميلاد أيضا نجد هيرودت يذكر «الملوك لبعض القبائل الليبية. وفيما بعد ذلك فإن نصوصا إغريقية ولاتانية تذكر

للأهالي في بلاد البربر الأمراء Princes والملوك الصغار Roitelets وما يقابل هذا في الاغريقية مثل الدونستاي δυνάςται، وباسلِييس βασιλεῖς، ولارخنتس αρχοντες وفي اللاتانية پرنكيپس Princepes، وريكولي Reg uli، وريكس Reges كما ان اللفظ البربري گلّيد Guellid أو أگلّيد Aguellid قد عرف منذ عهود التاريخ القديم. ومن جهة أخرى نجد الاشارة للنبلاء والكبراء مثل پروتوي πρωτοι، وأويكنيس ευγενις، ونوبيليس Nobilles، وايلستريورس Illustriores وپروكريس Proceres، وپريموربس Primores. فهولاء هم الذين كانت بيدهم القيادات، ومن حاربوا جنب لجنب مع الملوك، ومن عملوا حراسا لهم. ويسوغ الاعتقاد بأن هذا النوع من النبل كانت تكونه العائلات التي بيدها السلطة في القبائل. ولم يكن الملوك النوميديون والموربون خصوما لهولاء النبلاء، وكذلك رومة فيما بعد. فلاشك انهم راوا مصلحتهم في الحفاظ على النبالة، بل وعلى نشرها بشرط ان يكون زمامها بايديهم. إذ الحكومة المركزية كانت تبتغي وجود روساء حقيقيين، يتقبلون أوامرها بسهولة، ويكونون مسوولين امامها، ويطيعون ويطاعون. والحكومة لم تكن تستطيع الانغماس في غمار الأعيان.

هذه الامارات كانت أصولها وطبيعتها حربية. ويفسر هذا أن القبيلة هي كما سبق أن قلنا رابطة تكونت للدفاع والهجوم. فهي بحاجة لمن يحكم امرها، وعلى الاقل في الأوقات العصيبة. هل يسوغ لنا أن نفترض أن البعض من هولاء الروساء كانوا ذوي صفة دينية ؟ في هذا الصدد لا نستطيع أن نذكر سوى حالة يِرْنا Ierna الامير على قبيلة اللكوانْطيين Laguantan في القرن السادس للميلاد. ويعرفنا كوريپوس أن هذا الامير كان في نفس الحين كاهنا لإله يسمى گُرزيل Gurzil.

ولكن هذا كان عملا استثنائيا، لان غيره من الرؤساء الأهالي الذين أطال كوربوس في الحديث عنهم، لا يبدو أنهم كانوا متقلدين لوظائف كهنوتية. وعلاوة على هذا، فيستحيل ان نثبت أن أداء عبادة مشتركة يكون قد خلق أي علاقة بين أفراد قبيلة ما.

7

إن القبائل أحهزة للمقاومة والصراع، وهي كثيرا ما تتصادم، وإذا كانت بلاد البربر مقسمة من حيث الطبيعة الى عدة أقسام، فلايجب مع ذلك المبالغة في عوائق المواصلات بين هذه النواحي، لأنها عوائق اقل شدة من ضرورات الانتجاع والظعن ومن حب المغامرات و لنهب. والأفارقة مشهورون بانهم خصمون ويحبون التغيير حبا كبيرا. وفي عصور التاريخ القديم، لم تتدخل أية سلطة دينية لاتقاء الخلافات أو للتخفيف منها.

فالقبائل المغلوبة تضمحل. فيُقتل أعضاؤها، ويستعبدون ويشتتون، واراضيها يستولي عليها الغالبون. وقبائل أخرى تتقهقر إلى الجبال حيث الدفاع اسهل من المطاردة والمهاجمة. وبهذا فإن بعض السلسلات الجبلية في بلاد البربر ومنها جبال بلاد القبائل بصفة اخص - كنت ملجأ متسعا تكاثر به السكان رغما عن فقر التربة. على أن من لمغلوبين من يمكثون فوق اراضيهم، ولكنهم يصبحون أتباعا. فالفلاحون مثلا يودون ضريبة عيْنية من الحبوب، ويدفعونها للرحَل سادتهم الذين يبقون عليهم، بل ويحمونهم لصالحهم.

وأخيرا ففي جهات اخرى، يقع العمل بعقود يتراضى عليها لطرفان. فالقبائل المستقرة ليست حتما تحت رحمة الرحَل إذ يسهل

سد طريق مرورهم بأحد الجبال، وتسميم الآبار التي يعتمدون عليها في هجرتهم. والصمود في القرى الحصينة لتي صينت بها الغلال في حرز أمين. وإذا لم يستطيعوا الاستيلاء بالقهر على الحبوب التي يحتاجونها

لأنهم في معاشهم لا يكتفون بمنتجات الماشية والصيد - فإنهم يرضخون لبذل الصوف والجلود مقابل هذه الحبوب. وهكذا يكون قدومهم نافعا، بل مرجوا. وقد يساعدون مساعدة ثمينة في ناحية مجموعة أخرى من الرحل. وكذلك في تسوية بعض الخلافات مع الجيران. إذن فالعقود تبرم وتنتقل من جيل إلى جيل. وتتوثق عراها بالزواج. كما أن إحدى قبائل الرحل قد تحصل عند المستقرين على حقوق المرور والانتفاع إما مجانا او مقابل ضريبة عينية تؤديها لهم. ولا تربط هذه الاتفاقيات بين الرعاة وبين المزارعين فحسب. بل إن قبيلتين مثلا من قبائل الرعاة تسكن إحداهما بالسهل والأخرى بالجبل. أو إحداهما بالتل والاخرى بالسهب يكون من صالحهما معا الاستغلال المشترك لاراضيهما سواء في الشتاء او في الصيف. وكذلك فإن قبائل ضعيفة من قبائل السهوب يمكن ان تحرز على الانتفاع أثناء الصيف بأرض تملكها قبائل تسكن التل تنتقل للانتجاع في امكنة أفضل.

هكذا يحدث نوع من التوازن، وإن كان مزعزعا والحق يقال. فالقبائل التابعة تطمح طبعا لاستعادة استغلالها. والقبائل التي دفعت إلى الجبال وتسعى في حياتها بها تنتظر الوقت المناسب لتنزل منه. وكذلك فإن قبائل السهوب في علاقاتها مع سكان التل قد ترغب في السيطرة فتفضلها على الاتفاقات الودية.

إن الجبال والسهوب – ثم الصحراء من وراء السهوب حين أصبحت الصحراء منطقة بربرية هي نقط انطلاق الفتوح في تاريخ

شمال إفريقيا. وأهل هذه الأوطان الفقيرة الذين صلب عودهم بقسوة الحياة التي يحيونها لهم مزايا حربية غالبا ما تعوز أهل السهول الخصبة والمحظوظين الذين يوهنهم خفض العيش. وتكثُر السكن يفضي إلى الهجرات الجزئية أو الكلية، وهذه تحدث النز عت، وفي سنوات الجفاف فإن ضرورات الرعي تحطم الحدود. والذين يتخلون للأقوياء يصبحون بدورهم مهاجمين عندما يقدرون على ذلك، من أجل ن يجدوا في مكان آخر تعويضا عن خسائرهم.

فالعديد إذن من الأسباب الخارجية يحدث تغيرات في أحوال القبائل. وهذه الاتحادات المتكونة من مجموعات مستقلة يعوزه التماسك في تكوينها الداخلي. وغالبا ما تزيد الخلافات في إضعاف هذه الوحدة الواهنة. ولكي تفرض المجموعات مصالحها أيا م كنت هذه المصالح - فإنها تنضم إلى كتلة، أي إلى «صوف» sof يعارضه صوف آخر. وتتسع الكتلتان إلى حد اقتسام القبيلة كلها. بل إن الكتلتين قد تتجاوزان القبيلة إلى غيرها. وعن هذا الاحتياج العام لخصم تتولد أحلاف (رابطات Ligues) لا هدف لها سوى العون المتبادل ضد خصوم الحال أو المستقبل، وبدون اعتبار لأسباب الخلافات. وفوق ذلك يمكن مغادرة هذه الأحلاف دون خجل والانضمام إلى الحلف الخصم إذ كان أجدى وأنفع. على أن هذه الأحلاف (الصفوف sofs) ليست سيئة تماما، لأنها تحدث علاقات وروابط بين مختلف القبائل. وعندما تتعدل هذه الأحلاف فإن كلا منها يحدّ من غلواء الآخر إلى حد ما. ولكنه في داخلية القبائل نفسها تكون من أسباب تصدع هذه القبائل[72].

وكثير من القبائل، وهي مهددة من الداخل ومن الخارج، تعجز عن المقاومة. فبعضها يتحطم وبعضها يتصدع ويتشتت. وأخرى نضيق

لفقدها قسما من أرضها وأهلها. وعلى التر ب الفرنسي، نعتر حتى اليوم على الأراضي التي كانت تكوّن مناطق القبيل الغالية. وفي افريقيا يعثر ليوم على اسماء سلالية مشابهة، وكذلك كان يعثر عليها عند بداية لعهد لمسيحي في النواحي البعيدة جدا، فهي شاهدة على حدوث التصدع. ن توزيع القبائل كما أن قائمة أسمائها تتغير تغيرا عميقا على بعد بضعة قرون، ومع ذلك فهناك ظروف جغرافية غالبا ما تفرض إطار تبد مع انها مختلفة التحقق.

8

وبعض القبائل المتجاورة، التي لها نفس الاعداء، يمكن ان تتحد لمحاربة هولاء الاعداء. ذلك هو ما فعله الاهالي الذين كانوا يعيشون بغرب مصر، منذ الالف الثانية قبل الميلاد[3]. ولربما قبل ذلك، في عهود بعيدة حاولوا فيها اقتحام وادي النيل. وكانت هذه الاحلاف تعقد لمدة لحرب. فاذا انتهت فان كل واحد من المتحالفين يعود لحريته الكاملة في لتصرف. ولا يتردد في الابقاء بحلفائه السابقين. وتحتفظ الوحدات الحيفة بتميز بعضها عن بعض. ولكن القيادة العليا يمكن أن يعهد بها إلى قائد مؤقت منتخب[4]. وتتخذ المقررات العامة بمجلس يكوّنه ممثلون عن مختلف القبائل.

على أن بعض الاتحادات الاخرى تكون حياتها أطول، فتظهر وكأنها عشيرة واحدة Peuplade. والقبائل الساكنة بناحية تشملها وحدة جغرافية عريضة كسلسلة جبلية كبرى مثلا أو عدة من السهول المتوالية. فهذا النطاق الجغرافي وتشابه ظروف العيش، وأحيانا حتى استعمال لهجة واحدة، كل ذلك يحدث نوعا من التضامن الذي لا يتأكد إلا في

الحروب ضد الاجانب. ولكنه يعتبر حقيقة ثابتة، ويتحدث باسم مشترك. ومع ذلك فالعلاقات واهية جدا. الا اذا استطاع رئيس إحدى هذه القبائل ان يمد سيطرته على القبائل الاخرى. وبهذا يؤسس دولة صغيره يجتهد في توريثها لذويه. وتهدف فيها السلطة الشخصية إلى أن تسيطر على المجلس الاتحادي أو على محوه من الوجود.

ولقد عرفت بلاد البربر منذ عهود التاريخ القديم تجمعات و سعة جدا. تاسست بقوة السلاح لاشك، مثل تلك التي تكونت في العصور لوسطى. ويستحيل علينا ان نصعد إلى أبعد من القرون المتقدمة مباشرة على عهد الميلاد. ولا يستطاع القول أن دولا حقيقية قد وجدت في عهد باكر في هده المنطقة، وضمت عددا كبيرا من لقبائل في محاولة لتجعل منها امة. ان تماثل الحضارات في عهود ما قبل لتاريخ لا يحتم نظرية الفتوح العنيفة الواسعة. اذن فكيف انتشرت اللغة الليبية؟ يمكن التساؤل ألم يفرضها غزاة قد يكونون هاجموا الشمال لافريقي، واسسوا به دولة ؟ وإن هده الدولة قد تكسرت، وإن اللغة المشتركة قد نقسمت إلى عدة لهجات ؟ لكن هناك افتراض اخر سائغ. وهو ان انتشار هذه اللغة قد كان بطيئا جدا، اي بسلسلة من الهجرات، والفتوحات الجزئية التي امتدت على قرون طويلة. وان تكوّن اللهجات قد كان مصاحبا، لا تاليا لحركة الانتشار.

لقد درسنا رواية سالُسْت Salluste التي استقاها من الكتب البونيقية Libri punici التي كانت في حوزة الملك همْبسال. ففيها أن الفُرس نزلوا على الساحل المحيطي للمغرب، واختلطوا به مع الجيتوليين Les Gétules، وعاشوا معهم عيشة الرحّل. ثم ان تكاثر السكان قد حتم الهجرة وفتح الأرض المجاورة للبحر الابيض المتوسط

التي كان يسكنها الليبيون من قبل. والتي أصبحت تسمى نوميديا Numidie. يجب طرح هذه الخرافة كلية. وعلى أكثر تقدير يمكن أن نعثر فيها على وقائع أحدث عهدا. ولكنها أرجعت إلى ماض بعيد غامض. كفتوحات حققتها قبائل من الرحل القادمين من أقصى الغرب، الذين قد يكونون نشروا سيطرتهم على الجزائر وعلى قسم من الاراضي التونسية. مثلما حصل في القرن الحادي عشر للميلاد بخروج المرابطين من الصحراء الغربية حيث انقضوا على بلاد البربر. وسنرى ان اقوى الممالك الثلاث التي كانت موجودة في نهاية القرن الثالث قبل الميلاد، أي مملكة الماسيسيليين Masaesyles قد أسستها على ما يبدو قبيلة من أصل مغربي[75].

لقد أراد البعض أن يوجدوا علاقة بين رواية همبسال وبين سلسلات الأنساب التي كانت متداولة في القرنين العاشر والحادي عشر للميلاد[76]. فقد كانت تقسم البربر الى فرعين اثنين، هما البرانس والبتر نسبة إلى جدين وهميين هما برنس ومذغيس الابتر. فهل نجد في هذا التقسيم تقسيما قديما جدا يتطابق مع التقسيم إلى ليبيين وجيتوليين، أي ولدت لسكان البدائيين للشمال الافريقي حسب قول همبسال، والخلاف بين هذين الشعبين، هل سيطر منذ اقدم العهود على تاريخ البلاد، مفسرا للحروب والفتوح وتكوين الدولة وسقوطها؟ إن اعتقاد ذلك يكون مجازفة كبيرة. وعلماء الأنساب في العصور الوسطى لابد أنهم اقاموا جداولهم التي تختلف جزئياتها من كاتب لآخر اعتمادا على التحالفات، وعلى التجمعات المعاصرة، أو على المكانة الممتازة التي يولونها لقبيلتهم الأم، أو على المطامح السياسية لأمرائهم. وبما انهم يعتمدون حتى على التشابه في الأخلاق، او في العادات وفي اللهجات

مما قد يبدو برهانا على وجود القرابة، ثم إن التوزيع الجغرافي للبتْر والبرانس لا ينطبق البتة مع التوزيع الذي يجعل الليبيين يسكنون التل والجيتوليين يسكنون السهوب Steppes.

لبس لدينا إذن اي وسيلة لاستعادة تاريخ الحركات الكبرى التي هزت بلاد البربر لغاية العهد الذي نلاحظ فيه وجود ثلاث دول مهمة قائمة بين المحيط والمنطقة القرطاجية. ويمكن مع ذلك الافتراض بأن الحديد والفرس قد ضمنا توفقا كبيرا للذين كانوا يملكون هاتين الوسيلتين لقويتين من وسائل الحرب واللتين أدخلتا إلى شمال إفريقيا على ما يحتمل حول نهاية الألف الثانية أو في بداية الألف الأولى قبل الميلاد.

وبصفة عامة يحتمل أن هذا التاريخ البعيد، قد تشابه كثيرا مع تاريخ بلاد البربر في العصور الوسطى.

فمن ارض فقيرة، من جبل أو سهب او صحراء تنطلق إحدى القبائل وتتجه نحو الجهات الغنية. وفي افريقيا المسلمة قد يضاف لهذا أحيانا الحماس الشديد لدين يريد ان ينتشر ويفرض نفسه. والهجوم يسيره رجل يضمن له نفوذا كبيرا ما له من ذكاء وحزم ومن نفوذ ديني، فيكون القائد حقا الذي يهيج الحماس ويثير الاخلاص المتفاني. ويمكن أن يكون التقدم سريعا جدا، وذلك في حالة ما اذا كانت القبائل التي تصيبها الموجة قد أخذت على غرة، وإذا لم تعرف ان تتحد، أو إذ انضم بعض منها إلى المهاجمين. فتتأسس دولة. والقبيلة التي نالت الهيمنة هي التي تساند الدولة وتستغلها.

لكن الدولة على العموم تكون قصيرة العمر، لان هذه القبيلة تستنزفها الحروب أو الملذات. والرجل الذي قادها ونصبته ملكا يغيب،

وغالبا ما تكون ذريته عاجزة. ولكي تستمر الدولة التي أنشئت على هذا الغرض لابد من أن تنظم نفسها، ولابد من تثبيت ولاية العهد بصفة تجنب المنافسات العنيفة. لابد للسلطة المركزية ان تعتمد على اطر إدارية وعلى قوات عسكرية تخلف القبيلة الواهنة. ولابد من شرطة سريعة وناجعة تحمي وتضمن إخلاص السكان المستقرين الذين لابد للدولة أن تعتمد منهم بالخصوص على مواردها المالية. وبغير هذا فهناك الفوضى والحروب الأهلية التي تكاد لا تنقطع. وهناك عدم القدرة على مقاومة اندفاع جديد لإحدى القبائل التي تخرج من جبل أو سهب مطالبة بدورها في الهيمنة.

وعلاوة على هذا، فإن أسبابا جغرافية تعارض إقامة وحدة دائمة، إذا لم تفرضها عزيمة شديدة ونية قوية. فالاراضي المعزولة أو التي يصعب الوصول إليها مثل الاوراس، وبلاد القبائل الكبرى والريف... إلخ. تدافع عن استقلالها أو تستعيده. ثم إن بلاد البربر هي في آن واحد جد مستطيلة وأضيق من أن تستطيع سلطة واحدة البقاء بها من المحيط إلى السدرتين. والشريط الارضي يقسم الى عدة أقسام. والطبيعة تفرض تجزئات تحددت مواقعها بالحرب بين الناس او بتراضيهم. ففي العصور الحديثة نجد تونس والجزائر والمغرب. وفي العصور الوسطى نجد مملكة الحفصيين في تونس وشرق الجزائر، ومملكة بني زيان في موسطة الجزائر وغربها، ومملكة بني مرين في المغرب. وفي الاعصر القديمة، وقبل الفتح الروماني، وخارج منطقة التراب النوميدي، نجد ممالك المسيليين، والماسيسيليين والمور. وكلها دول سفر من قبول الحدود المصطنعة القائمة بينها كحدود نهائية، والتوازن دائما غير مضمون.

الكتاب الأول

الممالك الأهلية

نظامها الاجتماعي والسياسي والاقتصادي

الفصل الثاني

قبائل وأمم وشعوب

1

في بعض الكتابات الاغريقية نعثر على أسماء بعض القبائل أو الاقوام الذين كانوا يسكنون الشمال الافريقي قبل الفتح الروماني. وندعوها قبائل او أقواما لان من المحتمل ان هذه الاسماء لا تدل على قبائل، بل على مجموعة قبائل تجمعها روابط متينة إلى حد ما.

فهيرودت يذكر حول أواسط القرن الخامس عددا منها على طول الحر الأبيض المتوسط. وهو قد عرفها إما بروايات شفوية تلقاها من مصدر إغريقي وإما بواسطة كتّاب أقدم منه، وعلى الخصوص منهم هيكاتي الملبتي Hecatée de Milet، الذي كتب مؤلفه الجغرافي في نهاية القرن السادس أو بداية الخامس.

ففي سدْرة الكبرى كان يعيش عيشة الرحَل النّصمونيون Nasamons وهم شعب كبير العدد[18]. فقد كانوا في أول الامر يقيمون

ـلساحل الشرقي لهذا الخليج، ولكنهم بعد ذلك انتشروا على ساحله لجنوبي في محل البسيليين Psylles الذين اختفوا من الوجود. وكانوا عد، هذا يذهبون كل سنة إلى واحة أوجيلا Augila لقطف التمر فيجوز الاعتقاد بأنهم أخضعوا فلاحي هذه الواحة فجعلوهم أتباعا.

والماصيون Maces يقيمون على الساحل الغربي لسدرة الكبرى، وخلف ذلك في الناحية التي يجري فيها نهر الكينبْس Cinyps، فإن هذ النهر يصب في البحر على بعد قليل شرقي لبْدة Lebda التي كانت في العصور القديمة تُدعى باسم لبْتيس الكبرى Leptis Magna.

وبعيدا إلى الغرب هناك أرض الجنْدانيين Gindanes. وأمام هذا لشعب، فان اللوتوفاجيين Lotophages يقيمون «على الساحل بالقسم الذي يبرز، أي على ما يحتمل بالأرض الممتدة بين ناحية نهر لكينبْس وسدْرة الصغرى. واسم اللوتوفاجيين قد ذكر من قبل في الأوديسة[7]. ولكننا لا ندري ابن كان الشاعر يجعل موطن هذه العشائر. ونجده أيض في القرن الرابع مذكورا في رحلة سيلكْس المشبوه Pseudo-scylax، ومستعملا في الدلالة على أولئك الذين سمّاهم هيرودُت بنفس الاسم. وبعد ذلك فان هؤلاء الذين سماهم هومروس Homère باسم اللوتوفاجيين قد وقع البحث عنهم في جهات أخرى. ولا محل للافتراض بأن الاسم الاغريقي هو ترجمة لاسم ذي أصل أهلي، ولربما أن هؤلاء اللوتوفاجيين لم يكونوا يشكلون قبيلة خاصة، ومن المحتمل ان الإغريق قد أطلقو هذا الاسم على الجنْدانيين الذين كانوا يعيشون على ضفاف الساحل والذين رأوهم يقتاتون بثمار اللوتُس (الزفزوف Jujubier).

وحول بحيرة تريتونيس الكبيرة Lac Tritonis كان المخْوسيون Machlyes والأوصيون Auses، الذين يفصل بينهم نهر تريتون Triton

الذي ينصب في البحيرة. وإذا كان يستحيل التعرف على النهر، فالذي لا تك فيه هو أن البحيرة هي قعر سدرة الصغرى.

كـ هذه العشائر كانت من الرحّل. وخلف الأوصيين (بغرب نهر نريبون)[80] . فان هيرودُت يعرف ليبيين اخرين غير هولاء يتعاطون لزر عة ويسكنون المنازل. ويحسن البحث عنهم في تونس، على طول لسـحـ الشرقي، الذي أخطأ فيه كاتبنا هيرودُت واعطاه سمتا عـمـ منجها من الشرق إلى الغرب. ويوجد في جهتهم. كما يقول هيرودُت، جزيرة كورونيس Cyraunis، التي هي اليوم جزيرة قرْقنة. هنال أولا المكْسو Maxyes، ثم الزويك Zauèces واخيرا الكورزنْطيون Gyzantes. وفي ارض هولاء الكورزنْطيين توجد جبال يمكن ان تكون هي سلسلة جبال زوجيطان Zeugitane، الواقعة فوق سهل انفيدة Enfida. وبهذ نصـ حتى الجهات التي كانت ضمن المنطقة الترابية لقرطاجة. وكانت من بعد قسما من الولاية الرومانية المنشأة سنة 146 ق.م.

ن اكثرية القبائل التي اوردها هيرودُت لم تعد للظهور بعد في لاعصر المتأخرة. ويستثنى من ذلك النصمونيون Nasamons والماصيون Maces. فالاولون وهم النصمونيون استمروا يسكنون بالسواحل الشرقية و لجنوبية بسدرة الكبرى، على الاقل إلى نهاية القرن الميلادي الأول. كمـ نجد الماصيين حيث ذكرهم هيرودُت. وتعرفنا إحدى رحلات أواسط القرن لرابع ق.م[81]، بان ارضهم كانت تمتد في ان واحد على الساحل وعلى الأرض الجبلية الواقعة إلى الخلف.

وهناك اسماء لبعض القبائل نعرفها من بعض الكتابات المتأخرة عن عهد هيرودُت . فالاربيديون Erebides والميماكيون Mimaces ذكروا في فقرات ماخوذة من فيلسْتوس السرقوسي Philistos le syracusin

الذي كان يكتب في النصف الاول من القرن الرابع، كما أن لميندويين Myndônes ذكروا في فقرة من التاريخ الذي كتبه إيفور Ephore حول موسطة نفس القرن. فالأربيديون الذين كانوا قسما من الونوفجيين حسب قول فيلستوس لابد من البحث عنهم بين خليجي سرد. وقد ذكرهم كذلك بطليموس في العهد الإمبراطوري الروماني كما ذكر الميماكيين الذين مدح إيفور فطنتهم ورفاهيتهم.

ان الرواية التي خلفها لنا ديودور الصقلي عن حملة اكطكليس (في نهاية القرن الرابع) تقدم لنا اسمين، هما : اسم الزوفونيين Zuphônes واسم الاسفوديلوديين Asphodelodes [52]. الذين كانوا يتشبهون بالاثيوبيين في لون بشرتهم. ولربما ان الاولين كانوا يسكنون موسطة القطر، اي في بلاد خمير. وعلى غرار الاوتوفاج فان أسفوديلود تسمية اغريقية (ربما هي مترجمة عن البونيقية) وربما ان أصلها هو عادة هولاء الاهالي الذين كانوا يعملون أكواخهم من نبات البروق Asphodèle..

هناك نص إغريقي نقله پوليب Polybe [53]. وهو يتعلق بكتابة كان حنيبعل قد نقشها بلغتين في إيطاليا وذكر فيها الشعوب الافريقية التي حشد منها الفرسان سنة 219-218 ق.م وهم اللرجيتيون Lergetes [54] كما ذكر فيها من بين النوميديين كلاً من المسيليين Massyles والماسيسيليين Massassyles والمكويين Maccoiens والموروسيين Maurusiens وهؤلاء المسيليون والماسيسيليون وكذلك الموروسيون سنجدهم من بعد رعايا لثلاث ممالك. ونجهل اين كان يعيش اللرجيتيون والمكويون Maccoiens.

وإبان حرب المرتزقة والحرب البونيقية الثانية ذكر اسم الميكاتانيين Micatanes وهم نوميديون ثاروا على قرطاجة. ونجهل موقع هذه القبيلة

وكذلك الشأن بالنسبة لنوميديين آخرين يدعون باسم الأرْياكيديين Aréacides وهم الذين كان زعيمهم قد جعل نفسه رهن إشارة حنيبعل حين كان هذا الأخير بهدْروميت (سوسة) سنة 203-202.

وقد ورد اسم الصوفكْسيين Sophaces في إحدى الفقرات من سكندر بلهستور Alexandre Polihistor ، وهو من كتاب القرن الاخير قبل لميلاد وكان ينقل عن كْليوديم Cleodème أحد مورخي اليهود. ويقال ن اسمهم من صوفون Sophon الذي هو من ذرية إبراهيم وهركول. ولا ندري أين كانت تقع هذه القبيلة التي كانت سببا في هذه الترهات.

وأخيرا فإن نيقولا الدمشقي Nicolas de Damas المعاصر لاغسطس قد تحدث نقلا عن مصادر قديمة جدا وذكر بعض العشائر لافريقية. ففي الفقرات التي وصلت الينا من هذا الكاتب تبدو بعض لاسماء محرفة. وليس من الموكد ان جميع الذين يسميهم نيقولا هم لبيون حقيقة. فهناك مثلا Masouliers أي Basouliers وهم لمسيليون Massyles رعايا إحدى الممالك. وهناك Ialchleuies الذين لاشك أنهم المخْلوس Machlues عند هيرودت، وهناك Biaoi وكذلك Datholibues و Panébo و Aintemnioi وكلها قبائل تبقى مجهولة.

نها لحصيلة هزيلة وعديمة القيمة[185] وعلى العموم فإننا لانكاد نعرف شيئا عن انتشار القبائل وتوزيعها قبل العهد الروماني.

2

في القرن الثالث قبل الميلاد نجد الاهالي الذين يعيشون بين لمنطقة البونيقية والمحيط يشكلون ثلاث امم على رأس كل منها ملك.

إحدى هذه الممالك كانت تمتد على الشمال الغربي، وهي مملكة لمُور الذين كان الإغريق يدعونهم باسم Mauroùsioi (موروسيوي) وهو لفظ نجده عند پوليب[86]، وعدة كتّاب أحدث منه عهداً[87]. وقد كان اللفظ مستعملا قبل پوليب، اذ نجده في النص الإغريقي الذي نقشه حنبعل بلغتين. وكذلك فإن ديودور الصقلي Diodore de Sicile قد استعمله في الكلام على أحداث جرت في نهاية القرن الخامس ق.م. ولعله استعاره من تيمي Timée (نهاية القرن الثالث). ثم إن الرومانيين الذين كانوا يستخدمون المراجع الإغريقية قد كتبوه أحيانا بصيغة موروسيي Maurusii. وكذلك نعثر على الصفة موروسيوس Maurusius عند بعض الشعراء[88]، وحتى في بعض النقوش الإفريقية. ولكن، وكما نبه على ذلك سترابون، فإن الاسم اللاتاني هو موري Mauri، ولنا من ذلك عدة مثلة ابتداء من مؤلف حرب إفريقيا Bellum Africum وسالُسْت. ومن قبيل التقليد للرومانيين فإن بعض الاغريق في العهد الامبراطوري كانوا يكتبون موروي Maûroi عوضا عن موروسيوي Maurusioi. اما الإسم المستعمل عند الاهالي فكان حسب سترابون، هو نفسه عند الرومانيين، فلابد أن يكون إذن اكثر شبها بموري Mauri منه بموروسيوي Maurusioi. ولا نعرف أي مثال للصيغة التي كانت مستعملة بالبونيقية.

لقد اقترحت في العهود القديمة وفي ايامنا كذلك اصول مختلفة لهذا الاسم[89]، وبالطبع، لابد من تنحية الاشتقاق المذكور في الكتب البونيقية للملك هيمبسال والتي أوردها سالُسْت، وتقول إن موري Mauri قد حرفها الاهالي عن اسم ميدي Médi، أي الميديين رفقاء هركول مع الفُرْس والارمينيين. ويجب كذلك تنحية الاشتقاق المأخوذ من اللفظ الإغريقي موروس Maùros (وهي أموروس Amaùros) بمعنى مظلم، والذي حاولوا تفسيره باللون الغامق للأهالي[90]. ولنلاحظ - من غير د ع

لبراهين اخرى - إن الاغريق كانوا يقولون Mauroùsioi ولم يستعملوا Maùroi إلا بصفة استثنائية. وتبعا للاستعمال اللاتاني. وعدا هذا فيحتمل ان وجود لفظ موروس Mauros في لغتهم وسمرة لون الموريين قد ساعدا على ذلك. ولكنه يكون مجرد تلاعب بالألفاظ.

وقد تقدم بوشار Bochart العالم الشهير بالعبرانيات باشتقاق من الفينيقية اعتبره الكثير رايا جذابا[1]. وهو لفظ يعني (العربيين Occidentaux) اي ان القرطاجيين يكونون قد اطلقوا اسم موحاريم[2] Maouaharim على سكان الشمال الغربي لافريقيا، مثلا سمى العرب هذه المنطقة باسم (المغرب). وتكون هذه التسمية الجغرافية ذات الأصل الأجنبي لم تصبح اسما سلاليا الا في وقت متاخر. ومع ذلك فليس هناك سبب وجيه لرفض قول سترابون الذي يجعل الاسم موري Mauri أصلا هيا. وكون القرطاجيين عندما استعملوه قد حرفوه ليجعلوا له معنى في لغتهم، فذلك أمر ليس مستحيلا. ولكن ما دمنا لم نعثر على نص يعطينا الاسم البونيقي، فيحسن الامتناع عن الافتراضات التي لا طائل تحتها.

هناك فقرة من بلين الشيخ[3] تسوغ الافتراض بأن الاسم الليبي كان في الاصل يدل على إحدى القبائل. يقول: «من بين قبائل الولاية (الرومانية) (بموريطانية) الطنجية. اهمها كانت فيما مضى قبيلة لموري Mauri وهي التي اعطتها اسمها ودعاها الكثير باسم موروسي Maurusii. وقد أحالتها الحروب إلى بضع أسر». فعلى غرار كتامة ومصمودة وعبرهما في العصور الوسطى تكون هذه القبيلة قد اسست دولة، ثم انهكها العمل المضني الذي تفرضه صيانة سيادتها. ومع ذلك فالدولة تكون قد استمرت في الوجود بالاعتماد على تاييدات آخرى.

والمنطقة التي امتدت عليها (الدولة) كان يسميها الاغريق موروسيا Maurousia، ودعاها الرومانيون موريطانيا Mauritania مقتفين فيه على ما يبدو الصيغ التي اتخذوها في أسماء بعض المناطق الاسبانية مثل تُرْديطانيا Turdetania وكَرْبِطانيا Carpetania.

ومملكة الموريين Maures كانت موجودة منذ أواسط القرن الرابع ق.م[94]، ولربما حتى قبل ذلك[95]. والقرطاجيون الذين كانت لهم مستوطنات على الساحل المغربي، كانت لهم مع ملوك هذه الدولة علاقات يحافظون عليها. وفي نهاية القرن الثالث ذكر اسم أحد ملوك الموريين، وهو باكا Baga الذي كان ملكا قويا[96]. وبعد ذلك بقرن من الزمن فإن بوكوس Bocchus صهر يوغرْطة قد كان حسب قول سالُسْت ملك على جميع الموريين.

هذه المملكة كانت تضم عدة قبائل شملها اسم الموريين، وكانت شمالا تقابل أسبانيا ويحدها المحيط غربا. ولا يبدو أنها تقدمت بعيدا نحو الجنوب، فمن هذه الجهة كانت تحدها عشائر مستقلة في أول الامر على الاقل، وهي المعروفة باسم الجيتوليين الذين سنتحدث عنهم فيما بعد.

ومن ناحية الشرق فإن نهر مُلوشا Mulucha كان في مجراه الأسفل يكوّن الحد بين مملكة موريطانيا ومملكة نوميديا. وذلك أثناء النصف الثاني من القرن الثاني، اي في عهد مِكِبْسا Micipsa ويوغرْطة وهو ما يصرح به سالُسْت. أما سترابون[97] الذي ربما يعتمد هنا على أرْتِميدور (حوالي سنة 100 ق.م) أو ربما اعتمد على بوزدونْيوس (بعد الاول بقليل) فيذكر مُلوشا (ملوخاث Molochath) على أنها الحد بين الموريين والماسيسيليين[98]. وقد سقطت مملكة سيفكْس في يد مسنيسَ ملك المسيليين ويد أعقابه مِكْبسا ويوغرطة. وقد سبق أن رأينا أن مُلوشا

كانت الحد الغربي لمملكتهم التي اتسعت رقعتها هكذا. وفي أواسط القرن الاول ق.م صارت ملْوية باسْمَين هما ملْوشا Mulucha وملْوا Malva. حدا بين مملكتين للموريين[99]. وكذلك الشان في سنة 42 للميلاد، كما كانت طول قرون حدا بين الولايتين الرومانيتين، أي موريطانيا القيصرية وموريطانيا الطنجية[100].

حقيقة إن أحد الكتاب قد نقل عنه بُمْبونْيوس ميلا P.Méla وبلين الشيخ Pline l'Ancien، وأنه أورد نهرا باسم ملوشا Mulucha. وحسب ما اورده هذا الكاتب يكون هذا النهر ليس هو ملْوية، بل هو مجرى مائي آخر بعيد الى الشرق، وكذلك حتى إلى شرق سيكا Sigga، فيكون هو نهر المقْطع La Macta أو نهر الشليف Chelif. لكن ميلا وبلين يضيفان أن هذا النهر كان يشكل «الحد بين المملكتين، مملكة بوكوس ومملكة يوغرطة» كما يقول ميلا، والحد بين «بوكوس والماسسيليين» كما يقول بلين[101]. ولكن حيث إننا نعلم أن هذا الحد كان واقعا غربي سيكا وبمصب نهر ملْوية، فلابد من القول بأن الكاتب الذي نقل عنه كل من ميلا وبلين قد ارتكب خطأ. ولماذا وقع في الخطأ؟ الجواب هو انه ربما يكون نهر المقطع أو نهر شليف قد حمل على غرار نهر ملوية اسم ملوشا . وربما أن احد النهرين قد استخدم حدا في عهد بوكوس بعدما أذنت له روما بضم قسم من مملكة يوغرطة إلى مملكته هو. إن أحد الافتراضين او هما معا قد يفسران لنا الاضطراب الحاصل. ولكن المؤكد هو ان نهر ملْوية كان يشكل حدا لممكة الموريين. وأنه بعد ذلك اصبح نهر حدود. وحتى في أيامنا كثيرا ما قيل أنه يجب أن يكون الحدود المشتركة بين المغرب والجزائر. على ان الاسباب الجغرافية ليس فيها مدعاة للتبرير. لان المجرى الاسفل لملْوية لا يفصل بين مناطق

مختلفة. والفواصل الطبيعية بين المنطقتين تجدها بعيدا إلى الشرق او بعيدا إلى الغرب. ومنذ العهود العتيقة، قلما توقف سادة المغرب و سادة غرب الجزائر عند ملوية هذه. فقد كان هذا النهر في الماضي مجرد حدود اتفاقية لا غير.

في أواخر القرن الثاني وفي أواسط الأول ق.م تقدمت حدود المملكة الموريطانية نحو الشرق في المنطقة التي كانت تسمى باسم نوميديا، ووصلت عند البحر الأبيض المتوسط إلى مصب نهر امباسك Ampsage (الوادي الكبير) بالشمال الغربي لقسنطينة. وهذا الحد الشرقي لموريطانيا القيصرية إحدى الولايتين الرومانيتين اللتين كونتهم روما بعد استيلائها على المملكة. وصار اسم موري Mauri تبع لهذا التقدم، بل إنه امتد إلى أبعد مما امتد إليه اسم موريطانيا الذي بقي محصورا في حدود الولاية الرومانية التي أطلق عليها. وصار يدعى باسم موري Mauri جميع الأهالي ببلاد البربر، حتى الذين كانوا يعيشون بالولايات الإفريقية الأخرى.

وقد سبق لكاتب قصة حملات يوليوس قيصر أن أطلق صفة موري على الفرسان النوميديين، كما أطلق هوراس صفة مورا Maura على مياه سدْرة. وفي القرن الثاني للميلاد نجد مورخا – او على الاصح أحد علماء البيان Rhèteur -- وهو فلوروس Florus يسمي النوميديين باسم موري، وربما كان ذلك عن خطأ. وانطلاقا من القرن الثالث، وعلى الخصوص في عهد الامبراطورية السفلى وعهد الونْداليين وعهد البيزنطيين، فإن تعميم إطلاق لفظ موري وبالإغريقية موروسيوي Mauroùsioi - قد أصبح شائعا جدا. بحيث إن جميع الأهالي من المحيط الأطلسي إلى سرنيكا (برقة) قد أصبحوا موريين Maures.

وليس لدينا من سبب للاعتقاد بانهم انفسهم، قد تقبلوا هذا المدلول البالغ السعة الذي اتخذه اسم ربما كان من قبل محدودا في احدى قبائل لمغرب. وعلى كل فإن هذا الاسم لم تحتفظ به اللهجات البربرية ولا للغة العربية. والاوربيون هم الذين اطلقوه من جديد على بعض سكان افريقيا من اهل المدن الذين ينحدر الكثير منهم من المور Mores المطرودين من اسبانيا، والرحل بالصحراء الغربية.

بين مملكة الموريين ومنطقة التراب القرطاجي. كانت في القرن الثالث ق.م مملكتان اخريان. هما مملكة الماسيسيليين Masaesyles ومملكة الماسيليين Massyles. ولاشك ان هذين الاسمين اسمان اهليان، ولابد ان الصيغ الليبية للمفرد تكون مسيْسول Masasoul او مسيْسيل Masasil، وكذلك مسول Masoul او مسيل Masil. والاجانب كتبوها وصرفوها على عدة صيغ. فبالنسبة للماسيسيليين فإن الاكثر تداولا في الاغريقية هي مسيسوليوي Masasulioi او مسيسوليوي Masaisoulioi ولربما يتكرر حرف السين بعد الميم، وفي اللاتينية نجد مسيسيليي Masaesylii ومسيسيلي Masaesyli. وبالنسبة للمسيليين Massyles في الاغريقية نجد مسوليوي Massylioi ومسوليوي Massylioi ومسولوي Massuloi ومسوليس Masuleis وفي للاتنية مسوليي Massylii ومسولي Massuli. والماسيسيليون كانوا قبيلة قبل أن يعطوا اسمهم للدولة. ويقول بلين الشيخ إن هذه القبيلة فيما مضى كانت في المنطقة التي أصبحت هي ولاية موريطانيا الطنجية. وقد اندثرت بسبب الحروب مثل جارتها قبيلة الموريين وان ارضها قد استولى عليها الجيتوليون. فإذا صح هذا. فلابد ان نستنتج منه ان الماسيسيليين او على الاقل عددا كبيرا منهم قد خرجوا من داخل المغرب وذهبوا للاستيلاء على اكبر قسم من الجزائر. ويذكر كل من بلين وبطيموس قبيلة أو قبيلتين من الماسيسيليين في موريطانيا القيصرية.

فيمكن لمن شاء أن يعتقد أنهما قسمان من القبيلة الغازية سكنتا بالأرض المفتوحة، على أن هناك افتراضات أخرى ممكنة.

أما المسيليون Massyles فلاشك أنهم أيضا كانوا قبيلة. ونجهل ين كانت تقع ارضهم. ويذكر ابزيدور الإشبيلي Isidore de Séville وهو كاتب متاخر العهد جدا ان غير بعيد من الاطلس، أي في المغرب يوجد مدينة اسمها مسيليا Massylia، ومنها أخذ المسيليون اسمهم. ويشير بلين من جانبه إلى وجود لقبيلة المسيلي Massyli بولاية إفريقيا (بين نهر مُبسكا Ampsaga وسرْنيكا Cyrenaique اي برْقة).

ومن ناحية أخرى فبالشمال الغربي للأوراس، بالقرب من بركة مدينة سماها القدماء البركة الملكية Lacus Regius، يوجد حتى ليوم ضريح ضخم اسمه المدّغاسن Medracen. ولاشك انه مقبرة لملك عظيم. ويمكن التاريخ له بالقرن الثالث ق.م. فلماذا وقع الاختيار على هذ لموقع ؟ انه لا توجد بالجوار أي مدينة يمكن انها كانت عاصمة لدولة كبيرة. افلا يكون هذا الملك قد أقام ضريحه في الموطن الصغير لاسرته ؟ فوق تراب القبيلة التي قادها هو او أحد اجداده ونجحت في تاسيس دولة جديدة ؟ ولربما أن الاوراس كان مهدا لأسرة قد تكون ذهبت للملك بسيرتا Cirta او بمكان غيرها. فهذه السلسلة الجبلية كانت في عهود مختلفة بعد ذلك قد لعبت دورا تاريخيا مهما[103] . ولكن مع ذلك، ورغما عن اسم «ضريح سيفكْس» او «ضريح مسنيسا» الذي أطلقه بعض الاثريين الهواة على المدّغاسن. فليس لدينا اي سبب جدي لنعزو هذا الاثر لملك ماسيسيلي أو ملك مسيلي.

وقد ورد ذكر الماسيسيليين منذ 220، قبل الحرب البونيقية الثانية و ثناءها. وكان ملكهم انداك هو سيفكْس Syphax. ولا نستطيع ان نقول متى تاسست المملكة التي سميت باسمهم.

أما المَسيليون فهناك نص غير وثيق جدا يذكرهم من عهد باكر ويذكر ملكهم في عهود الحرب البونيقية الاولى[10-] . فَملكهم گـايا Gaia أثناء الحرب البونيقية الثانية، كان من اسرة تداولت السلطة الملكية منذ عدة أجيال. ونرفاسْ Naravas الذي كان إبان حرب المرتزقة قد أدى خدمات جليلة لعملْكار برْكا. وكان هذا الأخير قد واعده بتزويجه من بنته. إن نرفاسُ هذا كان قائدا للنوميديين. وكان قد خلف اباه. فهل كان ينتسب لهذه الأسرة (الموسوليين) ؟ ذلك ما نجهله وكذلك لا نعلم أين كانت تقع اراضي ايلوماس Ailymas، هذا «الذي كان ملكا على الليبيين والذي كان في نهاية القرن الرابع حليفا ثم عدوا لاكاطُكْليس.

وماهي المساحة التي كانت لكل من مملكة الماسيسيليين ومملكة المسيليين ؟ حسب سترابون (نقلا عن أرْتميدور او عن بوزيدونْيوس) فإن أرض الماسيسيليين كانت تقع بين مْلوشا (ملْوية) ورأس ثْرِيتون Cap Tréton، المعروف اليوم باسم رأس بوقرْعون Cap Bougaroun شمالي قسنطينة. وعند رأس بوقرعون هذا تبدا ارض المسيليين. ولربما أن الحدود الدقيقة كانت تقع بمصب نهر امْساكا بالجنوب الغربي لهذا الرأس. وعلى غرار مْلوشا كان نهر أمْبساكا في العهود القديمة حدّا تقسيديا بين أراضي نوبا الثاني وولاية إفريقيا، ثم بين الولايتين الرومانيتين وكان هذا الحد مجرد حد سياسي، لان هذا النهر. كما هو الشأن بالنسبة لمْلوشا لم يكن يفصل مناطق جغرافية متميزة.

وهناك نصوص أخرى تتفق مع المعلومات التي أفادنا بها سترابون، عن نهاية القرن الثالث، في العهد الذي كانت فيه مملكة الماسيسيليين في قبضة سيفكْس. وبما ان هذه المملكة قد انهارت، وبعد انهيارها استمرت المنطقة الموجودة بين ملْوية ورأس بوقرْعون

تعرف باسم أرض الماسيسيليين - مع أنها أصبحت ملكا للملوك المسيليين - فيعتقد أن الحدود هنا هي حدود قديمة يقرها الاستعمال. في داخل الارض كان سيفكس يملك في سنوات 206 203 ق.م مدينة سرتا Cirta (قسنطينة). وحسب تيت ليف Tite-Live فإن هذه المدينة كانت قسما من أراضيه القديمة، وليس مما اخذه حديثا من أيدى المسيليين. فاذا صح هذا فان مملكة المسيليين قد كانت اقل سعة من مملكة الماسيسيليين. بحيث لم تكن تشمل سوى القسم الشرقي من ولاية قسنطينة شرقي سرتا. إذ حدود الولاية البونيقية المتاخمة للمملكة في النصف الثاني من القرن الثالث لابد انها - على وجه التقريب - هي لحدود الفاصلة بين الجزائر والقطر التونسي. وحقيقة إن الحدود كانت فيما قبل أكثر قربا من قرطاجة. وأن القرطاجيين قد توسعوا، على حساب المملكة المسيلية على ما يحتمل. وعلاوة على ذلك، يبدو أن الخصومات والحروب والتغييرات في الحدود كثيرا ما تحدث بين الدول المتجاورة. والمصادر تذكر لنا ذلك فيما يخص عهد سيفكس وكاي[5] . و الممالك الثلاث كانت عبارة عن خليط من القبائل التي كان من بينهم من قد نجد فائدة في تغيير الملك. ويحتمل أن بعضا آخر منها كان بمستطاعه ان يحفظ او ان يستعيد استقلاله حتى داخل هذه الممالك.

ومن ناحية الجنوب فان مملكة الماسيسيليين ومملكة المسيليين قد كانتا - على غرار موريطانيا - تحدهما قبائل جيتولية. بعضها حر تماما، وبعضها خاضع خصوصا إلى حد يجعلها تابعة اكثر من كونها رعية.

اما سيفكس فانه بعدما ضم لمملكته ولبضعة شهور مملكة المسيليين قد انهار في سنة 203. ولا ندري هل هناك ما يحتفظ به من المرويات التي تجعل من ابنه ورمينا Vermina خلفا له على قسم من

الماسيسيليين، والتي تُظهر لنا حفيذه أركوبارزّان Arcobarzane قبيل الحرب البونيقية الثالثة قادرا على حشد جيش قوي[106]. والشيء الأكيد هو أن مسنيسا، عند وفاته سنة 148، قد كان سيدا على جميع المنطقة الممتدة من موريطانيا حتى الولاية البونيقية (التي أصبحت رومانية قبل ذلك بسنتين)، أي كانت تمتد من نهر ملوشا حتى نهر تُسْكا Tusca غرب طبرقة. وكما فعل هو فإن ابنه مسيبسا Micipsa وحفيده يوغرطة Iugurtha قد جمعا في قبضتهما مملكة المسيليين التي هي ميراث بيهما. وجمعا أيضا في قبضتهما مملكة الماسيسيليين التي وقع عليها الاستيلاء واعترفت روما به. ومن الناحية الرسمية، فقد استمروا يدعون بالملوك المسيليين حتى في المناطق التي كانت من قبل ملكا للملوك الماسيسيليين.

وكذلك فإن أسماء ماسيسيليا Masaesylie ومسيليا Massylie و رض الماسيسيليين والمسيليين، كلها أسماء وقع الاحتفاظ بها زمنا على أنها أسماء لها دلالات جغرافية[107]. ولربما كانت تقع على تقسيمات إدارية بالمملكة النوميدية في عهد مسنيسا ومن خلفه على الملك من ذريته. بينما لم يحتفظ بهذه الأسماء في العهد الروماني مثلما احتفظ بموري Mauri وجيتولي Gaetuli ونوميداي Numidae. وقد رأينا من قبل أن بعضا من قبائل الماسيسيليين والمسيل - وكانت غير ذات أهمية قد استمرت في الوجود بولاية موريطانيا القيصرية وبولاية إفريقيا كذلك، فبعض الأهالي كانوا لا يزالون يحملون من الأسماء الشخصية اسمي القبيلتين الشهيرتين اللتين كان ينتمي إليهما كل من سيفكْس ومسنيسا. وختاما، فإن بعض الشعراء اللاتانيين قد استخدموا لفظ مسيلوس Massylus اسما أو صفة (وأحيانا استخدموا مسيليوس Massylius) للدلالة بصفة مبهمة على أشخاص وعلى أشياء من إفريقيا.

3

إن لفظ ليبوس Libyes قد كان مستعملا عند الإغريق للدلالة إما على مجموع سكان شمال إفريقيا، أو على قسم منهم.

وأصل اللفظ افريقي، فبعض الوثائق المصرية الراجعة لما قبل الالف الاول قبل الميلاد، تذكر الربو Rebou أو الليبو Lebou على أنهم عشيرة Peuplade كانت تسكن بين وادي النيل وخليجي سنرد . وقد عرف الإغريق هؤلاء الليبو، إما عن طريق غير مباشرة أي بواسطة لمصريين، او عرفوهم مباشرة على ساحل البحر الابيض المتوسط. وقد أسموهم باسم ليبوس Libyes وسموا ارضهم ليبوي، وهو الاسم الذي نجده في الأوديسة.

ومنذ القرن السادس، فإن اسم ليبوي Libye هذا قد وقع إطلاقه من لدن بعض الجغرافيين الايونيين Ioniens على جميع القارة الافريقية[109]. واحتفظ منذ ذلك العهد بهذه الدلالة. ولم يحدث خلاف سوى بشأن الحدود التي يحسن ان تكون لليبيا من الجهة الشرقية. فبعضهم كان يرى أنها هي نهر النيل، بينما كان البعض الآخر يرى أنها هي خليج السويس والبحر الأحمر، وأخيرا كان الغير يرى أنها الحدود الغربية لمصر.

على أن لفظ ليبوس Libyes لم يكن له نفس الانتشار الواسع. إذ يقول هيردوت[110] «...إن ليبيا يعمرها ...شعبان أهليان... الليبيون (Libyens) Libyes والاثيوبيون. ويسكن الأولون في الشمال والآخرون بجنوب ليبيا Libye».

وعند بعض الكتاب الاحدث عهدا، نجد لفظ ليبوس Libyes وقد اطلق على جميع سكان إفريقيا الشمالية من مصر إلى المحيط، ومن

البحر الابيض المتوسط إلى الاراضي التي يعيش بها الأثيوبيون. بحيث إن النوميديين والموريين مثلا هم ليبيون. بل وفي بعض الاحيان فان لفظ ليبوي Libye، لا يدل على القارة كلها، وإنما يدل على شمالها فحسب.

وارتبطت باللفظ ليبوس Libyes ايضا دلالة أضيق وذلك كما يتضح من عدة فقرات من ديودور الصقلي (الذي يكون ربما قد نقل عن تيمي Timee او عن دوريس Doaris). ومن بوليب Polybe ومن أبيان Appien فقد سمى الإغريق بهذا الاسم اولئك الذين سماهم الرومانيون باسم أفري Afri، وهم أهالي المنطقة الخاضعة للسيطرة القرطاجية الرسمية، نقيض لنوماديس Nomades الذين كانوا يعيشون خارجها. وهذه المنطقة - او على الأصح ما بقي منها بعد الاغتصابات التي اغتصبها منها مسنيسا - استولى عليها الرومانيون في أواسط القرن الثاني، وأصبحت هي الولاية الجديدة، أي ولاية افريقيا Africa. عند الرومانيين تسمى عند الإغريق باسم ليبوي Libye، وذلك أمر طبيعي نظرا لانها كانت آهلة بالليبوس Libyes.

ومن المحتمل أن القرطاجيين استعملوا هم أيضا هذا اللفظ في تسمية الاهالي. فبعض نقوش قرطاجة البونيقية تذكر اشخاص تسمون LBY وLBT و LOUBI و LOUBAI أي حسب ما يبدو (الليبي والليبية). وبعد ذلك في أوائل العهد المسيحي، نرى احد النقوش النيوبونيقية Neopunique يطلق صفة (قائد الجيش ببلاد اللوبيم) LWBYM Loubim على بروقنصل ولاية افريقيا، اي ولاية ليبوي Libye باقلام الاغريق. فهل وقع اقتباس في هذا من الاغريق ؟ او هل ان الفينيقيين منذ عهد بعيد يكونون قد استخدموا هذا الاسم الذي ربما استعاروه من المصريين ؟ وعلى غرار الاغريق يكونون قد أطلقوه اولا على الاهالي الذين يعيشون

في غرب مصر ثم على الذين يعيشون أبعد منهم إلى الغرب . ويمكن لافتراض بأن العبرانيين عرفوه عن طريقهم، لأنه موجود بصيغة لِهابِيمْ Lehabim في فقرة قديمة جدا من سفر التكوين، كما يوجد بصيغة لوبيم Loubim في نصوص أحدث عهدا بالتوراة.

وبعض النقود المورخة بالنصف الأول من القرن الثاني قبل الميلاد تحمل الكتابة الإغريقية ليبوون Libyon. وعلى أكثرينها يظهر الحرف البونيقي . فهي اذن نقود ضربت في إقليم إفريقي متفتح في نفس الحين للتاثيرات الهيلينية وللتاثيرات القرطاجية، أي في منطقة . وهي تبرهن على ان الأهالي يستخدمون اللغة الإغريقية، وكانوا يقبلون التسمية التي يطلقها الاغريق عليهم. ولكن ليس لدينا برهان على ان التسمية كانت مستعملة عند الذين كانوا يستعملون لغتهم وحدها. حقيقة اننا نجد الليبوس Libyes مذكورين مع الجيتوليين بأنهم اقدم السكان بشمال إفريقيا. نجد ذلك في الرواية التي سقها سالُسْت نقلا عن الكتب البونيقة للملك النوميدي هيمْبسال Hiempsal، وأكد أنها رواية مطابقة لآراء اهل البلد. ولكنها حسب ما يلوح رواية مستعارة إما عن بعض القرطاجيين أو عن بعض الإغريق.

ويقسم هيرودوت الليبيين إلى رعاة Nomàdes وإلى فلاحين arotères. وبالنسبة له فإن لفظ Nomàdes هو وصف من اللغة الإغريقية يدل على نمط العيش، وكذلك فقد استعمله كل من هيكتي Hécatée وهلنيكوس Hellanicos وبنّدار Pindar بمناسبة الحديث عن بعض الأهالي الأفارقة[112].

ولكن لفظ نوماديس Nomàdes أصبح اسما علما يطلق على أحد الشعوب او على مجموعة منها. فنجده بهذه الدلالة في تاريخ الحروب

البونيقية التي رواها بوليب[113]. وبدون شك فلابد من الذهاب إلى أبعد من هذا التاريخ، بحيث إن ديودور الصقلي – في نقله عن أحد كتّاب أوائل القرن الثالث وهو تيمي Timée أوْ دوريس Douris – قد ذكر وجود النوماديس في الحروب التي جرت في نهاية القرن الخامس والرابع . كما نجد أن إراتُسْتين Eratosthène عند نهاية القرن الثالث. عرف هو بعض النوماديس بافريقيا. أما اللاتانيون فيستعملون صيغة نوميدي Numidae التي نجدها عند سالُسْت في كتابه عن يوغرطة، ونجدها عند تيتْ ليڤ في روايته عن الحرب البونيقية الثانية، وكما نجدها في جُسْتان Justin الذي اختصر طْروكْ بومْبي Trogue-Pompee بمناسبة ذكره لاحداث وقعت في القرن الخامس وغير ذلك . وفي نهاية القرن الثاني، فإن انتصارات ميتلوس Métellus على يوغرطة قد اضفت على متلوس لقب نوميديكوس Numidicus. ويحتمل ان لفظ نوميداي قد استعمله الرومانيون منذ القرن الثالث اي من العهد الذي جعلتهم حروبهم ضد قرطاجة يتصلون باهالي بلاد البربر.

فهل اسم نوماديس Nomàdes هو من اصل إغريقي صرف، بتحويل نوماديس إلى اسم علم (الرعاة) ؟ ولفظ نوميداي Numidae، هل له (أي لنوماديس) صيغة لاتانية مع اعترافنا انها صيغة غير مألوفة؟ لقد جرى البعض على اعتقاد ذلك، وليس لنا من سبب حاسم لإنكاره.

ومع ذلك فإن افتراضا آخر يمكن تقديمه . ألا يمكن أن يكون الاغريق واللاتانيون قد وجدوا ببلاد البربر اسماً سُلاليا ينطق به بما يقرب Nomades و Numidae ؟ فيكون الأولون (الإغريق) قد غيروه إلى نوماديس Nomàdes باستعمالهم لتورية سهلت الأمر نظرا لان اكثرية هؤلاء الافارقة كانوا من الرعاة، كما يكون الرومانيون قد اعتمدوه

فحسب مع إخضاعه للحالة الأولى من قواعد الاعراب في لغتهم. ولربما أن هذا اللفظ الأهلي قد وقع إطلاقه في أول الأمر على قبيلة مهمة كانت أقسام منها لا تزال موجودة بجهات مختلفة في عهد الامبراطورية الرومانية(116). ولربما أن إطلاقه امتد الى مجموعة من السكان إما على يد الاهالي أنفسهم. وذلك أمر لا حجة عليه. وإما على يد الإغريق. أو على يد القرطاجيين قبل الإغريق.

هذه كلها افتراضات واهية. ولكن المؤكد هو أن اسم نوماديس نوميداي Numidae قد أطلقه كتاب متعددون على جميع الاهالي بشمال إفريقيا باستثناء سكان المنطقة البونيقية. ثم سكان الولاية الرومانية الذين كان اسمهم ليبوس Libyes وأفْري Afri.. فديودور الصقلي (نقلا عن تيمي ؟) يقول ان النوماديس كانوا في نهاية القرن الرابع يشغلون قسما كبيرا جدا من ليبيا حتى الصحرا.. وسالُسْت أطلق اسم نوميداي على أهل كبْسا Capsa (قفْصة) بجنوب القطر التونسي. وكذلك الأهالي الذين كانوا يعيشون في لبْتيس الكبرى Leptis Magna بين السدْرتيْن. وكذلك فان حسْبعْل في أحد النقوش باللغة الاغريقية، وكذلك غيره قد وصفوا المورييين بكونهم نوميديين.

على أن هذا الاسم قد أخذ مدلولا أضيق. وذلك أن الجيتوليين الذين كانوا يسكنون بداخل الاراضي، والموريين الذين كانوا يسكنون شمال المغرب، قد وقع التمييز بينهم وبين النوميديين حقيقة الساكنين بالمنطقة المجاورة للساحل، والتي كانت واقعة بين مملكة الموريين والولاية القرطاجية. وقد كانوا في القرن الثالث رعايا للملوك الماسيسيليّين والمَسيليّين. وقد وصف هؤلاء وأولئك بأنهم ملوك النوميديين، وبهذه الصفة وصفوا على الأقل في بعض النصوص

لاغريقية واللاتانية، إذ لا يوجد برهان على انهم لقبوا أنفسهم بهذا للقب. وبانعدام المملكة الماسيسيلية من الوجود، فإن الملوك المسيليين قد نشروا سيطرتهم من نهر مَلْوية حتى طبرقة. وكان هذا هو القطر لذي صار يسمى باسم نوميديا Numidia. وقد ذكرنا من قبل أنه صرت بعد ذلك تابعة جزئيا لمملكة الموريين، التي جعل منها الرومانيون في 42 للميلاد ولايتين بموريطانيا. واصبحت حدود نوميديا من جهة لغرب هي نهر أمْبساگا Ampsaga. إذ تراجع إلى هنا اسم نوميدي Numidae امام اسم موري Mauri الذي امتد إلى بعيد جد نحو لشرق. ولو أنه مع ذلك لم يمْحَ اسم نوميداي في المنطقة التي احتفظ لها الرومانيون باسم نوميديا الرسمي.

وكما نرى، فإن هذين الاسمين . نوماديس ونوميداي يمكن أن يكونا من أصل أهلي - وذلك ما لا أستطيع تأكيده - ولكنهما حسب ما يبدو مدينان للاغريق وللرومانيين بالانتشار المتغير حسب حدود الدولة والولايات.

ولفظ كيتولُوي - Gaetoúloi كيتولي Gaetuli نلاقيه من نهاية القرن لثاني قبل الميلاد. وهو يدل على الاهالي الذين يبدو انهم في اول الامر قد وقع خلطهم بدون تمييز في مجموعة الشعوب المسماة نوميدية. ونستطيع الافتراض - دون تاكيد - أن الاسم كما في «ماسيسيليين» و«مسيليين»، و«موريين»، وربما النوميديين قد كان في اول الامر اسما لقبيلة، وأنه امتد إطلاقه بعد ذلك على كثير غيرها.

ولكن الجيتوليين Gétules لم يؤسسوا دولة ابدا. فهم سكان منطقة متسعة تمتد من جنوب المناطق المجاورة للبحر الأبيض المتوسط التي كان يعيش بها الموريون والماسيسيليون والمسيليون ورعايا قرطجة

ورومة إلى شمال الحاشية الصحراوية التي كان يسكنها الأثيوبيون هن وهناك. فكلمة گيتوليا Gaetulia كانت إذن تعبيرا جغرافيا يطلق عى سسلة من السهول الجافة والعارية عموما، وكذلك على سلسلات لجبل لتي تحدها من جهة الصحراء. وكانت الحدود الجنوبية لهده المنطقة تفصل أراضي البيض عن اراضي السود. ولكن ليس لنا أي برهان على ن جيتوليا Gétulie قد كان لها في الشمال حدود بالمعنى لسلالي (ناسبة Anthropiques). وحيث إن المناخ وبنية التربة لم يفرض كذلك حدودا مدققة. فيجوز الاعتقاد بان اسم الجيتوليين قد اطلق عى لعشائر التي كانت عند تأسيس ممالك الموريين والماسيسيليين والمسيليين. قد بقيت خارج هذه الدول.

في المغرب كانت قبائل جيتولية بين وادي أبي رقراق، وساحل لمحيط والاطلس نفسه[118]. واهمها هي قبيلة الأطلوليين Autololes لتي كانت لها منطقة ترابية واسعة جدا. نمتد مما يجاور الرباط إلى ما بعد الصويرة. وكانوا مع جيتوليين اخرين هم البنْيور Banıures قد استولو في وقت لا ندريه على اراضي قبيلتين منهارتين. سبق أن لعبت دور تريخيا عظيما وهما قبيلة الموريين وقبيلة الماسيسيليين. وقد كن لهؤلاء الاطلوليين شهرة كبيرة في العالم الروماني. فكان من لشعر ، لوكانْيوس Lucanus وسيلْيوس ابطاليكوس Silius Italicus وكوديان Claudien وسدْوان أبولينير Sidoine Apollinaire قد أدخلوهم في عروض Développements وإن كانت لا تتطلع إلى التدقيق الجغرافي.

اما في شرق الجزائر، فلابد ان الحدود الشمالية لارض الجيتوليين كانت تمر على مسافة قليلة جنوبي قسنطينة، وكانت قريبة جد من مد ورش Madaure (بين سوق أهْراس وتبسة) وفي الجنوب كن نهر

نـگّريس Nigris يفصل بين جيتوليا واثيوبيا. ويحتمل جدا انه هو نهر جدي Djedi الذي يمتد من أحواز الأغْواط Laghouat حتى الجنوب لشرقي لبسْكرة. أما بجنوب ولاية افريقيا Africa. فإن الجيتوليين كانو يصِلون لساحل سدْرة. وكذلك فإن الجيتوليين قد ذكر لهم وجود بمقاطعة طرابلس، بل وحتى في مقاطعة سرنيكا Cyrénaique (برقة).

جميع هؤلاء الاهالي كانوا تقريبا من الرحّل. خصوصا وأن قسما كبير من اراضيهم لم يكن يتناسب مع نمط آخر للحياة. إن ضروريات حياتهم الرعوية، بل اكثر من ذلك، حبهم للنهب، كل ذلك كان يجعلهم على تصل بجيرانهم في الشمال. مما جعل الملوك النوميديين والموريين ملزمين بنشر سيطرتهم على الجيتوليين. وهي سيطرة يبدو انها لم تكن مكينة ابدا. ويعتقد ان الجيتوليين كانت لهم ايضا علاقات مع الاثيوبيين.

4

نجد عند المؤرخين والجغرافيين العرب اسما يطلق على جميع السكان الاصليين بشمال افريقيا، وهو البربر - البرابرة (مفرده بربري)، وقد استعمله الاوربيون. فالفرنسيون استعملوه بصيغة Berberes. ولابد من القول بانه في لغة التخاطب قليل الاستعمال عند القبائل العربية والمستعربة وان القبائل التي تتكلم باللهجات المسماة بربرية لا تستخدم هذا اللفظ في الدلالة على نفسها.

والاصول التي يذكرها لهذه الكلمة كتّاب العرب في العصور الوسطى تعتمد على مقاربات لفظية ليس لها اي قيمة. كما ان بعض العلماء المحدثين اكدوا انه اسم سلالي سابق في الزمن على الفتح الروماني [10]. فهو حسب البعض قد كان منذ عهد بعيد جدا الاسم الذي

يكون شعب كبير قد اتخذه لنفسه واستمر الإسم موجودا منذ وهنالك ابتداء العصور التاريخية القديمة، ثم عاد له مدلوله العام الذي كان له من قبل. وحسب الآخرين يكون الإسم قد دل على قبيلة هامة أو على عدة قبائل مهمة، ويكون العرب عمموا إطلاقه.

لقد سبق أن أوضحنا[120] أن تدعيم الافتراض الأول لا معنى فيه للبحث عن براهين من خارج بلاد البربر، أي في إفريقيا الشرقية وربما حتى في خارجها. ولا داعي لأن نقبل القول القائل بأن المنطقة التي كانت في عهد الامبراطورية الرومانية تسمى برباريا Barbaria (وهي أرض الصوماليين)، ولا بأن البْرابْرا Brabra بوادي النيل بجنوب مصر، كلها براهين على وجود رابطة مما قبل التاريخ، رابطة في الدم والاسم مع بربرنا اليوم[121].

أما البراهين المقدمة لتدعيم الافتراض الثاني فليست أحسن من الأولى. ومن الغفلة أن ينخدع المرء للمشابهات اللفظية فيتذكر السُبُرْبُور Suburbures القبيلة النوميدية الكبيرة التي كانت في القرن الميلادي الاول. ومن المحتمل ان الباربار barbares الذين ذكرهم أحد كتاب العهد الادنى، كانوا في الحقيقة هم البوار Bavares، القبيلة الاخرى التي كانت أقسام منها منبثة في جهات مختلفة. وما معنى كلمة بارباري Barbari الواردة في تسمية Promonturium Barbari أي الرأس، بمعنى «المرتفع البارباري»، الذي اورده الكشاف الروماني للطرق المعروفة بمسالك أنْطونان Itinéraire D'Antonin وذكر وجوده بساحل الريف ؟ إننا لاندري ذلك. ولربما ان اللفظ فيه تحريف، وعلى كل فلا شيء يبرهن على أنه يتعلق باسم إحدى القبائل. إن اسم بني بَرْبَر Beni Barbar الذي أطلق على سكان جبل شيشار J. Chechar بشرق الأوراس، وقبلوه، وكذلك

اسم البرابر Bräber الذي أطلق على أهل الأطلسيْن المتوسط والأعلى الشرقي بالمغرب، والذي لا يستعمه هولاء الجبليون، هما اسمان لا يرجعان حسب رأينا لعهد بعيد. وهما لاشك عبارة عن استعمالات جهوية للفظ اللاتاني بارباري Barbari واللفظ العربي برابر Bräber. وهذ لفظ الأخير مشتق بالتاكيد من Barbari. هذ. راي جملة من العلم.، ويبدو لنا رأيا صحيحا.

وكلمة برْبروس Barbarus لفظ استعاره اللاتانيون من الإغريق Bachacos الذي هو من اصل هندي أوربي. وهو يعني الذين يتكمون بلغة غير الاغريقية وغير اللاتانية. وبمعنى أعم، يعني الذين هم أجانب عن الحضارة الاغريقية الرومانية. وهم، نتيجة لذلك قد مكثوا في حالة من الانضاع. وهناك مجموعة للنصوص من سالُسْت ومولف حرب فريقيا Bellum Africum إلى كوريبوس Corippus كلها تشهد بان الرومانيين كانوا يطلقون اسم بارباري Barbari على الافارقة الذين لم نكن لهم لا لغة الاخرين ولا اخلاقهم. فكان اللفظ تحقيرا، ولابد ان لاهلي لم يكونوا يرضون به. وتحسن ملاحظة شي. هو ن كر سة صغيرة في النحو. يمكن تاريخها بالقرن الثالث وهي عبارة عن قائمة بالتعابير المستهجنة. تذم استعمال باربار Barbar في محل بربروس Barbarus، لكن من المحتمل جدا ان هذه القائمة قد كتبت في قرطجة. ذن ففي اللهجة اللاتانية الشعبية بافريقيا تكون صيغة بربروس قد اتخذت الصيغة التي استعملها العرب.

ولقد وجد الفاتحون المسلمون عند قدومهم طائفتين متميزتين من السكان، إحداهما تتحدث باللاتانية وكانت مسيحية، والثانية حافظت عى لغتها وعاداتها كما حافظت في الغالب على الهتها الوثنية. فالاولون

كنوا هم الروماني Romani والآخرون هم البارباري Barbari. وقد حفظ لعرب على الإسمين، بحيث دعوا الأولين باسم الروم Roum ودعو الاخرين باسم البرابَر Brâber[112]. وهذا الاسم الاخير حوفظ عليه في لكتابات الادبية، ولم يحتفظ به إلا قليلا في لغة الشارع التي ليس له اليوم لفظ عام إطلاقه على من يسميهم الفرنسيون بعد الاغريق و لرومانيين والعرب باسم البربر Berbères. فهو لم يطلق إلا عى مجموعة هامة من الجبليين المغاربة.

فيجب إذن التخلي عن الرأي الذي يقول إن اللفظ اسم سلالي له أصل أهلي ويرجع لتاريخ بعيد.

وعلى العكس من ذلك اسم آمازيغ Amazigh، وتمزيغْت في المؤنث وإيمزيغن Imazighen في الجمع. فكثير من البربر يسمون انفسهم هكذا، كسكان الريف المغربي، واهل الأطلسين المتوسطي والاعلى (هم الذين يسميهم العرب البربر)، والذين يتكلمون لهجة بربرية في الصنْد Sened بجنوب القطر التونسي، وأهالي جبل نفوسة بمقاطعة طرابلس، وإحدى القبائل بناحية غدامسْ بالصحراء، وطوارق العيْر Aïr. وهناك عدة لهجات تسمى تمزيغْت، كلهجات الريف، والبرابر Brâber، و لأور س، وفكيكْ، وجرْبة، والصنْد، ومْزاب، وغير ذلك. والانتشار الكبير الذي عرفه هذا الاسم تشهد له جداول الانتساب التي تم وضعها في العصور الوسطى، ففيها يذكر بطل أسطوري هو مازيغ Mazigh على أنه جد لبرانس الذين هم إحدى سلالتي البربر، وتذكر تمزيغْت من بين أجداد السلالة الاخرى وهم البُتْر.

ونفس الاسم يظهر امامنا منذ التاريخ القديم. فقد أطلق عى بعض لافراد، إذ نجده مستعملا هكذا في نقوش ليبية بصيغة م س ك M S K،

وفي نقوش رومانية على صيغ مَزيك Mazic، ومسيك Masik، ومزيكْس Mazix، وفي المؤنث مزيكا Mazica بإعراب لاتاني، ولعل مَسَاك Masac هو نفس الاسم منطوقا به ببعض التغيير.

ونفس الإسم كان كذلك في القرن الميلادي الأول اسما لعدة قبائل. فبطلمي يذكر المازيكس Mazices في موريطانيا الطنجية، بالأرض [illegible] تُسمّى اليوم باسم الريف[12]. كما ذكرهم بالقيْصرية بناحية ملْب[illegible] وهؤلاء قد عادوا للظهور في نقش لاتاني اكتشف بمليانة نفسها، وك[illegible] في الرواية التي خلفها لنا أمْيان مرْسلان Ammien Marcellin عن [illegible] فرْموس Firmus عند نهاية القرن الرابع. كما ان نقشا آخر من إفريقيا يرجع لنهاية القرن الثاني أو لبداية القرن الثالث يذكر الـ Mazices [illegible] (regionis) Montensis، الذين حاربتهم الجيوش الرومانية، ونحن نجهل اين كانت تقع أراضيهم، ولربما انهم التبسوا باحدى القبيلتين السابقتين. وفي عهد الدولة السفلى فان المازيكس، وهم قوم من الصحر[illegible]، كانوا من جهة اولى يقومون بغارات في الواحات الواقعة غربي مصر، ومن جهة اخرى بغارات في مقاطعة طرابلس. ووجود قبيلة من المازاكس Mazaces في نوميديا في القرن الخامس يؤكده على ما يظهر وجود اسقفيتين ماراكيتين Deux Episcopies Mazacences. وكذلك، فان المور المعروفين باسم المازازيسس Mauri Mazazeses قد ذُكروا في موريطانيا في وثيقة ترجع لنهاية القرن الثالث.

ان الاسم الذي كتبه الاغريق واللاتانيون بصورة Mazaces لابد او ربما انه خص بعض القبائل الإفريقية قبل السيطرة الرومانية. ففي خرافة تاسيس قرطاجة على يد ديدون Didon، نجد ملك الارض التي أُقيمت فيها مستوطنة صُور قد كان رعاياه من المازيكس حسب

قول أسْتاث Eustathe، أو كانوا من المَكْسيطاني Maxitani حسب قول جُسْتان. ولربما أنه نفس الإسم الذي نجده بصيغتين بينهما اختلاف قريب. عند هيكاتي Hecatee حوالي سنة 500 ق م وعند هيرودُت حوالي لقرن الخامس ق م. فالاول يذكر اسم Mazyes في ليبيا والثاني يذكر مكْسو ويجعلهم بغرب نهر تْريتون Triton أي على الساحل لشرقي لقطر التونسي.

في بعض النصوص اللاتانية التي اكثرها شعري، فإن اسم مازاك Mazaces لايطلق بالضبط على قبيلة أو على العديد من القبائل، وانما له مدلول عام ومبهم. وقد سبق أن رأينا ان لفظ مسيلي Massyli استعمل بنفس الصفة.

كما أن تاليفا جغرافيا من القرن الرابع للميلاد -- أشرنا له من قبل - ذكر ان في الصحراء، خلف إفريقيا الرومانية يوجد بربار Barbares يدعون باسم Mazices وAethiopes[125]. ويبدو أن هذين الاسمين Mazices و Aethiopes هنا يدلان حقيقة على مجموعة من القبائل المنتشرة على مسافات شاسعة. وهذا المعنى غير مشكوك فيه، في مؤلف جغرافي آخر يرجع لعهد متاخر جدا، حيث اشير إلى (gentes Mazices Multas)[126] بل يصح الاعتقاد بان هيكاتي كان يعطي مدلولا واسعا لاسم مازوس Mazyes، إذ ينقل عنه تْبن البزنطي قوله «مازوس الرحل بليبيا». ومن نفس العهد تقريبا اي بداية القرن الخامس ق م، فان النقش الجنازي لملك الفُرْس داريوس (دارا) يذكر في نهاية قائمة الشعوب التي كانت خاضعة للملك العظيم المكيبا Makiya (او الماسيبا Massiia) والكرْكا Karka الذين ربما يحسن البحث عنهم في شمال إفريقيا. فبعض العلماء، ومنهم اوبِرْت Oppert رأوا في

هذا أهالي هذه المنطقة والقرطاجيين. وقالوا عن صواب أو خطأ بالتقارب بين اسم ماكيبا Makina وبين Mazyes. وMaxyes وMazices.

واللفظ الذي لايزال موجودا بصيغة امازيغ. إيمازيغن، يبدو أنه كان منذ عهد بعيد جدا يدل على قسم كبير من سكان إفريقيا الشمالية.

ولربما أنه قبل أن يكون اسما علما على القبائل والأفراد، كان لفظ من ألفاظ اللغة المستعملة، فكان صفة. وفي القرن السادس عشر نجد ليون الافريقي (محمد الوزان الفاسي) يؤكد ان جميع البربر لهم لغة واحدة، يسمونها جميعا باسم أكل آمزيك aquel amazig ويذكر أن معناه اللغة النبيلة Langue noble. لكن لوحظ عليه أنه أخطأ في المعنى[127]. وأن الامر يتعلق بالشعب وليس باللغة، لان كلمة kel اسم جمعي معناه (أهل كذا...) في بعض اللهجات. فتكون ترجمته هي «الشعب النبيل». ومن جهة اخرى يعتقد بعض العلماء[128]، ان لفظ اماريغ كان معناه (الحرّ) في اول الامر. ويمكن تقريب اللفظ الذي ندرسه إما مع لفظ آريس Aryas[129] ومعناه «النبلاء» او مع لفظ فرنك Frances (الفرنج) ومعناه الاحرار.

وكيف نفسر انتشار هذا الاسم على عدة مجموعات بربرية ؟ هل ان شعب غزيا[130]، قد سيطر في عهد مجهول على قسم كبير من شمال إفريقيا، ونشر به لغته، وميز نفسه باسمه عن رعاياه والخاضعين لسيادته ؟[131] وقد يكون بعد ذلك انقسم وتجزأ فكوّن عدة من القبائل. ولكن يمكن القول بافتراضات أخرى لاداعي لعرضها هنا لعدم وجود اي برهان قوي يدعمها.

الكتاب الأول

الممالك الأهلية

نظامها الاجتماعي والسياسي والاقتصادي

الفصل الثالث

الملوك ورعاياهم

1

في الدول التي تكونت ببلاد البربر قبل الاستيلاء الروماني كانت لمكية على الخصوص إمرة حربية. وكان من المستحسن أن يقوم به الرجل. ولا نرى أن النساء قد وقع قبولهن فيها، باستثناء كليوبتر صيلني Cleopâtre Selène التي كانت حوالي عهد الميلاد على الارجح شريكة لزوجها يوبا الثاني، الذي هو الملك قبل الأخير بموريطانيا. ولكنها كانت أجنبية، بنتا لمصرية وروماني. وإذا كان صحيحا أن الملك كان مشتركا بينها وبين يوبا، فإن هذا التقسيم (أو الاشتراك) قد أوجبته ر دة لامبراطور أوغسْطس، بحيث يبدو أن الملكية كانت مخصوصة للذكور في العهود التي كانت فيها الدول الأهلية متمتعة باستقلالها.

وكانت وراثية، غير أن هذا المبدأ لم يجر تطبيقه بصفة واحدة. إذ نلاحظ كيفيات مختلفة في تنقل السلطة الملكية.

فبالنسبة للمسيليين في القرن الثالث ق.م كانت الملكية ملك لإحدى العائلات، بالمعنى الأوسع لهذا اللفظ، أي كانت ملكا لمجموعة من لانسباء Agnats الذين يصعدون بانتمائهم عن طريق الذكور إلى جد مشترك. وهو جد حقيقي ومؤسس تاريخي للأسرة المالكة. وبعد ذلك لاشك. فان حب تمجيد مقام الأسرة المالكة هو الذي أوجد حد ول الأنساب الاسطورية التي تجعل للأسرة المالكة أصولا إلهية. وسواء أكانت إلهية أم بشرية فحسب. فإنها كانت تشكل في الامة مجموعة ذات نفوذ. وكان يجب لأفرادها التشريفات الخصوصية.

كان الرئيس في هذه الأسرة هو الأكبر سنا من بين الذكور لأحب - لمولودين من الزيجات الشرعية. وهو الذي ينال الملك وبعد موته يتحول لملك لمن أصبح هو الاكبر سنا من بين مجموعة الذكور الانسب.. هذه هي القاعدة التي اتبعت بعد موت كايا Gaia حوالي 207 ق م [132]. ولم يتول الملك بعده ابنه مسنيسا الذي كانت سنه آنذاك نحوا من ثلاثين سنة. بل الذي خلفه على الملك هو أوزلكيس Oezalcès الذي كان آنذاك طاعن في السن. وهو اخو كايا. ولما مات أوزلكيس بعد ذلك بقليل خلفه بنه الاكبر كبوسا Capussa ولابد انه كان أكبر سنا من مسنيسا، إذ لاشيء يدل على ان مسنيسا قد طالب إذ ذاك بحقوقه الشرعية.

هذا الترتيب في تولي الملك. لم يكن خاصا بالمسيليين، بل لقد عملت به شعوب أخرى. بحيث إنه عرف في نفس الزمن بالهضبة الايبيلانية مثلا كما سنجده بعد ذلك عند الونداليين. وفي القطر التونسي، كان هو المعمول به حديثا عند البايات الذين اخذوه عن الترك. ويمكن الافتراض بأن نفس النظام. الذي هو تطبيق القانون العام لأسر الأنسباء الذكورية familles agnatiques، كان في الأصل معمولا به في الممالك الأهلية الأخرى، عند الماسيسيليين والموريين.

لكن هذا الترتيب لم يحافظ عليه. لانه - من جهة اخرى - كان يعرض بالدولة لان تقع في ايدي شيوخ فاقدين لقوى الجسم والفكر الضرورية لتادية مهامهم، وذلك ما قد يدفع ببعض الامراء الشباب من ذوي الطموح إلى الاستيلاء على منصب لاحق لهم فيه. ومن جهة اخرى، كان طبيعيا ان الملوك يودون ترك الملك بعدهم الى ابنائهم هم، او الى ح لهم دا نعذر الامر، ولا يتركونها الى افراد من قرابتهم الدنب و لبعده. فعل عهد الملك كايا كانت هناك منافسات في اسرة المسيين لمكة لمنقسمة إلى شعبتين متعاديتين. ولما توفي كبوسا Capussa بعد ان حكم مدة قصيرة، فان اخاه لكومازيس Lacumazès، وكان لا يز ل طفلا، هو الذي نصب ملكا. وكان ذلك بارادة امير اخر ينتمي للشعبة لمنافسة لكايا. اما مسنيسا الذي كان اكبر سنا من لكومازيس فلابد أنه عمل للفوز بحقوقه بحد السلاح[133].

وقد توفي مسنيسا سنة 148 ق م عن تسعين سنة. ولا يحتمل مطلقا ان يكون قد بقي انذاك في نوميديا من افراد عائلته من هو اكبر سنا من ابنائه، فيكون له حسب التنظيم القديم الحق في تولي الملك. وكان بذوه الشرعيون مسبسا Micipsa وكُلوسا Gulussa ومستنبعل Mastanabal هم الذين خلفوه. أما ابناء الجواري فهم مبعدون عن الملك. وهل تمنى مسنيسا أن يؤول ميراثه لابنه الاكبر مسبسا، او ان يخص به الاخوة الثلاثة ؟ إنه كان قبل موته قد كلف سيبيون الايميلي Scipion Emilien بتسوية تركته. ونحن نجهل ما اذا كان الروماني قد سواها وفق ارادة الميت، إن صح أنه عرف هذه الارادة. وعلى كل فانه قرر أن يكون هناك ثلاثة ملوك، تكون المملكة بينهم مشاعة، ولكنهم يتقاسمون فيما بينهم المهام المليكة التي هي الادارة والحرب والعدل. ولاداعي للاعتقاد ان سيبيون قد استرشد في هذا بسباقات يكون قد عثر عليها في تاريخ

المسيليين، بل نرى جيدا - على النقيض من ذلك - أن روما كانت مصلحتها في تجزئة السلطة العليا في الدولة الشاسعة لأصر ف لني كونها مسنيسا. وزيادة على هذا فإن مسِنْسا قد عاش طويلا بعد أخويه، فصار بذلك السيد الوحيد على المملكة.

وقد أوصى مسِنْسا بالملك من بعده لابنَيْه أذَرْبَعْل Adherbal وهيْمبسال Hiempsal، وليوغرْطة Jugurtha إبنه بالتبني. ولولا هذا التبني لما كان ليوغرطة أي حق، لأنه إذ كان أبوه هو مستنبعل فإن أمه لم تكن زوجة بل كانت حظية. وغير هؤلاء الأمراء الثلاثة، نعرف أعضاء آخرين من الأسرة المالكة، وهم مسيڤا Massiva ابن كُلوسا وكَوْضا Gauda ابن مستَنبعل الذي لا شك أن مولده لم يكن شرعيا، فلم يكن نتيجة لذلك أهلا لاعتلاء العرش[34]. ولسنا ندري هل كانوا أكبر سنا من أبناء مسنسا، وهل عند موت هذا الأخير يكون لهم الحق في تولي الملك بعده وفقا للنظام الذي كان معمولا به عند المسيليين في نهاية القرن الثالث. أما كوْضا فقد عيّنه مسِنْسا وليا للعهد من الصف الثاني.

وعلى أية كيفية أراد مسِنْسا أن يزاول خلفاؤه الثلاثة السلطة الملكية كما زاولها هو مع أخويه الاثنين بعد موت أبيه؟ ليس لدينا معلومات دقيقة في هذا المجال[35]. لكن أذرْبعل وهمْبسال ويوغرْطة قرروا التجزئة الترابية التي جعلت في الحقيقة من نوميديا ثلاث ممالك مختلفة. ولو كان التقسيم وفقا لإرادة مسِنْسا لكان قد دخل الى حيز التطبيق من غير لزوم لاتفاق الورثة الثلاث عليه.

بعد اغتيال هيمْبسال والحرب بين يوغرْطة واذربَعْل، قامت روما بتحديد القسيمة الترابية للاثنين اللذين بقيا على قيد الحياة، ثم استولى يوغرطة على نوميديا جميعها. ولما أُسِر وقع إعدامه في إيطاليا ونحي

تناوه عن تولي الملك[136]. وأعطت روما المملكة لـگوْضا الذي بمقتضى وصية مسبْسا هو الوارث الشرعي لها. وقد خلفها من بعده لابنه هيمبسـل (الثاني). ومع ذلك فيحتمل أن نوميديا قد وقع تقسيمها في ظروف لاتزال غامضة جدا. وكان خليفة هيمْبسـال على الملك هو ابنه يوبا (الاول). ولا ندري هل كان لهذا أخوة لم يدعوا للاستفادة من تقسيم للمملكة.

أما عند الماسيسيليين فإن سيفكْس كان ملكا إبان الحرب البونيقية الثانية. واصول هذا الملك مجهولة لدينا. ومن المحتمل أن يكون قد أشرك معه ابنه ورْمينا Vermina الذي قد يكون خلفه على مملكة منتقصة جدا.

في 206 ق م كان باكـا Baga ملكا على الموريين. وكذلك كان بوكوس Bocchus في نهاية القرن الثاني وبداية الاول ق م. ولا ندري هل كان ينتميان لأسرة واحدة. كما لا ندري ما إذا كان بوكوس في حياته قد أشرك معه ابنه بوكـود Bogud. وهل خلفه هذا الاخير على الملك ؟ وفي أواسط القرن الاول ق م كان هناك مملكتان موريتان يفصل بينهما نهر ملوشا. ففي الشرق كانت مملكة بوكوس. وبالغرب كانت ممكة بوكود. ويحتمل أن هذين الاميرين كانا ينتميان لأسرة بوكوس الآخر وبوكود الأخر. ولكن لا نستطيع التاكيد على أن موريطانيا قد وقع تقسيمه كميراث بين أخوين اثنين. فنحن لا نعلم شيئا عن سبب هذا التقسيم ولا عن تاريخه.

لقد كان اوغسطس هو الذي جعل من ابن يوبا الأول ملكا على موريطانيا. ويوبا الثاني قد أشرك معه ابنه بطلمي Ptolémée الذي حكم بانفراد بعد موت أبيه. ولم يكن له خلف، لأن رومة استولت على المملكة.

هذه هي المعلومات الهزيلة التي لدينا عن تداول السلطات الملكية في الدول الأهلية. ولا يوجد أي نص يشير إلى مشاركة قانونية للرعايا في تعيين صاحب الأمر والنهي فيهم. فإذا تركنا التدخلات الرومانية جانبا، لاحظنا ان المُلك مخصوص بمجموعة من الاقربا، الأنسباء لذكور، ويتولاه العضو الاكبر سنا في المجموعة. والملوك يتركون الملك كميراث شخصي إلى أبنائهم الشرعيين الذين تكون حقوق الأقرب الآخرين خاضعة لحقوقهم، تارة فإن عدة من هولاء الأبناء يتقاسمون فيما بينهم إما المهام وإما أرض المملكة. وتارة فان ابنا واحدا يرث، ولكن النصوص لا تساعدنا على القول هل كان ذلك لانه هو الاكبر سنا و لأنه ابن وحيد. وأحيانا فان الملك يشرك معه ابنه، وهو إن لم يجعله مساويا له، فهو له زميل على الاقل، وذلك لاشك ليعلمه المهنة الملكية، وليعوّد رعاياه كذلك على طاعته. وبهذا انعدم الفراغ في السلطة و نعدم ما يجره الفراغ من فتن.

2

يحمل الملوك في اللغة الليبية لقب كلّيد Gnelld او أكلّيد Agaellid الذي احتفظت به اللهجات البربرية، والذي يقول عنه المورخ العربي ابن خلدون إنه الموازي لكلمة سلطان [13]. على أن هذا اللقب قد أطلق كذلك على بعض الرؤساء، منزلتهم أقل ارتفاعا. وكان اسم الملك في البونيقية هو ملك Melek. لكن على النقود وفي النقوش كان المستعمل بعد ذكر الملك هو لفظ ممْلكْت Mamlekt بمعنى «ملكية Royauté» او على الاصح (الشخصة الملكيّة Personne royale) وفي هذا اقتباس من فينيقيا. أما في الاغريقية واللاتانية فإن اللفظين باسيليوس Basileus وركْس Rex هما

بالضبع اللذان يستعملان في الدلالة على الملوك. واللذان يستعملهم لبربر انفسهم، بينما ريگولوس Regulus الذي عليه مسحة من التنقيص ودنَسْتس Dunastes فيستعملهما بعض الكتاب.

وقد كان الملوك على الاقل منذ سيفَكْس ومسنيسا – يعصبون رؤوسهم بعصابات. والعصابة شريط ضيق من الثوب اقتبسوه من خلفاء لإسكندر. والاسكندر نفسه اتخذه تقليدا لملوك الفُرْس. والكثير من ملوك البربر كمسنيسا ويوبا الثاني يستذكرون انتصاراتهم بتزيين رؤوسهم – كما يظهر ذلك على نقودهم بأكاليل من الغار. لان الملوك لأفرقة كانوا يقلدون الملوك الهلنسْتيين بجعل صورهم على نقودهم لتي يسكّونها. وكان الصولجان احد شعاراتهم، كما كانوا يرتدون ملابس الأرجوان عند ما يريدون الظهور بالفخامة اللائقة بمنزلتهم.

وهم منتبهون جدا لقواعد اللباقة. ولما يسميه سالُسْت باسم (الابهة لمكية Decus regium). بحيث أن ملوك نوميديا لا يسمحون بتقبيل أي و حد من رعاياهم. وهيمْبسال حينما أراد الاساءة إلى يوغرطة، فانه ذهب ليجلس على يمين اذْربعّل حتى لا يأخذ اخوه بالتبني المكان الأوسط لذي ير ه النوميديون مكان التشريف. وكاوّضا أحس إحساسا مؤلما بالاهنة لتي لحقته من القائد الروماني ميتلوس Metellus عندما لم يسمح له بالجلوس بجانبه. ويوبا الاول اراد الجلوس بجانب سيپّيون القائد الكبير للجيش وبجانب كاتون Caton فاقتعد مجلس الشرف بين الرومانيين. فكان لابد لكاتون أن يلقنه درسا. فانتقل بكرسيه إلى يمين سيپّيون.

هؤلاء الملوك كانوا يعيشون في قصور في عواصمهم، ويحيون بها في رفاهية حسب ذوقهم أو استجابة لداعي الواجب. وكان لهم بلاط وخدم كثيرون[138]. كما لهم حريم مهول، وكانوا يبنون لأنفسهم

أضرحة ضخمة جدا، وبعد موتهم وربما حتى في حياتهم كانوا ينالون تمجيد التأليه.

3

الملك يدّعي أنه يمارس السلطة المطلقة. ولكن سلطته أبعد من ان تماثل ما لملوك مصر من حكم قوي تخدمه إدارة تتدخل في كل شيء. إن مملكته خليط كبير من الرهوط الاجتماعية والسياسية، المحافظة على نظامها الخاص وعلى استقلالها. إنها هي هذه العائلات المتكونة من الانسباء الذكور، هي هذه القرى المتكونة من السكان المستقرين. وهذه التجمعات البدوية. هي هذه القبائل وهذه العشائر التي لا ترتبط منها مجموعة بمجموعة أخرى أوسع منها إلا وهي تضحي بأقل ما يمكن من استقلالها. فليس للملك إذن أن يتدخل في حياتهم الداخلية. ولا أن يحل موظفيه محل شيوخهم. ولا ليفرض هؤلاء الشيوخ طاعتهم على الناس. ولا ليستفيدوا من سلطتهم كما ارادوا. وعلى الاخص كما استطاعوا. فهذا ليس يعنيه أو على الاقل إن كل ذلك لا يعنيه إلا بمقدار ما يعرض مصالحه الجهوية للخطر. وهؤلاء الرؤساء (الشيوخ) ينتمون للمجموعات التي هم على راسها. فهناك إذن ما يدعو للاعتقاد بان الملك لا يتدخل في اختيار غير العظام منهم. اما الامراء الذين يحكمون بعض الفتن وبعض العشائر. فلابد أن الكثير منهم كانوا يتداولون السلطة على أنها مت وراثي للعائلة. ولكن هل أعطى الملك لنفسه حقا قاطعا في التنصيب؟ يسوغ هذا الافتراض، ولو أن المعلومات تعوزنا كلية في هذا المجال.

هناك كذلك المدن التي تدير شؤونها بنفسها. فبعضها منثور على الساحل، وكان أكثرها مستوطنات فينيقية او قرطاجية، وبعد وقوعها في

سـطة لملوك النوميديين والموريين، فإنها احتفظت بانظمتها البلدية لتي هي – على ما يحتمل جدا – ولاة يدعون باسم سوفيط Sufètes، ومجلس للشيوخ، ومجلس للمواطنين. والكثير من هذه المستوطنات احرزت على حق كسب قرطاجة تمنعها منه، وهو حق سك نقود لضرورات التجـرة لمحسة نكون من البرنز، وتحمل اسمها مكتوبا بالبونيقية. فعملية سك لنقود برهان على استقلال هذه لمستوطنات. وبعض النقود من لكْسوس Lixus وتِنْجي Tingi تحمل الاشارة الواضحة على أن سكّها كان على يد المواطنين، أي المدينة، إذ أن لكسوس كانت مستوطنة قديمة جدا لمدينة صُور Tyr، أما تنْجي التي جعلها الملوك الموريون عاصمتهم، فيحتمل انها لم تكن ابدا خاضعة للفينيقيين، وإنما اتخذت لغتهم ونظمهم.

اما بالداخل فإن مدنا أهلية في اصولها، كانت هي ايضا تتمتع بنظام بلدي. وقد سمح للبعض منها بسك عملة من البرنز، وهذا أمر لا شك فيه بالنسبة لمدينة سرْتا Cirta (قسنطينة)، ومحتمل بالنسبة لمدينة تكور Thagura (بشرق القطر الجزائري). ومثل ذلك نقود اخرى، يبدو انها تنتمي لمدن نوميدية ولكن لم يستطع أحد حتى الآن تصنيفها تصنيفا مرضيا. اما عن قانون هذه المدن، فإن معرفتنا به سيئة للغاية. فمدينة فاكا Vaga (باجة) كان لها في نهاية القرن الثاني مجلس لشيوخ، وكذلك ولاة Magistrats لاشك. كما ان بعض النصوص الغامضة تمكن من الافتراض بان ولاة كانوا يحكمون سرْتا وتوفسْت Theveste (تيفاشة) منذ القرن الثالث ق.م.

وكون هذا القانون قد أمكن اقتباسه من أنظمة المستوطنات الفينيقية على سواحل نوميديا وموريطانيا، فذلك افتراض مقبول حد .

لان المدن التي تستعمل اللغة البونيقية على نقودها، والتي تحمل أحيانا سما بونيقيا، لابد أن تتخذ برضاها النظام البلدي القرطاجي. ولقب سوفيط Sufète (سبط) دخل إلى لغة الأهالي، كما يشهد بذلك نقش باللغتين من دُقَة Dougga حيث يُقرأ في النص الليبي كما يقرأ في النص البونيقي. وهو في هذا النقش يطلق على شخص عاش في القرن الثالث، هو زِلْلسان Zilalsan جد مسنيسا وأبو الملك گايا. وفوق ذلك، فهناك شك كبير في أن اللقب يعني هنا مجرد وال للمدينة. ولكن الأسفيط Sufètes أي الولاة المحليين كانوا بوليلي Volubilis في قلب موريطانيا الغربية، وذلك قبل أن يطبق بها الاحتلال الروماني نظام الجماعة المساهمة Municipe[139] ويظهر كذلك أن نقشا بونيقيا من سِرْتا يذكر واحدا من السوفيط. أما في عهد الامبراطورية فإن نقوشا لاتينية ونيوبونيقية تعرفنا بوجود الاسافيط في عدة مدن نوميدية مثل توگة Thugga، ومكْتَريس Mactaris وليميسا Lamisa، وأَلْثِبوروس Althiburos، ومسْكُولا Masculula، وكبْسا Capsa، وكلاما Calama، وربما في مكان يقع جنوب كلاما. ويمكن الاعتقاد ولكن دون تأكيد أن خطة السوفيط قد وجدت في هاتين المدينتين منذ عهد الاستقلال.

ومع ذلك فيجب ان لا ننسى أن بعض القرى البربرية قد عرفت منذ عهد باكر تنظيما مماثلا إلى حد ما، ولكنه مستعار من انظمة المدن البونيقية. وعندما تحولت بعض هذه الجماعات وصارت مدنا، فيحتمل انها لم تتخل عن أنظمتها الأولية لتحتذي الأمثلة الأجنبية. ومن المحتمل أيضا أن بعض التقاليد العتيقة قد اختلطت هنا وهناك بتقاليد أخرى مستعارة. وليس لدينا وثائق تفيدنا عن هذا بدقة.

ن نقش دُقّة Dougga ذا اللغتين الذي ذكرناه من قبل هو نقيشة تكريس بتاريخ 139ق م، انجزها «مواطنو تُكّة Thugga». والنقيشة تذكر بعض الرتب او الوظائف التي لابد انها ترجع إلى المدينة. والتي يوجد الكثير منها مذكورا في نقائش ليبية من نفس المكان. ولكن البعض منه يفسر تفسيرا غير صحيح بينما بعضها الآخر غامض تماما. فهناك مت (هـ . اللقب هو نفس لقب ملوك نوميديا، أي مملكتُ Mamleket في البونيقية. وكلّيدات Guellidat في الليبية) وهو الحاكم المفرد والسنوي. ولم يرد بها ذكر للأسافيط البلديين، مع العلم انهم قد وجدوا بعد ذلك بمدينة تُكّة (دُقّة) في العهد الإمبراطوري الروماني. وهما اثنان من «روس . المائة» يقومان معا بهذه الرتبة التي ربما ترجع إلى أصل فينيقي لان نفس اللقب يوجد بصور. فهل هما رئيسان لمجلس شيوخ لمدينة ، وهناك وظائف اخرى لكل منها شخص واحد يقوم بها (على لاقل حسب ما يرد بالنقيشة). وهي مذكورة بالفاظ ليبية حتى في النص لبونيقي. ولهذا فلابد أن لها اصلا اهليا. (بل لا يدرى حتى كيف كان لنطق بهذه الالفاظ لان الحركات غير مكتوبة فيها)، وهي كما يلي Gldgyml. Gzby. Mççkwy. وهذا الأخير اسم مركب أوله كـيد Guellid (أي ملك، رئيس). ومن العبث القيام بتخمينات في موضوع هذه الالقاب. ولا نعلم كذلك شيئا عمن هو «عميد الخمسين» المذكور في آخر القائمة Prefet des Cinquante. وكان الذي يتولى هذه لوظيفة ابنا لملك، أي إنه ابن لوال أعلى بالمدينة. ونستطيع ان نفترض بشأنه عدة افتراضات ونتساءل الم يكن رئيسا لإحدى هيئات الشرطة؟

وفي سرتا، فان عدة من التكريسات Dédicaces البونيقية أنجزتها شخصيات ذكرت فيها سنوات حكمها (بحيث نجد الأرقام 5، 44 و50). ومن المستبعد أن هذه الرتبة – وهي لطول الحياة لاشك – يمكن

مقارنتهما «بالملكية» السنوية التي بثُكّة، كما ليس مؤكدا أنها وقعت مزاولتها بسرِتا نفسها. ولقد أشرنا إلى إمكان ذكر السوفيط في نقيشة بونيقية كشف عنها التراب في قسنطينة. كما ان نقودا بلدية بكتابات بونيقية نقرأ عليها اسما علماً، يبدو أنه اسم الحاكم الاعلى. أما الكتّاب الذين تعرّفنا بهم النقوش البونيقية، فلعلهم كانوا إما في خدمة الجماعة، أو في خدمة ملك نوميديا المقيم في سرتا.

وفي مكان آخر وُجدت نصوص نيوبونيقية (عثر عليها في هنشير المدينة) يرجع تاريخها للعهد الامبراطوري وهي تذكر المزْراح Mizrah أي الهيأة النظامية Corps Constitue التي ربما هي مجلس المدينة، كما تذكر رئيسها. وهناك ما يدعو إلى الافتراض بان ذلك ميراث من العهد النوميدي. وهناك بعض الألفاظ المقترنة بأسماء بعض الاشخاص على نقوش بونيقية ولبيبة، لعلّها كانت أسماء لوظائف بلدية، غير أن التأويلات الاخرى بشانها (بانها أسماء للحرف أو رتب كهنوتية) ليست واهية جدا.

وأيا ما كانت دساتير هذه المدن البونيقية أو الأهلية، فانها تمتعت على ما يبدو بحكم ذاتي واسع على غرار القبائل في ذلك. بحيث أننا لا نشاهد بها حضور الممثلين الدائمين للسلطة الملكية، المكلفين بحكمهم مباشرة أو المنضافين فوق الحكام المحليين.

ولاشك ان هذه المدن كانت على غرار المدن الفينيقية والاغريقية واللاتانية، تتصرف خارج اسوارها في منطقة ترابية تتسع أو تضيق. ويبدو أن منطقة سرِتا كانت شاسعة. والقرى التي بهذه المناطق الترابية، لابد أن رؤساءها جميعا كانوا طبعا تابعين لرؤساء المدن.

4

هذه المجموعات من البدو الرحّل، ومن المزارعين المستقرين، ومن أهل المدن كانت تبدو حريصة على الحفاظ على استقلالها. وكان يفرق بينها حوال من الحسد، وحزازات قديمة تغذيها خصومات تتجدد دائما. ن لهم وطنا صغيرا ذا أفق ضيق، فهم لا يرون لهم وطنا كبيرا في هذه الدولة التي ينتمون لها بإكراه لا عن رضى، هذه الدولة التي كثيرا ما تتغير حدودها، وتشمل عدة مناطق متناثرة وسيئة الاتصال فيما بينها وتنفصم روح الطاعة والتقاليد المشتركة التي تطيل حياة الامم المتعددة وتعدد اللهجات يعرقل العلاقات. ولا يبدو أن المعتقدات الدينية قبل نتشار الإسلام قد انشأت بعض الروابط. فاليونانيون والغاليون كانوا برغم جميع اختلافاتهم يشعرون بانهم اخوة، وليس الامر كذلك بالنسبة للأهالي الافارقة.

انهم بصفة خاصة لا يشعرون بأية رغبة للالتفاف حول سيد. يكون مرغما للحفاظ على سلطته بان يلزمهم القيام ببعض التضحيات. فتيت ليف Tite-Live – اي پوليب Polybe الذي ينقل عنه تيت ليف قد لاحظ كرههم للملكية[...]، وبعد ذلك افتخر البربر بانهم يلجمون ملوكهم كما يلجمون خيولهم. إن مزاجهم فوضى. وكأنما هم مصابون بمرض الحاجة إلى فتن لا تؤدي إلى نتيجة، او لا تساوي المجهودات التي بذلت. وفي التاريخ القديم قدموا لنا في الصورة التي هم عليها دائما. فهم جزوعون، متقلبون، لجوجون ومتسارعون إلى الغضب والفتنة.

ما القبائل التي تعيش بالجبال في مأمن من الرحّل، فانها هنالك أيضا في مأمن من الملك الذي لا ضرورة تدعو لحمايته. وعاصبات الفرسان الناهبين التي تنتشر بالسهول بغتة، تنسحب بنفس السرعة

التي جاءت بها قبل توفر الوقت لمتابعتها. وبالنسبة لكبار لرحّل، أي لجيتوليين الذين يغادرون البراري قاصدين التل في نهاية الربيع، فإنهم اقل خفة لانهم يسوقون معهم عائلاتهم وقطعانهم. غير أنهم، لضرورة الرعي أو حبًا في النهب يفضلون أن يسيئوا إلى الضيافة التي يتلونه. وبعيدا إلى الجنوب لهم أماكن يخفون فيها سرقاتهم، ويصعب لوصول إليها واقتحامها. والتصرف بالفلاحين أهون. لكن لابد مع ذلك أن تخشى منهم الاضطرابات، خصوصا في اشهر الصيف حيث تحمي الشمس الرؤوس، وحيث تجمع المحاصيل فيكون الفراغ اسوأ ناصح، وحيث لملك يطالب بنصيبه من الحصاد الجديد. وبكل الجهات، فإن المدن والقرى والمأوي لها تحصينات طبيعية أو مصنوعة بيد الإنسان، مما يساعد على طول المقاومة في هذه الحقب، وهذه الاراضي التي يكون فيها القائمون بالحصار غالبا ما تعوزهم وسائل المباغتة بالهجوم.

فكم من رئيس قبيلة او عشيرة ينافس الملك ويطمح للحلول محله! وفي العائلة المالكة، بل في القصر نفسه، فإن من الامراء من يفكر إلا ان يسلب بالثورة او بالاغتيال السلطة من الشخص الذي يزاولها. إن لخيانة تحيط به وتجعله في حسرة دائمة. وعند وفاته فإن النظام لمحكم في التولية، أو القرارات التي اتخذها لا تطبق دائما، فتنطلق المنافسات وتندلع الحروب.

والحروب بين الدول المتجاورة كثيرا ما تقع، وسببها غزوات لا تلبث ان تتبعها غزوات انتقام، أو سببها العمل لتتراجع الحدود التي لم يحسن تخطيطها، وربما بسبب دسائس بعض الثوار الذين يبحثون عن سند من الخارج، واحيانا بسبب استحالة المحافظة على لحياد في الحروب التي تشنها قرطاجة أو رومة على بعض الملوك الاهالي، او

بسبب الطمع في الاستفادة الواسعة من غنيمة الانتصار. اما في اقصى الجنوب، فيما وراء الجيتوليين الذين يثورون اكثر مما يستسلمون. فلا نعلم شيئا عن الخصومات التي تسبب الطمع في الاستفادة الواسعة من غنيمة الانتصار. أما في أقصى الجنوب. فيما وراء الجيتوليين الذين يعتدون اكثر مما يستسلمون، فلا نعلم شيئا عن الخصومات التي تسبب بعث التجريدات العسكرية حتى على أرض الاثيوبيين.

مهمة الملك إذن صعبة. فالتهديدات والعراقل تواجهه من كل جهة. ومع ذلك فالملكية تبقى. لأن الذين بيدهم هذا النوع من الملكية العائلية، يشعرون بكبرياء منزلتهم الرفيعة. ولهم العزم على التمتع بنفوذهم وبالمنافع المادية المخولة لهم. وفي العادة لهم كذلك القسوة الشديدة التي لا تأنف من التعذيب والتقتيل. والتي تجعل من الرعب أداة للحكم.

وهم في حاجة إلى الموارد المالية العظيمة. ليس للانفاق على حياتهم المترفة فحسب، بل كذلك لأداء ثمن المساعدات التي تمكنهم من ان يبقوا صامدين وتمكنهم من جمع هذه الموارد نفسها.

وأفضل المؤدين لهم هم الحضريون والسكان المستقرون بالسهول. الذين تشملهم سيطرتهم من غير تعب كبير. والذين يمكنهم العيش في رفاهية بتعاطي التجارة وفلاحة الأرض. فللملك مصلحة كبيرة في نمو الفلاحة التي نبسط يده على رعاياه، ففي استثمارهم فائدته. ومصلحته تفرض عليه أن يضمن لهم حياة مطمئنة. فيجب منعهم من أن يتناحروا فيما بينهم، كما يجب على الخصوص حمايتهم من نهب وعنف الرحل. ويجب مراقبة هؤلاء الآخرين في تنقلاتهم، ومعاقبتهم على تعديهم. على أن الرحل يمكن الحصول منهم على بعض المداخيل، وذلك بفرض بعض الضرائب على قطعانهم التي ينتجعون بها. فضرورة سوق

ماشيتهم إلى التل تدعوهم لان يبدوا بعض التساهل عندما لا يشعرون نهد هم الأقوى. أما القبائل المقيمة في المناطق التي يصعب الوصول إليها، فالملك يمنعها من حمل الاضطراب إلى خارج أراضيه. ومن دون أن يقتحم أرضها فانه يدفعها إلى ارادة العيش معه في سلام، وذلك بتهديدها بان يغلق الاسواق التي تاتي إليها للبيع والشر...، ولكنه لن يحاول إخضاع هذه القبائل ولا فرض الاتاوات عليها إلا اذ تاكد لديه أن في المشقة نفعا.

ومن مصلحة الملك كذلك تنمية العلاقات التجارية وضمان سلامتها، لانه سيتقاضى الضرائب على المبيعات ويحصل على واجبات الجمارك والمكوس. وحيث ان جل الضرائب لا تؤدى له نقدا، فيجب دون شك ان يكون هو نفسه تاجرا، كي ينال من الأجنبي العملة التي هو في حاجة إليها، وذلك ببيع المنتجات التي يدفعها له رعاياه عينا. وفوق هذا يجب عليه العمل لاقتناء املاك عقارية شاسعة يخص نفسه من غلاتها بنصيب أكبر من غيرها التي إنما يتقاضى منها الضريبة باعتباره ملكا.

فنحن نرى أن إرادة الحفاظ على سلطته ضد النوازع الفوضوية لشعبه تفرض عليه واجبات ثقيلة. لا سيما وأن كل شيء - بالفعل او تقريبا - يعتمد على شخصه، وعلى ذكائه، وعلى نشاطه وحيويته. فإذا كانت سنه - اي شبابه الغض او شيخوخته الواهية - و إذا كان وهن جسمه او ضعف مكانته يمنعه من أداء مهمته، فقد يحدث ان احد أقربائه، بل يحدث أن بعض خدمه يزاولون السلطة فعليا من وراء ظهره. ولكن تعوزهم الهيبة، وهي عنصر هام في الملكية، كما ان الاغراء قوي لدى هؤلاء الرجال ليقدموا مصالحهم على مصالح صاحب السيادة الاسمية الذي لا يقدر على حماية مصالحه. وهكذا يسرع التفكك إلى الدولة لانها غير مدعمة ببنية إدارية.

من الأكيد أن الملك لا يستغني عن المنفذين لتسيير الشؤون. مثل السكرتارين والمحاسبين والخزنة وأمناء المال والقيمين على البريد. ولكن ليس هناك ما يدل على أن هيأة للموظفين كان لها وجود منظم. وسواء كان هؤلاء المنفذون احرارا أو عبيدا فانهم في خدمة الملك شخصيا إذ تختلط مصالح القصر ومصالح الدولة.

وكذلك فمن المشكوك فيه جدا أن الملك كان يساعده وزراء حقيقيون، أي موظفون علاة لهم اختصاصات محددة. فليس بجانبه سوى رجال يهبهم ثقته أو ينتزعها منهم متى شاء. فهو يحملهم أعباء إما في قضية خاصة عرضت ويجب حلها. وإما في مجموعة من القضايا المترابطة. التي هي في دولة محكمة النظام ترجع إلى نظر مصلحة وزارية دائمة. وأفراد اسرته المقربون. وعلى الخصوص منهم ابناؤه هم الذين يستخدمهم في هذا، كان يتسلموا منه مهمات دبلوماسية، وقيادات عسكرية في افريقيا احيانا او على راس الجيوش التي يجعلها تارة أخرى رهن اشارة حلفائه. وللملك ايضا «اصدقاء»، وهو لفظ كثير ما يستعمله الكتاب الاغريق واللاتينيون. واذا لم يكن هؤلاء الاصدقاء من اسرته، فلربما انهم على الخصوص من رؤساء القبائل الكبرى وشيوخ العشائر الذين يأتون البلاط ليقضوا به مدة تطول او تقصر. فيستشيرهم الملك في القضايا الخطيرة، ويكلفهم بمهمات رسمية او سرية ويسند لهم القيادات في جيش يقوده هو نفسه، او في العمليات التي يتخلى لهم عن تسييرها. وأحيانا يتخلى لهم عن قسم ضئيل أو كبير من الإدارة. فينتهزونها فرصة للزيادة في ثرواتهم. ولكن هذه ليست وظائف عمومية على وجه التحقيق. وانما هي توكيلات يسمح بها الملك حسب هواه. ويمكن أن يلغيها متى شاء. وتصبح هي من ذات نفسها ملغاة إذا توفي الملك. فيصح إذن القول بان حكم الدولة بتمامه ملك له. وذلك طبعا

في الحدود التي يريد ويستطيع مزاولة الحكم فيها، أي من فوق المجموعات المستقبلة لا داخلها.

5

هذا الحكم يعتمد على القوة بالخصوص، وإن كانت له وسائل خرى للعمل. فالملك يحتاط من الخيانات ومن الفتن الممكنة التي يثيرها الرؤساء الكبار. وذلك بأن يحتجز الرهائن احتجاز ذا مظهر مشرف. ويختار إحدى بناتهم زوجة له - لأن نظام تعدد الزوجات يعطيه في هذا المجال كامل الحرية - كما أنه يقرب إليه أبناءهم ويدخلهم ضمن حرسه الملكي.

وكما سيفعل الأتراك وسلاطين المغرب بعد ذلك، فإنه يستعمل طريقة «فرّق تسُد». ويجتهد ليكون على علم بما يجري. فيستغل شكوك وأحقاد الأقرباء فيما بينهم داخل أسرهم، وشكوك وأحقاد الأسر داخل القبائل والمدن. ويضمن لنفسه الطاعة بما يثيره ويتعهده من الخوف لدى الخصوم. وينعم بالتعاقب او في آن واحد على مختلف التكتلات، اي على هذه الصفوف Çofs (الأحلاف) التي لابد انها كانت تعم المجتمع البربري. وهو يواجه قبيلة بقبيلة ويعارض رئيسا برئيس. ويجعل على رقابة المشكوك فيهم من يبدون أكثر استعداد للبقاء على وفائهم. وإذا استحقت إحدى القبائل عقابا فيفضل هو أن لا يقوم به. فإنه يعطيها لبعض الجيران او للرحل النهّاب (ليأكلوها). وإذا صارت قبيلة أخرى قوية جدا، فانه لا يجد عناء كبيرا في تجزئتها باثارة المنافسات في العائلة المسيرة. وبالطبع فإن هذه السياسة لا تساعد على تولد شعور واسع بالوطنية عند رعايا الملك، وإنما تبقى على الأقل

من الاتفاق الوحيد الذي يبدو ان الرعايا قادرون عليه، وهو الثورة الجماعية ضد حاكمهم.

غير أن الملك رجل حرب أكثر مما هو رجل دبلوماسية. وهو لا يطاع إلا بقدر ما يحس الناس بقوة قبضته أو بخطر ساعده.

ومعلوماتنا سيئة جدا عن كيفية استعماله للشرطة في مناطق حكمه. ولا نستطيع القول مثلا هل كان يقيم الحاميات الدائمة في هذه المدن بالساحل وبالداخل. إننا لا نعرف ذلك إلا في إبان الحرب. وحينئذ فمهمة الحاميات هي الدفاع عن المدن ضد العدو، وليست إرغاما على أن تبقى وفية للملك.

كانت الجيوش تقيم في كل حين ببعض الأماكن كالمدن او مجرد الحصون ذات المواقع السراتيجية مثل القصبات التي بناها الاتراك بالجزائر، والتي بنتها بالمغرب الأسرة الحاكمة الحالية. ومن هذه الاماكن كانت تقبض على الأراضي المحيطة بها، وتضمن المواصلات بقدر الاستطاعة، وتراقب الجبليين عن بعد، كما تراقب وتمنع عند الحاجة الرحل من المرور. ونظرا لكون هذه الحصون أقيمت في أحسن الاوضاع المناسبة للدفاع، ولكونها زودت بأسوار قوية حيثما كانت الطبيعة لم تقم فيها الموانع الكافية للهجمات، فإنها كانت عند حدوث فتنة أو حرب تستخدم كمواقع امان، ونقط ارتكاز للجيوش المحاربة، ومراكز للتموين بفضل المون التي وقع الاهتمام بادخارها فيها. وهكذا كانت على ما يحتمل هذه القصور الملكية. هذه القلاع الملكية التي تذكرها نصوص في رواياتها عن بعض الحروب أي حصونا جاثمة بأماكن وعرة، كدست بها مدخرات كبيرة من القمح، واختزنت فيها كذلك مقادير كثيرة من الاموال.

ولم تكن هذه الحاميات تقوم بصدّ جميع الاخطار التي تهدد الأمن. فالملك لابد أن تكون تحت يده جيوش لحماية ذاته من هجوم مفاجئ، وللقيام بالحملات الضرورية للقضاء السريع على إحدى الفتن التي يجب منعها من الانتشار، وللانطلاق بالخيول في سرعة لوضع حد لإحدى هجمات الرحّل، ثم محاولة استرجاع الغنائم من أيدي هؤلاء النهب الفارين، وللطواف على القبائل التي تتمنع من اداء الضريبة، ولإنزال عقاب تتفاوت قسوته بالعصاة والفتّانين ومعكّري الأمن الذين يحسن أن يعاملوا حسب مقتضى الاحوال والمستطاع. ولذلك هم يُسلبون من أبد[illegible] او يسحقون بالغرامات أو يُجرّدون من أملاكهم وأراضيهم ويرحلون إلى بعيد، أو يُحوّلون إلى عبيد او يقضى عليهم بالتقتيل.

إن أعمال الأمن، هذه التي يجب القيام بها على جناح السرعة، وفي مناطق غالبا ما تكون بعيدة عن الامكنة التي تقيم بها الجيوش، تتطلب على الخصوص قوات سريعة جدا من المشاة والخيالة الخفيفة التي تمر بكل مكان ولا ترتبك بثقل الأمتعة.

غير ان الملوك يكون لهم أيضا، من وقت لآخر، حروب يخوضونها إما ضد ملوك اخرين واما ضد أعداء أكثر شدة كالقرطاجيين أو الرومانيين. فيلزمهم والحالة هذه ان يحشروا أكبر عدد من الرجال، وأن يستعملوا في الحرب وسائل اقل بداءة من تلك التي يمكن أن تكفيهم ضد لصوصية الجيتوليين أو هياج الفلاحين.

لهذا فجيشهم يتكون من طائفتين. فمن جهة، هناك مجموعة من الجيوش الدائمة التي تكون لهم حرسهم، وربما تكون أيضا الحاميات في امكنة مختلفة، وتقوم بمهمة الشرطة في المملكة، وتقدم لاشك المساعدين الذين يجعلهم الملك في خدمة روما عندما تطلب هذه منه مساعدته. وهذه

لمجموعة في وقت الحرب، هي النواة القوية التي تدعم جموع الحاملين للسلاح، وهي جيش الاحتياط في ميدان المعركة. هذا من جهة، وهناك من جهة اخرى كتلة من المجندين الذين يُدعون إذا أعلنت الحرب ويسرَحون عندما تنتهي الحرب أو تتوقف.

والتاريخ الحديث لبلاد البربر يمكن أن يسوغ لنا تقديم افتراض عن الطريقة التي كان يقع بها حشر الجيوش في العهد الذي ندرسه. فلابد أن الجيوش كانت اولا تقدمها القبيلة التي تنتمي إليها العائلة لمالكة و لتي كوَنت الدولة معها. غير ان هذه القبيلة سريعا ما يصيبه الوهن ولابد من قبائل أخرى تقويها أو تحل محلها. وإذا دعت الضرورة، فان الملك ينقلها لتكون تحت يده في الامكنة التي يقيم بها، حتى في قلب الجهات التي ستقوم فيها بحفظ الامن. وكانما هي تكون طبقة عسكرية فتتمتع ببعض الامتيازات وعلى الخصوص منها الاعفاء من اداء الضرائب، لكن رجالها القادرين - كليا أو جزئيا – ملزمون بالخدمة. وفوق هذا فيحتمل انهم يتقاضون جراية مالية، كما انهم غالب ما يجدون فرصا للربح في الحملات التي يبعثون فيها.

هذه الجيوش النظامية مقسمة إلى جحافل Corps، إمْرتها مسندة إلى ضباط. وهي مزوَدة بالاشعرة، وقادرة على اتباع النظام. ولها خبرة بالحرب. وغالبا ما يكون عتادها اقوى، وتكون احسن تجهيزا باسلحة الهجوم والدفاع من غالبية الاهالي. وكان يوبا الاول قد كوَن الفيالق Légions التي كانت لا شك فيالق ثقيلة من المشاة حسب المثال الروماني. أما خيول فُرسانه النظاميين فكان لها شكائم. وجيوشه لخفيفة، لم يكن فيها فحسب الرجال حملة الرماح، التي هي السلاح الوطني للبربر، بل أحيانا يكون فيها أيضا المحاربون بالقسي والمقاليع. وهولاء يمكنهم النيل من العدو عن بعد. وبعض القادة يتخذون

لسلاح الروماني والإغريقي. ولم تكن فرق النخبة تانف الرفاهية، بحيث إن الجيتوليين بالحرس الملكي كانوا يأخذون معهم الخدم.

هذا الجيش الدائم، كانت الخيالة فيه هي التي تقوم بالدور الاهم إذ غالبا ما كان لابد – كما سبق أن قلنا – من الذهاب بعيدا وسريعا وفوق هذ . فالبلاد تغص بالخيول الممتازة، كما أن الأفارقة، وعلى الخصوص منهم النوميديون، مشهورون بالفروسية.

ولكن جيوش المشاة لم تكن منعدمة الوجود. فهناك رواية وإن كنا نعترف بأنها مشكوك فيها جدا تصور لنا سيفكس يعمل لتكوين جيش نظامي للمشاة بمساعدة مدربين رومانيين [141]. وإذا كانت تعوزنا لمعلومات عن مسينيسا وعمن تولى بعده. فإننا نعرف فيالق يوب الاول.

إن الملوك الذين تولوا الحكم في بلاد البربر الإسلامية غالب ما استخدموا بعض الميليشيات التي كانت أصول جنودها أجنبية. من مسيحيين ومرتدين عن المسيحية آتين من أوربا واسبانيا على الخصوص، وزنوج السودان ومن الترك والاكراد وغيرهم. وقد كانوا على لعموم من أحسن الجنود. شريطة أن يؤدى لهم المال عن سعة أو يؤذن لهم في النهب. ولعدم وجود أي رابط يربطهم بالبلاد، فليس لهم أية مصلحة في الإبقاء على القبائل الأهلية التي يؤمرون بمحاربتها. ولكن كان يسهل عليهم الفوضى والمشاركة بمقابل في الفتن التي تحدث داخل لقصور. وكذلك كان لافريقيا البربرية حرسها الزيادي Praetorianus [142] وفي التاريخ القديم نعثر على إشارات بوجود بعض الأجانب في خدمة الملوك النوميدين. ففي عهد يوغرطة نجد الجنود الفارين إليه من لجيش الروماني وهم فرقة من الليكوريين Ligures وكوكبتان من لتراقيين Thraces وهناك غير هؤلاء. وحيث أنه لا شك في العقاب الذي ينتظرهم إذا وقعوا في أيدي من خانوا، فالمؤكد أنهم جنود

مسعدون يصح الاعتماد عليهم. وقد كان ليوبا الأول 2000 فارس إسباني وغالي، وهم مرتزقة لاشك، ولا ندري كيف دخلوا في خدمته، وقد جعلهم حرسه الشخصي.

وهؤلاء الناس القادمون مما وراء البحار كانوا مرتبطين كثيرة بالمول الذين يستخدمونهم. لكن لم يكن الأمر كذلك بالنسبة لسيتيوس Sittius الذي عاش بافريقيا من 64 إلى 47 ق م، وكان على رأس عصابات متكونة من الايطاليين والإسبانيين. ويبيع خدماته لهذا الملك تارة وللملك الآخر تارة أخرى. فهو قائد للمرتزقة. وكان على ما يبدو بعد ...بر م الاتفاق، يسيّر العمليات حسب رأيه، غير أن هذا الأمر استثنائي. لأننا لا نعرف له ولو مثالا لاثانيا واحدا.

في إبان الحرب كانت الجيوش النظامية يضاف إليها وحدات تقدمها القبائل. وهم الذين يسمون في الجزائر باسم الكوم Goums [143] ولاشك ان الأمر بالدعوة للجيش كان يُعطي لروساء هذه القبائل. وهم لذين كانوا يأتون برجالهم ويقودونهم في المعارك. وكانت الدعوة توجه حسب الاحتياج إلى جميع المملكة او الى بعضها، الى الرجال الذين هم في عنفوان قوتهم او إلى جميع الرجال الذين ليسوا عاجزين عن خوض المعركة. فبهذا يمكن تكوين عدة جيوش بحيث نزيد عدتها بقدر ما تساعد عليه الموارد الموجودة لضمان طعامهم البسيط. ونجد عند الكتاب القدماء ارقاما باعداد هذه الجيوش، وهي أرقام لا يجب لاطمئنان إليها. ومع ذلك فلا يبعد عن الصواب أن بعض الحروب قد حشد لها خمسون ألف جندي أو أكثر[144].

ولم تكن مخازن السلاح ولا مرابط الخيول مليئة بما يكفي لتجهيز هذه الحشود، فكان الفُرسان والرجّالة يأتون بأسلحتهم التي يمكونه

من رماح وسكاكسن وتروس صغيرة، ويأتي الفرسان على خيولهم التي ليس لها شكائم.

لقد كان هؤلاء الجنود الظرفيون يتحلون بمزايا جنسهم، من قناعة ومكابدة وخفة وجرأة حين يدعو الأمر. غير أن سلاحهم بسيط جدا، ويعوزهم الانضباط والترابط، لذلك فهم في المعركة لا يخيفون الخصوم ذوي السلاح القوي، الذين لا يضطربون امام هجماتهم الصاخبة، و لذين يعرفون كيف يحافظون على تنظيمهم. وتربيتهم العسكرية أمر عسير، إذ يضيق عنها الوقت على العموم. لانهم إذا لم يبقهم امل الحصول على لغنيمة، فإنهم يودون بالحاح العودة الى بيوتهم. وبمجرد ما تتاح لهم لفرصة، فإنهم يفرون، خصوصا اثناء الاضطراب الذي يعقب معركة خاسرة، وفي وقت رمي البذور وعند الحصاد يستحيل بقاء الفلاحين. أما في الخريف فالرحل الذين كانوا قد قدموا بقطعانهم للاصطياف بالتل، فإنهم يريدون الرجوع بالقطعان للسهوب.

على ان الملوك يجتهدون مع ذلك في تقليد بعض الاساليب لحربية التي تستعملها الامم المتحضرة. اذ عوضا من ان يكتفو بمجرد لحصار، فإنهم يستعملون أحيانا معدات الحصار لاقتحام المو قع. وفي معارك السهول يستخدمون الفيلة، على غرار القرطاجيين. وقد نال مسنيسا من روما في نهاية الحرب البونيقية الثانية قسما من لفيلة لتي كانت على ملك قرطاجة. وبعده حافظ ملوك نوميديا وموريطانيا على ما ورثوه من هذه الحيوانات، أو أمروا بصيدها في الغابة للحصول على اخرى من جديد. وقد جعلوا بعضا منها رهن اشارة الجيوش لرومانية لمحاربة في المشرق وفي أسبانيا وغالية، ويصحبون معهم عددا كبير منها في حروبهم الإفريقية. وكان ليوغرطة منها 44 فيلا في معركة مونول Muthul، وفي هذه المعركة قتل فيها جميع فيلته أو اسرت، ومع ذلك بقي

له غيرها. وكان صهره بوكوس يملك منها 60 على الاقل. وفي معركة ثَبسوس Thapsus استولى قيصر على 64 فيلا من فيلة يوبا الأول. وفي هذا اليوم اتضحت بالبرهان الاخطار التي يمكن أن توقعها هذه الحيوانات المساعدة بمن يستخدمونها. فكما في بعض الأحوال الاخرى، أصيبت بالذعر وتحولت إلى حالة من الاهتياج، فاستدارت ضد جيشه نفسه واحدثت فيه الاختلال. ومع ذلك فإن المتاخرين من ملوك موريطانيا، وهم بوكوس الصغير ويوبا الثاني وبطليموس قد كانوا على ما يظهر يملكون فيلة حربية. وكان المعتاد عند القرطاجيين أن هذه الفيلة لا تحمل سوى سائس Cornac واحد ليوجهها، بحيث كانت هي وحدها المكلفة بمهمة إيقاع اكثر ما يمكن من الضرر بالعدو. اما عدة تحميها بروجا فيها محاربون، فهي اكثر استعمالا عند الملوك الأهلي.

وهؤلاء الأمراء قد كانت لهم بحرية. ولو أنها لم تكن على وجه الحقيقة بحرية مهمة. فالشهادات المتعلقة بها ضئيلة العدد وغامضة. ولعلها كانت تستعمل على الخصوص لردع القرصنة. وهذا ما لم تكن هي تتعاطاه، الامر الذي لنا عليه مثال شاهد من عهد مسنيسا.

6

ان اهم ما كان يشغل بال الملوك هو الحصول على الموارد المالية. ولم تكن ثقل الضرائب ينزل بالتساوي على سكان الدولة. بحيث كانت الضرائب منتظمة بالمدن وبالارياف غير الحصينة، وفي غيرها كانت محلا للتغييرات التي تخضع لقوة الاكراه التي يستطيع الملك استعمالها. فبعض المجموعات معفاة منها لمدة أو بصفة نهائية، وبعض المدن تنال هذا الامتياز، ويحتمل أيضا ان بعض القبائل التي عليها و حبت

عسكرية خاصة، أو التي لا يطلب منها شيء إذ لا يستطاع الحصول منها على شيء.

والضرائب على ما تنتجه الأرض تؤدى عينا لاشك، الأمر الذي يلائم المودين كثيرا. وهذا ما يفسر المقادير الكبيرة من القمح والشعير التي هي في حوزة الملوك، والتي يدفعونها للرومانيين أو يكدسونها في مخازن. ويخبرنا بلوتارك Plutarque أن قيصر بعدما حول مملكة يوبا الأول إلى ولاية، أبدى اغتباطه أمام الشعب الروماني بأنه أعطى لجمهورية أرضا تحصل منها سنويا على 1200000 بواصو من القمح (أي 105000 هكتولتر). فيمكن الافتراض أن هذا أو ما يقاربه هو مقدار القمح الذي كان يناله يوبا من الضريبة العينية في القسم من اراضيه الذي صار «أفريقيا الجديدة» Africa Nova. فهل كان ذلك في عهد الملوك دخلا سنويا، هو نفسه كل سنة ؟ هل كان على النقيض من ذلك حصة نسبية تؤخذ من المحصول ؟ اي نصيبا حدد في عشر الانتاج، او حدد في مقدار آخر كالخمس او الربع مثلا ؟ إننا نجهل ذلك كله. ففي الافتراض الاول نكون على صواب في الاعتقاد بأن الضريبة لم تكن فادحة نظرا لانها لا تتغير. وفي الحالة الاخرى اذا كانت المحاصيل سيئة فانه لا يترك شيئا للمزارعين أو يكاد لا يترك شيئا.

وكانت هناك لاشك الضرائب على الماشية، التي هي دائما أهم ثروة عند الأهالي. ونحن نقرأ في سترابون[118]، ان الملوك كانوا يأمرون بالقيام باحصاء المهار كل سنة. فهذه العملية يمكن أن تزودهم بمعلومات نافعة في الناحية العسكرية، ولكن لابد أنها كانت ذات طابع مالي على الخصوص. وعلى غرار ما كان معمولا به في عهد السيطرة التركية على الجزائر، فإن الضريبة لم تكن تجبى ماليا، وانما تؤدى عينا، مثلاً ثور واحد عن ثلاثين ثورا، وكبش واحد عن مائة كبش. أما

الخيول فلعلها كانت منها مورد لتزويد الإسطبلات الملكية. غير أن هذه الطريقة في الأداء إذا كانت مقبولة في تسديد ما يجب على مجموعة من لرعاة لمتضامنين فيما بينهم، أو على مربٍ كبير للماشية، فان الجابي لا يمكنه تطبيقها على من كانوا لا يملكون شخصيا سوى عدد ضئيل من رؤوس الماشية.

وفي المدن كانت الضرائب تودى ماليا. ويمكن الافتراض بأنها كانت على الخصوص عبارة عن ضرائب على الرؤوس (ضرائب شخصية Capitation)، ويتفاوت ارتفاع مقدارها بحسب ثروة المؤدين.

وليس محتملا أن يكون الملك اتخذ مستخْدمين متعددين، مكلفين بتفصير العمليات المالية. لان هذه المهمة كانت لاشك تقع على عاتق السلط لمحلية بالمدن والقبائل والقرى. ثم ان الاحصاءات المتفاوتة في دقتها، و لتي تقوم بها هذه السلطة المحلية، وتخضع لاشك لرقابة ما، كانت تمكن المساعدين الملكيين Secretaires royaux من تحديد مقدرة كل مجموعة فيما يخص الضريبة. على هذه الاسس كان يجري داخل مختلف المجموعات توزيع القدر الكلي الذي كان الملك بحاجة اليه. وكان على روساء المجموعات ان ينجزوا التوزيع المحلي، وان يستلموا لمقادير بالوسائل التي يفضلونها. وكانوا هم الذين يسلمون المبالغ لتي في مسوولبتهم. ومن المسلم به ان الرعايا كانوا يأبون التسديد، خصوصا وانهم يعلمون جيدا أن هذه العمليات تعود على الجباة عدة بارباح غير مشروعة، بل غالبا ما كان رفض الاداء قطعيا وعاما. ويكون لابد من تدخل الملك، فيفعل ما كان القرطاجيون يفعلونه في ولايتهم، وما سيفعله بعد ذلك الأتراك بالجزائر والسلاطين بالمغرب. وهو ان يقوم طابور من الجنود النظاميين، وقد تصحبهم أحيانا بعض القبائل

لمجاورة التي يجذبها التكالب على الغنيمة، فيقتحموا أرض الممتنعين عن الاداء ويتكلفوا باستلام الضريبة، أو يتكفلوا على الأصح بعمية للسلب هي أكثر فائدة، ويحتفظوا لأنفسهم بقسم وافر.

على أن بعض القبائل يمكن أن تجد نفسها امام الملك في وضع وسط بين القبائل التي بلغت من القوة حدا يجعلها ترفض كل ضريبة، وبين القبائل غير القادرة على أن ترفض لأمد طويل مطالب تعزز بالسلاح. وحيث إن المخاطرة متساوية تقريبا، فيحصل الاتفاق على تلافيها، ويرضى الملك بنيل مبلغ تطوعي، اي «بهدية» تهديها له القبيلة من حين لآخر. وهذا تراض لا يزال معمولا به في المغرب، وهو يرجع لزمن بعيد. وكذلك الشأن بالنسبة لجميع هذا النظام المالي البدائي الذي رجعناه لعهد الأسر النوميدية والمورية. ولم يكن هذا من عندنا لأن براهين واضحة تسوغ لنا ذلك، وإنما لأن الأشياء ما كانت لتجري آنذاك خلافا لما جرت عليه في عهود معروفة جدا في تاريخ بلاد البربر.

وليس لدينا معلومات عن الفوائد التي كان الملوك يجنونها من الجمارك ومن الرعي، ولا عن الضرائب التي يحتمل أنهم كانوا يتقاضونها من الاسواق. ونجهل كذلك ما يتعلق بالمداخيل من املاك الدولة. ولايبدو ان استغلال المعادن كان نشيطا. بل إننا لا ندري هل خص الملوك انفسهم بملكية المعادن. وهل كانوا على النقيض من ذلك يتقاضون بعض الواجبات. وفي سمّيليثو Simithu موقع اقتطاع الرخام النوميدي المشهور، لابد أن المنجم قد كان ملكا للملك.

وايا ما كانت الوسائل التي كان هؤلاء الأمراء يستخدمونها للحصول على المال. فالمتأكد هو أن المال لم يعوزهم، بحيث أن مسنيسا ومسيبسا قد تركا خزائن مليئة جدا. وبالتأكيد فإن أهم خزين مالي هو الذي كان يوجد بعاصمتهما سِرتا Cirta (قسنطينة). وفي القرن

الموالي. فإن يوبا الأول جمع في زاما Zama عاصمته مبالغ طائلة. غير ن كنوز ملكية أخرى قد ذكر وجودها بمدن أخرى، هي سوثول Sutnul، وتهالا Thala، وكبْسا Capsa. ولربما أنها كانت صناديق جمعت بها مد خيل المناطق التي قد تكون هذه المدن هي عواصمها المالية ومن ناحية أخرى كان يؤخذ منها المال للأداءات التي يلزم أن تنفق في نفس هذه المناطق.

لا أحد يجهل أن يوغرْطة استطاع أن يتداول مبالغ مبالغ طائلة جدا لشراء بعض الضمائر في روما. وبعد ذلك فإن سخاء الملوك الأفارقة لم يكن غريبا عن المودات النافعة التي اوجدوها لدى الارستقراطية في الجمهورية العظيمة. ويوبا كان قد بعثه ابوه لمت هيمْبسال للتفاوض في بعض الشوون. فكانت امواله حسب قول سيسرون Ciceron كثيفة كثافة شعْره. وعندما عرض يوغرطة استسلامه، ألزمه متلّوس Métellus بأن يؤدي حالا 200.000 ليبرة فضية.

ومع ذلك فلدينا كل المبررات للاعتقاد بأن جميع الفضة تقريب التي تروج في إفريقيا الأهلية، والتي يمر قسم وافر منها بالخزينات الملكية، قد كانت مستجلبة من الخارج. بحيث لو كان ملوك البلاد قد استغلو منجم للمعادن الثمينة، لما اكتفوا بأن يجعلوها سبائك، بل لكانو قد سكوا بكثرة نقودا من الذهب والفضة كما سكوا عملات البرنز. لكن شيء من ذلك لم يحدث. فالكنز المتكون من 237 قطعة فضية المختفي في سِرْتا سنة 79 ق.م أو بعد ذلك بقليل، والذي اكتشف في ايامنا [1]، اشتمل على نقود أثينا، وقرطاجة، ومرسيليا، واسبانيا واشتمل خصوصا على دوانق Deniers الجمهورية الرومانية، ولكن ليس فيه قطعة نقدية واحدة مسكوكة في نوميديا. مع العلم اننا هنا في عاصمة هذه

المنطقة، أي في مكان يجب فيه أكثر من أي مكان غيره التداول بالعملات الفضية النوميدية لو كان التعامل بها شائعا.

من بين عملات الممالك الأهلية التي يمكن التاريخ لها، فإن أقدمها هي التي اصدرها سيفكْس في نهاية القرن الثالث، وهي من البرنز وعليها اسم الملك بالبونيقية. أما ورْمينا Vermina ابن سيفكْس، الذي كان ملكا إما في آن واحد مع أبيه أو بعده، فلدينا منه نقود فضية، وإن كانت قليلة العدد جدا. فإذا كانت هذه النقود معاصرة لحكم سيفكْس، فيصح الافتراض بأن هذا الملك قد سك هو أيضا نقودا من الفضة، ولم يصلنا منها ولو قطعة واحدة.

غالبا ما نعثر – على الخصوص بالجزائر وبتونس - على نقود عليها صورة للملك له لحية، وعلى رأسه تاج أو إكليل من الغار. وهذه النقود إما من البرنز، وإما من الرصاص. والقطع الرصاصية كثيرة العدد إلى حد أنه يجب اعتبارها عملة ذات سعر قانوني، لا صنعا زائفا تقليدا لقطع فضية، مع العلم أنه لم يقع العثور على أية قطعة مماثلة لها من الفضة.

هذه الصور، برغم ما يلوح عليها من اختلافات واضحة سببها عدم خبرة الصناع، فإنها تمثل نفس الشخص وهو مسنيسا، كما يدل على ذلك قطعة أو قطعتان كتب عليهما اسمه ولقبه الملكي. ذلك أن صورة الملك الكبير احتفظ بها الذين خلفوه من أبنائه وحفدته الذين لم يعوضوها بصورهم. وبالفعل فإن نقودا تحمل هذا الرأس، يبدو أنها تورخ بحُكم مسنْسا، وكْلوسا، واذرْبعْل، وربما حتى كوْضا، ويبدو أن هؤلاء الأمراء اكتفوا بأن يكتبوا عليها الحرفين الأول والآخير من اسمهم م - ن (M-N)، گ - ن (G-N)، أ - ل (A-L)[137] ولا نعرف إلى حد أيامنا هذه

مثلا لها باسم مَسْتَنَبَعْل Mastanabal ولا باسم هيمْبسال ابن مسينسا و: باسم يوغرْطة.

كل هذه المسكوكات لمملكة الماسيسيليين ومملكة المسيين قد حتذت المثال القرطاجي، اذ يبدو ان النسق القياسي هو نفسه. و لفرس الذي على النقود القرطاجية يظهر على النقود النوميدية. كما ان الك هي بالبونيقية. على أن بعض النقود المسكوكة بافريقيا في القرن لثاني وحتى في القرن الاول، ولبس عليها الصورة الملكية، لا يستحيل ان تكون قد اصدرها ملوك نوميديون. غير أن هذا الافتراض لا يقدم الا مع كثير من لتحفظ. وهي قطع من البرنز يظهر عى وجه منها راس شاب قوي بين سنبلتين من القمح. وعلى الوجه الآخر يظهر فرس يعدو. ولربما كذلك القطع البرنزية والفضية التي عليها راس لمعبودة مغطى في العدة بريش أحد الطيور، وعلى الوجه الآخر ثلاث سنابل. وتصحب هذه لرسوم حروف بونيقية هي اختصار لاسم مبهم. ولقد سبق ان اشرنا لعملات الفضة والبرنز[8] التي عليها كتبة ليبوون Libyon. غالب مع حرف بونيقي ايضا. والتي لابد انها سُكت بين سرنيكا (مقاطعة برقة) لاغريقية وافريقيا القرطاجية. وعنها يمكن ان نتسائل الا يرجع تاريخها للعهد الذي استولى فيه مسنيسا على منطقة الأمبوريات (المتاجر) بالسدرتيْن ؟

في القرن الأول قبل الميلاد تولى المُلك في نوميديا هيمْبسال Hiempsal وبعده ابنه يوبا (الأول). وهناك نقود برنزية وفضية نقش عيها حرف «هـ» (H). فعزيت إلى هيمْبسال، وفي ذلك كثير من الشك. لأن القطع الفضية تنتمي إلى النسق القياسي الروماني. وهناك من يوبا لاول قطع برنزية وفضية (الفضية تنتمي إلى النسق الروماني) عليها اسم الملك، والبرنزية تحمل كتابة باللغة الفينيقية بالخط البيونيقي.

بينما الدوانق Deniers والخميسات Quinaires الفضية التي تظهر على أكثرها صورة الملك، فهي بلغتين وكتابتها باللاتانية والنيوبونيقية. ولا يبدو مستحيلا أن يكون يوبا سكّ نقودا ذهبية. عوض عن صورته فبه بصورة نصفية Buste تمثل النصر ذا الأجنحة. هذه النقود ليس عليه كتابة، لكن الصورة التي على الوجه والتي على الظهر (أي الفرس العادي) نجدها من جديد على الخميسات Quinaires التي صدرها هذا الملك دون شك.

في سنة 62 ق.م كانت تقع بين مملكة هيمْبسال وموريطانيا أراض خاضعة للأمير الذي سماه سيشْرون Cicéron باسم[19] مستّانسوسْس Mastanesosus. فلربما يكون من الأليق أن تنسب إليه قطع البرنز التي تحمل الكتابة النيوبونيقية MSTNCN HMMLKT أي (مسْتنيسان ؟ Mastaneçan الذات الملكية).

وبالنسبة لموريطانيا فلا نعرف أية قطعة نقدية مكية يمكن أن تنسب بالتأكيد إلى ملوك ما قبل بوكوس Bocchus وبوكود Bogud المعاصرين لقيصر. فمن بوكوس لدينا قطع برنزية عليها اسمه، وعلى الكثير منها لقبه كذلك بالخط النيوبونيقي. والكتابة التي على الظهر تعرفنا أن قسما على الاقل من هذه القطع قد وقع سكّه في مدينتي سكّا Sigga وشماش Shemesh (اي لكسوس حسب رأي). أما بوكود فقد ترك نقودا فضية من النسق القياسي الروماني ونقودا برنزية، والكل يحمل كتابة لاتانية هي ركْس بوكوت Rex Bogut. وسنتحدث من بعد عن مسكوكات يوبا الثاني وزوجته كليوبترا صيليني وابنهما بْطلمي، الذين عاصروا الاباطرة الرومانيين الأولين. فاللغة البونيقية لم تعد تظهر إلا على قطع برنزية سكّها يوبا في شماش. وتحمل فوق ذلك اسم الملك

باللاتانية، وفي جميع ما عداها فالكتابة اما باللاتانية أو بالاغريقية، أما لقصع الفضية فهي دوانق من النسق القياسي الروماني.

7

من بين الملوك الاهالي، كان سيفكس Syphax أول من يبرز في لتاريخ. فقد كان لحقبة من الزمان سيدا على جميع المنطقة المعروفة اليوم باسم الجزائر، وكان له عاصمتان في آن واحد. هما سگا Sigga في لقاصبة الغربية لمنطقة وهران، وسرتا Cirta وهي قسطينة اليوم. ونزوج فتاة من أشرف الاسر النبيلة القرطاجية. ورأى رومة وقرطاجه تخطبان وده، وفي الصراع الحاسم بين الجمهوريتين أمكنه أن يعتقد أن لحظ سيواتي الجانب الذي يرمي هو فيه بثقله. وتطلع الى أن يساوي نفسه بملوك المشرق الاغريقي فوضع مثلهم الاكليل على جبهته، وجعل صورته على النقود التي لاشك أنه كان اول من سكها في نوميديا. غير ان حكمه لم يكن سوى صراع طويل المدى ضد جيرانه، وضد رعاياه ايضا على ما يحتمل. وهذا غير الحروب التي خاضها ضد قرطاجة وروما. وقد انهارت مملكته انهيارا كليا حتى ان مسنيسا لم يكن عليه إلا ان يتقدم امام سرتا ليجعلها تفتح الابواب. كما أن جل أقسام المملكة الماسيسيلية استسلمت للمنتصرين دون مقاومة.

اما مسنيسا فقد عمل عملا كتب له أن يدوم أكثر من غيره. وكان هو الاكبر من بين أكابر ملوك بلاد البربر، مثل المرابطي يوسف بن تاشفين، والموحدي عبد المومن والشريف المغربي مولاي اسماعيل الذين اشبهوه من عدة نواح. فقد مد اراضيه من موريطانيا إلى سرنيكا، وجمع مقادير طائلة جدا من المال، وجهز جيوشا عديدة ومدربة، وعمم

الزراعة ونمى الحياة الحضرية، حتى أن الإغريق والرومانيين اعترفو بانه ملك حقيقي. وكثير من رعاياه، وربما أغلبيتهم نسوا كراهيتهم لطبيعية الملكية، فالتقت المحبة بالخوف لتربطهم به. وقد تخلدت عبادته خلال العصور.

غير ان المملكة التي أسسها ودعمها بساعده القوي، لم ينظمه مطلقا. ورغما عن جهلنا الكبير بعهد حكمه المديد، وبغض النظر عن علاقاته مع الرومانيين والقرطاجيين، فإننا نعلم أنه قد حارب «لثور» وقبل وفاته بسنتين لاغير، فإن ستة آلاف فارس يقودهم بعض لخونة قد تخلّوا عن معسكره ووالوا معسكر الأعداء.

وبعد وفاته، كان في الامكان أن تتفكك مملكة نوميديا بسرعة، على غرار الكثير من الممالك البربرية. إذ خلف مسنيسا في الحكم ملوك ضعاف اوهنتهم حياة الملذات، وحفيده كوْضا Gauda الذي حل في الملك محل يوغرطة بإنعام من الرومانيين، قد كان حسب رواية سالسْت، ضعيف الجسم والعقل، ولكنه كان كثير التعلق بالتشريفات التي كان [illegible] وقد استطاع ان يسلم مملكته لابنه هيمْبسال. وآخر ذرية مسنيسا كان هو بْطلمي ملك موريطانيا، ويبدو أنه كان مُنحلاً، ولعل رعاياه كانوا قد يزيحونه عن العرش لو لم يقم بهذه المهمة الامبر طور كاليكولا Caligula. لكن، وعلى العموم، فإن الامراء الذين حكموا نوميديا وموريطانيا قد ابدوا الرغبة في الحفاظ على نفوذهم، كما أنهم حسب كفاءتهم المختلفة قد أدوا على الأقل قسما من الواجبات المنوطة بهم. وقد كان يوغرطة رجلا بارعا مع مساوئ كبيرة ومحاسن كبيرة. واستطاع ان يكسب الشهرة الودية لدى النوميديين وحتى لدى جيرانه الموريين. فالأسرة التي أعطاها مسنيسا هذه المفاخر الكثيرة، قد مكثت في عهود من خلفوه سيدة على نوميديا طيلة قرن، وسادت لمدة تجاوزت

الستين سنة موريطانيا التي وهبها لها الرومانيون، والتي حلت بها محل أسرة حاكمة أخرى يبدو أنها - هي الاخرى - كان لها وجود طويل قبل أن تضمحل. وعلى غرار مسنيسا، فإن خلفاء قد نالوا بعد موتهم تكريمات التأليه التي لنا عليها براهين من عهد السيطرة الرومانية.

لكن إذا كانت الأسر الحاكمة قد دامت، فإن الممالك لم تترسخ. إذ الخطوط الضئيلة من النور الذي يخرق الظلمات التي تغطي تاريخها تكشف لنا الفوضى التي كانت الممالك مرتعا لها.

ففي الأسرة الملكية بنوميديا نجد الاضغان العنيدة، حيث يوغرطة يغتال احد اخوته بالتبني وهو هيمبسال، ويقضي على الآخر وهو أذربعل بالتنكيل. وينحي عنه بالاغتيال ابن عمه مسيقا Massiva الذي لجأ إلى روما حيث قام ضده بنافسه. وكوضا يتخلى عن اخيه يوغرطة ويجعل نفسه في خدمة الرومانيين.

ان التقسيمات والاقتطاعات تضعف الملكية ولا تجعل حدا للمنافسات. فبعد مسيبسا انقسمت مملكته إلى ثلاث ممالك، ثم إلى اثنتين. غير أن يوغرطة يريد استعادة الوحدة لصالحه وينجح في مسعاه بالاغتيال والحرب. وبعد ثلاثين سنة تندلع حرب أخرى في نوميديا بين هيمبسال الذي خلف اباه على الملك وبين من يدعى باسم هيربس Hiarbas الذي نكاد نجهله، ثم نلاحظ في 62 ق.م ان ممكة مستنسوسس Mastanesosus توجد بقسم من نوميديا. هي التي ملكها جميعها كل من مسنيسا ومسيبسا ويوغرطة. وفي سنة 47 نجد مسنسن اخر يحكم غربي سرتا، وأنه حقيقة حليف للملك النوميدي الاخر بوبا الأول. وقد كانت موريطانيا كلها في عهد يوغرطة ملكا لبوكوس. كما أن أميرا يدعى أسكاليس Ascalis كان في سنة 81 أميرا

على طنجة أهم المدن بالبلاد. وفي 49 نجد موريطانيا مقسمة بين ملكين، هما بوكوس وبوكود، ويستمر هذا التقسيم موجودا إلى اليوم الذي ستولى فيه بوكوس على أراضي بوكود.

إن من «أصدقاء» الملك، وبعض ذوي قرابته، وبعض كبار الرؤساء من يتآمرون ويخونون، فيعاقبون بأشد أنواع العذاب إذا قبض عليهم. فقد حدث أثناء الحرب البونيقية الثالثة أن بثوياس Bithyas تخلى عن كُلوسا Gulussa وفر مع ثمانمائة فارس إلى القرطاجيين. كما أن بوملْكار Bomilcar ونَبْدلْسا Nabdalsa اللذيْن هما من أهم مساعدي يوغرطة قد نظما مؤامرة لتسليمه إلى الرومانيين. وغيرهما كانو على تم الاستعداد لبيعه. فكان الملك يعيش في الحيرة والخوف. ويامر بقتل بعض المجرمين، ولكنه لا يجرو على الأمر بقتلهم جميعا. خوفا من ان عمليات الاعدام هذه تطلق العنان للفتن. وكذلك فان الأمير الموري مكُودلْسا Magudulsa كان واحدا ممن يأتمنهم بوكوس على سر ره، ولكننا لا ندري لاي سبب اضطر للفرار إلى رومة. فطلب بوكوس بتسليمه إليه ورمى به إلى فيل داسه. كما أن شخصا يدعى مسنْثا Masintha (أو على الأصح مسنيسا)، وكان لهيمْبسال عليه بعض المآخذ. ولعله كان من ذوي قرابته، قد فر هو أيضا إلى رومة فجاء يسترده يوبا ابن هيمَبسال.

والرعايا يثورون. من ذلك إن مدينة لبْتيس الكبرى (لبْدة) نتهزت فرصة الحرب التي كان يوغرطة يخوضها ضد الرومانيين. وانفصلت عنه. وأثناء حرب قيصر ضد البومْبيين Pompeiens وضد يوب الأول، قام سكان تابينا Thabena (ثيناي Thaenae) بتذبيح الحامية الملكية ووهبوا أنفسهم للديكتاتور. وأهل زاما Zama عاصمة يوبا منعوه من الدخول إلى المدينة بعد اندحاره في ثبْسوس Thapsus، واستدعوا قيصر. وكذلك

طنجة عاصمة الملك بوكود فإنها أعلنت خلعه بينما كان يخوض المعارك في إسبانيا. كما أن قبائل وعشائر نوميدية تحافظ على استقلالها أو تسترجعه. ويحتمل أنه على غرار ما كان بالمغرب أمس، قد كانت البلاد قسمين فهناك قسم خاضع وقسم غير خاضع، وأن القسمين معا كانا يتسعان أو يضيقان حسب قوة الملك أو ضعفه.

في عهد بوغرْطة كان الجيتوليون Gétules الذين يعيشون بالسهوب في جنوب نوميديا، منهم المستقلون، ومنهم رعايا الملك الذي كان استطاع تجنيد العديد منهم، في حين أن جيتوليين آخرين ذهبوا للعمل في الجيش الروماني، وكانوا لِموريُوس Maurus نعم المساعدين. وقد قام يوبا الأول بالجنوب بحملة ضد الثوار، ودامت الحملة شهورا طويلة. وحين كان بعد ذلك مشتغلا بالحرب ضد قيصر، ثار عليه بعض الجيتوليين فاضطر حماية لمملكته إلى أن يجرد عليهم قسما من جيوشه. وفي موريطانيا لم يعد الجيتوليون مسالمين. وقد رأيناهم يستولون على الأراضي التي كانت من قبل ملكا لقبائل الموريين والماسيسيليين. وعلى غرار أبيه كان يوبا الثاني له من يحاربهم من الجيتوليين.

وهناك مرة أخرى الخصومات والحروب بين الملوك الجيران. كعهد سيفكّس ومسنيسا. فبوكوس صهر بوغرطة، هو في حالة خصام معه، وإذ صار له حليفا من بعد، فإنه سيخونه ويسلمه للرومانيين. وفي القرن الأول كست الحروب في إفريقيا أكثر من مرة فصولا من الصراع الذي كان يمزق الجمهورية الرومانية، بحيث إذا أعلن أحد الملوك موالاته لأحد الجانبين، وجد جاره في هذا فرصة حسنة للانقضاض عليه وإعلان موالاته للجانب الآخر. من ذلك أن بوكود ابن بوكوس الكبير يباغت من

الخلف هيَرْباس Hiarbas الذي تحالف مع المَريوسيين Marianistes لذين يحاربهم بومْبي Pompée وهيمْبسال. ولما انضمَ يوبا الاول لصف البومبيين، فإن بوكوس الصغير انضمَ لجانب قيصر وزحف على نوميديا. وبعد ثمان سنوات فبوكوس الصغير هذا يستولي بإذن من أكْتاف Octave على مملكة بوكود الذي هو تبعٌ لأنْطوان. بل تتحارب الجيران فيما بينهم حتى ولو انعدم سبب التدخل في الحروب الرومانية. فستِّيوس Sittius القائد المرتزق استطاع سنين طويلة أن يزاول مهنته المربِحة بالتنقل من هذا المكان لذلك.

ثم إن هذه الممالك التي يدور حول وجودها هذا الصراع العنيف، تنهار فجأة إذا ذهبت إحدى الكوارث بسيِّدها. فبعد انحدار أذْربعْل وعقب انحدار يوبا الأول، وكذلك بعد انحدار سيفكْس، وكذلك لما زحف بوكوس على مملكة بوكود المتغيب، فإن رعايا الملك المغلوب استسلمت جموعهم للغالب. فالدول في نظر الاهالي تجمعات غير ثابتة، وليست اوطانا.

إن تاريخ نوميديا وموريطانيا قبل السيطرة الرومانية قد كان على العموم مماثلا جدا لتاريخ إفريقيا البربرية في العصور الوسطى. فهناك نفس الارتياك، ونفس النهاية الرتيبة والكريهة ونفس المؤامرات، والاغتيالات، والفتن والحروب والانهيارات، ونفس الحمأة المتكونة من الوحل والدم، ونفس العجز من جانب السادة عن تنظيم دواليب الآلة الحكومية، ومن جانب الرعايا نفس العجز عن ان يفهموا أن قوة الدولة يتولد عنها نماء الأفراد، وأن القبول المخلص للطاعات هو في نهاية الأمر لصالح الجميع، أي لاشد الناس أنانية ولغيرهم.

الكتاب الثاني

استغلال الأرض وأنماط السكن

الفصل الأول

تربية الماشية والزراعة

1

حصل السكان الاولون لبلاد البربر بالصيد على قسم كبير جدا من طعامهم، لكن تربية الماشية والزراعة لم تدفعا بذريتهم إلى التخلي عن هذه لوسيلة للعيش. فالصيد كان موجودا بكثرة. ولهذا كان بمستطاع لرعاة ان يوفروا قطعانهم، وبمستطاع المزارعين ان يضيفوا اللحم إلى طعامهم النباتي الذي يحصلون عليه بعملهم.

وهناك سبب اخر يجعل الصيد ضروريا، فالوحوش كانت كثيرة إلى حد ر صارت خطرا. فقد كانت تهاجم الناس، وتهاجم الماشية عى الخصوص، وتجعل تربية الماشية في بعض الجهات مستحيلا تقريبا. فكان لابد من حرب لا هوادة فيها لإبعاد هؤلاء الجيران الخطرين، أو للتقليل من عددهم. وكان هذا العمل يفرض المكابدة والجرأة والبراعة. وقد تعاطى الافارقة للصيد بفرح بل بغبطة. وكانت العافية وقوة البدن

تجدان في تعاطي الصيد ما يقويهما في الهواء الطلق. وكانت الكبرياء. وهي شعور حي جدا عند هؤلاء الرجال، تجد فرصا للارتياح في الصيد باستعمال الجرأة او الحيل الخادعة.

وكان الصيد وسيلة لامداد الأجنبي بالمواد وبالحيوانات التي ينتظر الحصول عليها من إفريقيا. فنيوب الفيلة التي يضيعها الأهالي في عمال تافهة، كانت تزود القرطاجيين والاغريق والرومانيين بالعاج الذي يستعملونه في منتجاتهم الفنية وفي اثارهم. وبيض النعام، وربما حتى ريشه كان مطلوبا. وكذلك الامر بالنسبة لفراء الأسود والنمور. والقردة كانت مطلوبة لأنها تؤنس فتصير أليفا في البيوت الأرستقراطية.

ولكن فُرجات الملعب الروماني على الخصوص هي التي كان الصيادون النوميديون والموريون يزودونها[150]. فمنذ بداية القرن الثاني ق.م. ظهر في هذه الملاعب الاسود والنمور والفيلة والنعامات، والدببة (التي على غرار هذه الحيوانات الاخرى لابد انها كانت جميع من إفريقيا او على الاقل كان البعض منها إفريقيا). وكان قرار قديم لمجلس الشيوخ يمنع دخول الأفريكاني Africanae إلى إيطاليا. (والافريكاني هي الافريقيات ويقصد بها النمور على الخصوص). فقرر الشعب انه لا يطبق على الحيوانات المخصصة للألعاب العامة. وفي نهاية نفس القرن شوهدت الأسود لاول مرة تتصارع في الملعب حسب قول پلين الشيخ Pline l'Ancien. ثم جاء دور الفيلة بعد بضع سنين. وفي 79 أجري الصراع بين الفيلة والثيران. كما ان سولا Sylla أقام سنة 93 وهو بريطور Préteur فُرْجة بمائة اسد يهاجمها رجال افارقة يحملون الرماح. وكل من الوحوش والناس قد بعثه إليه صديقه بوكوس ملك موريطني. وشاهد الشعب في 61 مائة دُبّ من نوميديا، وهي تواجه مثل عددها من

الصيادين الأثيوبيين. وشاهد الشعب كذلك 150 نمراً سنة 58. وفي الاحتفالات التي اقامها بومْبي Pompée سنة 55 حين دشن مسرحه، حضرت لهذه الاحتفالات 410 من النمور كما أحضر لها 500 او 600 من الأسود ونحوا من 20 فيلا كانت تصارع الجيتوليين حملة الرماح. وفي حفلات تمجيد قيصر سنة 46 ظهر بالملعب 400 من الأسود وقطيعان من الفيلة، بكل قطيع 20 فيلا. وكان القطيع الاول يواجه خصوما عددهم 500 من المشاة، بينما كانت فيلة القطيع الثاني تحمل بروجا بها محاربون، وكانت تواجه خصوما عددهم 500 من المشاة ومثل عددهم من الفرسان.

وكانت النزوات أيضا تستعمل فيها حيوانات إفريقيا، من ذلك أن بومّبي في حفلات انتصاره الافريقي كان يشد الفيلة إلى عربته، وكان مارك أنطوان المُثالث Marc Antoine le Triumvir يقرن لعربته الأسود.

ومن المحتمل ان هذه الحيوانات الغريبة المستجلبة، كان اقتنوها يتم احيانا بواسطة التجار او الملترمين الذين يحصلون على هذه البضاعة الثمينة وينقلونها. ولكن كبار الحكام الذين يقيمون حفلات الالعاب والفرجات، كانوا على وجه العموم يتقدمون إلى ملوك البلاد، وهؤلاء يسارعون لتلبية رغباتهم.

وكانت اساليب الصيد تختلف طبعا بحسب قوة الحيوانات وبحسب ما يراد استعمالها فيه، كان تقتل في نفس المكان، أو تؤخذ حية. وكانت الطريدة تُحاش إلى خنادق مغطاة بالغصون فتقع فيها. وقد تُحاش إلى مضايق ليس لها منفذ. وتستعمل أيضا الخنادق لقنص الوحوش المفترسة. وبداخل هذه الهوات، وايضا حتى بداخل الشباك التي تحاش إليها الحيوانات، كان يوضع قفص يعلق فيه طعم مُغر كجدْي أو قطعة لحم مُنْتن، وينزل باب القفص لينسد مثل باب مصيدة الفئران.

كان الأفارقة يصيدون وهم على ظهور خيولهم، ويجتهدون ليلحقوا أو ليحاصروا الحيوانات التي تفر أمامهم كالأيايل، والحُمُر لوحشية، والظباء، والنعامات، والتعالب، وربما حتى الأرانب، ثم يقتنونه بطعنة رمح أو يصيدونها بالأحابيل. لكن الوحوش الضارية والخنزير والسبة التي تواجه المهاجمين ولا تصعقها الرماح، فكان لابد من مصارعتها جسما لجسم بالحربة والمزراق والسكّين.

ولم يكن استخدام كلاب الصيد منتشرا بكل مكان. لكن حيث أن هذه الحيوانات لم تكن مجهولة منذ عهود ما قبل التدريخ، وبما أنها كانت مستخدمة جدا في العهد الروماني، فيمكن الاعتقاد بأن معاصري الملوك النوميديين والموريين لم يأنفوا من استخدام هذه الحيوانات المساعدة. غير أن الكلب في العهود القديمة، كما هو الحال اليوم كان يستخدم في حراسة المنازل على الخصوص، وعند بعض الشعوب ربما استعمل للطعام.

2

يتحدث سالُسْت باختصار، فيذكر أن تربة إفريقيه هي «حسنة للماشية»[51]، وذلك صحيح، وإن كان المناخ تنشأ عنه لتربية الماشية مصاعب كبيرة. وقد كتب بوليب في القرن الثاني ق.م قائلا[52]: «في هذه المنطقة، كثرة الخيول والثيران والكباش وكذلك الماعز تبلغ إلى حد أني لا أظن أن بالإمكان العثور على مثل ذلك في جميع ما تبقى من الأرض». ويضيف قائلا: «وسبب ذلك هو أن الكثير من قبائل ليبيا لا يتمتعون بمنتجات الفلاحة، وإنما يعيشون من مواشيهم ومع مواشيهم».

وكانت القطعـان، حسب قول تيت ليف Tite-Live، هي التي تكون الثروة عند النوميديين[153]، وهو نفس ما يقوله بُمْبونْيوس ميلاً عن الأهالي الذين يعيشون بعيدا عن الساحل. ولم يكن هيرودوت في القرن الخمس يعرف سوى الرعاة بين مصر وسدْرة الصغرى. وبعد ذلك أطلق الاغريق اسم نوماديس νομάδες على العشائر المنتشرة على الارض من منطقة التراب القرطاجي حتى المحيط. ولربما أن هذا كان – حسب رأينا - [154] تغييرا لاسم أهلي، تغييرا من قبيل التلاعب بالألفاظ. ولكن سواء صح هذا الافتراض او لم يصح، فإن استعمال لفظ «نوماديس» برهان على ان هذه الشعوب قد كانت شعوب رعاة في نظر الإغريق. ويحتمل مع ذلك أن التسمية لما قبلت احدثت مبالغة في اهمية تربية الماشية عند الافارقة، ولو أنها أهمية عظيمة في الواقع.

وكانوا يتعاطونها منذ امد بعيد جدا. وهذه مواقع العهد النبوليتي تضم عظام الكباش والماعز والثيران. وتقدم لنا الرسوم الصخرية صور لهذه الحيوانات المونسة. وقد كان الفرس في خدمة الانسان ببيبي منذ نهاية الالف الثاني قبل الميلاد. ولا يوجد أي برهان على ان المستوطنين الذين قدموا من فينيقيا، ولا على ان القرطاجيين قد ساهمو مساهمة كبيرة في نشر تربية الماشية بين الاهالي، ولا على أن هولاء قد اخذوا عن أولئك دروسا نافعة فيما يقدّم للماشية من عناية أو في تحسين سلالاتها.

واتساع الزراعة، الذي قلل من سعة المساحات التي كانت رهن اشارة الرعاة، لم يمنع تربية الماشية من ان تبقى والحالة هذه الشاغل لاكبر عدد من الافارقة. يقول سالُسْت[155] «إن النوميديين يعتنون بتعهد قطعانهم أكثر مما يعتنون بزراعة الأرض». وبالطبع كانت هذه هي الحال

في المناطق ذات التربة الفقيرة جدا، وحيث الأمطار أقل من أن تسمح بالزراعة. ومع ذلك فقد وجد أيضا أقواما من الرعاة في الجهات التي قد تصلح جيدا لزراعة الحبوب. وقد انتبه لذلك سترابون فقال [156]
«...والموريون، مع أنهم يسكنون منطقة خصبة على العموم فإن جلهم يستمر على معيشة الرعاة». وقال مثل ذلك عن النومديين.

لقد سبق أن ذكرنا لماذا يتمسك الكثير من الأهالي بنمط الحياة التي عرفها آباؤهم[157]. ولاشك أن ذلك كان على الخصوص بسبب الجمود والكسل. فهؤلاء الرجال العاجزون عن أن يلزموا أنفسهم بالعمل الشاق، والذين يغفلون عن أداء هذا الثمن ليستزيدوا قليلا من رغد العيش، هؤلاء الرجال – كبعض الشعوب الأخرى القديمة والحديثة – لابد أن المحراث كان يبدو لهم وكأنه أداة استعباد، ويستحق الازدراء. ويحتمل أيضا أن السبب هو أنهم كان يبدو لهم أن جعل قطعانهم بعيدة عن يد الأعداء والنّهاب هو أسهل عليهم من منع هؤلاء الأعداء من إتلاف المحاصيل الزراعية ومن قطع أشجار الفاكهة. والممالك الكبرى التي تكونت لم تنشر نهائيا لا سلما ولا أمنا، بحيث لا يجب الاعتماد كثيرا على حماية الملك.

ومع ذلك فإن بعضا من الانتظام والأمن قد داخل هذه الفوضى، وذلك شرط مفيد لكل من تربية الماشية والزراعة. وتضاؤل عدد الوحوش الضارية التي اصطيدت بشدة، كان أيضا من صالح ملاك القطعان.

من بين الرعاة من كانت لهم مساكن ثابتة، أو كانوا لا يتنقلون إلا في مجال ضيق. وكان الآخرون رحّلاً على وجه التحقيق. ولم يفت القدماء التمييز بين هذين النوعين. فقد ذكره بومْبونْيوس ميلا بجلاء، كما ذكره سالُسْت[158]. والتل توجد به بعض الجهات التي تستطيع الماشية أن

تعيش بها طوال السنة، كما به سهول ذات مراع لفصل الشتاء. وعن قرب هناك جبال وغابات فيها مراع للصيف. إذن فالقبيلة التي تمت هذه وتت تسوق إليها على التعاقب قطعانها، وتجد بها زيادة على ذلك طقسا لطيف في فصل الشتاء وطريا في الصيف. وهؤلاء الرعاة الذين لهم لماء ولهم الاعشاب الغزيرة يربون على الخصوص الماشية الضخمة من ثيران وخيول.

ن قبائل الرحّل الحقيقية تقضي الشتاء في السهوب، حيث لها رضيها الخاصة بها. وهي كثيرا ما تنتقل في هذه الاراضي لأن لمراعي فقيرة، ولأن جل نقط الماء سريعا ما تنضب. وتتكون الماشية على لخصوص من الحيوانات القنوعة والمتحملة كالماعز و لكباش والحمير. إذ الطقس الجاف الذي يهيمن على هذه المناطق في فصل لشتاء يوافق الكباش أكثر من البرد البليل الذي يكون بقسم كبير من لتل. ولهذه القبائل ايضا الخيول. وهذه لها متطلبات اشد. ولكنها مع ذلك تستطيع العيش في السهوب. هؤلاء الرحّل ليسوا هم الافارقة لذين خصّهم الاغريق واللاتانيون باسم نوماديس νομάδες ونوميداي Numidae بعدما اطلقوه على جميع الأهالي الذين لم يكونوا رعايا قرطاجة. وليسو سكان نوميديا الحقيقية الواقعة بين المنطقة البونيقية التي أصبحت ولاية رومانية وموريطانية، وبين البحر الابيض المتوسط والسهوب. بل إنهم هم الجيتوليون Les Gétules الذين يحدّون من الجنوب كلاً من موريطانيا ونوميديا والولاية. وقد انتبه سْترابون إلى انهم يشبهون العرب الرحّل. وهناك حجة - واحدة من بين العديد من الحجج الاخرى - هي أن لزحف العربي الكبير الواقع في القرن الحادي عشر للميلاد لم يدخل معه لبلاد البربر سلوكا جديدا. فهولاء الرعاة الليبيون هم الذين وصفهم فرْجيل Virgile، بأن قطعانهم ترعى ليلا ونهارا طيلة شهور، وانهم

يتقدمون في صحارى مديدة لا يجدون فيها ملجأ، وأن الأرض وطاؤهم، وأنهم يحملون معهم كل شيء بأنفسهم. مسكنهم وموقدهم وأسلحتهم.

ولابد في الصيف من مغادرة هذه السهول العريضة لتي أصبحت جرداء حقيقة. وقد ذكرنا [159] الاحوال التي فيها يقتحم التل أولائك لذين أصبحوا لا يكتفون بجبال الجنوب، فذكرنا الفوضى والفتن. وكذلك الاتفاقات التي تتولد عن هذه الهجرات. ولأننا لا نملك معلومات في هذا الشأن، فيسوغ الاعتقاد بأن الملوك، حبا منهم في السهر على من أراضيهم، وخصوصا منهم مسنبسا، قد اجتهدوا في تنظيم تنقلات الرحّل وفي منعهم من ارتكات الأعمال المبالغة في العنف.

3

باستثناء الخيول، فإننا لا نكاد نعرف شيئا عن الحيوانات المؤنسة التي كان الأهالي يملكونها. ولا يوجد نص يذكر الحلوف Le porc، ولو أنه ليس مستحيلا أن يكون الليبيون قد ربّوا هذا الحيوان. فالكُوَنْش Guanche أهل جزر كنارية كانوا يملكونه. ولاشك أن هذا الحيوان قد استجلب إليهم من شمال إفريقيا كما استجلب الكلب والكبش والمعزى. لكن الليبيين الشرقيين كانوا في القرن الخامس ق م يمتنعون عن أكل لحم الحلوف على غرار المصريين في ذلك. ثم انتشر الامتناع في اتجاه الغرب، ولا نستطيع القول عن الفينيقيين الذين لم يكونوا يأكلون الحلوف، هل كان لهم أثر ما في هذا المجال على أهل البلاد.

في فقرة ذكرناها سابقا، ضخّم پوليب ثروة ليبيا من الخيول والثيران والكباش والماعز. وكثرة الكباش عند الليبيين الشرقيين كدت

تكون، قبل ذلك ببضعة قرون، مضرب الأمثال عند الإغريق[60]. وليس لدينا معلومات عن سلالات الكباش، ولكن النوع المعروف منها باسم الباربرين barbarine ذا الذيل الغليظ، كان على ما يحتمل منتشرا خارج المنطقة القرطاجية، حيث يستدل على وجوده بالرسوم الموجودة على بعض الأنصاب. وكما هي الحال اليوم، فإن الماعز كان في الأغلب يختلط مع الكباش ويقودها، لأن استخدام كلاب الراعي شيء لم يكن معروفا، أو كان نادرا على الأقل. وبالإضافة إلى الخدمات التي تؤديها الكباش والماعز بحليبها وبلحومها أيضا - دون مبالغة في اللحم - كانت الحيوانات لا تذبح إلا عند الضرورة، ويؤكل الصيد على الخصوص - فإن الصوف والشعر كانا يستخدمان في صنع اللباس. فبشعر معز كينبس (نهر مجراه بين السدْرتين) كانوا يصنعون نسائج اللبد التي كانت لها شهرة في العهد الروماني. وكان عامة الناس بكل مكان يحبون أن يتدثروا بجلود الماعز.

حسب ما يرويه بول أوروز Orose، الذي ينقل عن تيت ليف، فإن قرطاجة في أواسط القرن الثالث ق.م فرضت على بعض النوميديين حلفاء ريكولوس Regulus أن يسلَموا إليها 20.000 ثور. ولربما أن هذا يتعلق بقبائل كانت تعيش بالشمال الغربي وبموسطة القطر التونسي، أي بالأراضي الصالحة لتربية هذه الحيوانات. غير أن العدد المذكور مرتفع إلى حد يبدو معه غير مقبول. إن السلالة البقرية المنتشرة اليوم بشمال إفريقيا، قد كانت لاشك تعيش بها منذ أمد بعيد. وبخصوص العهد الذي ندرسه فليس لدينا أي نص ولا أية صورة تساعدنا على معرفة السلالة. أما سترابون فيؤكد أن داخل البلاد عند الجيتوليين، به ثيران أعناقها أطول مما بأي مكان آخر. وهيرودُت بثيرانه المتقهقرة إلى الخلف، يبتعد إلى قلب الصحراء، عند الـگرَمَنْطيين. ويقول إن لها قرونا منعطفة إلى

الامام. إلى حد أنها تضطر للرعي متراجعة إلى الوراء. وهذا كلام مشكوك فيه جدا. ولم تستعمل الأبقار فحسب للطعام بلحومها وحسبها، وللصناعة بجلودها وللاعمال الزراعية باستخدامها بالمحراث. ففي المغرب بالاطلس المتوسط، كما بالسودان، يوضع لحد الآن على ظهر الثور حلْس للتنقل. وهذه عادة قديمة جدا. ويحتمل أيضا أن بعض جهات بلاد البربر استخدمت فيها الثيران للركوب، كما عند الكرمنْطيين وكما عند زنوج إفريقيا الشرقية.

في الألف الثاني قبل الميلاد كان الليبيون المجاورون لمصر يملكون الحمير. وبرغم انعدام البراهين عن الأزمنة السابقة للاحتلال الروماني، فيسهل الاقتناع بأن حيوانا يعيش متوحشا في بلاد البربر، قد كان يستخدم عن سعة في حالة التانس التي يمكن فيها أن يسدي الكثير من الخدمات، ويتطلب القليل من العناية. ويعتقد كذلك أن تربية البغال، التي كانت تزاول في المنطقة البونيقية، لم يكن الأهالي يجهلونها.

اما أنهم كان لهم العدد العديد من الخيول فذلك ما يشهد له زيادة على پوليب Polybe القدر المرتفع من الخيول في الجيوش بالنسبة للمشاة. وقد انتشرت تربية الفرس حتى بالصحراء. ولكنها كانت تزاول بنوميديا على الخصوص. ونحن نعلم كم أفادت الخيالة النوميدية قرطاجة، ولم تكن إفادتهم لملوكهم ولروما أقل. ففي اواسط القرن الأول ق.م جنّد منهم يوبا عددا كبيرا، عملوا إما ضمن جيوشه وإما تحت إمرة القادة البومبيين. وحسب قول سترابون، كانت سرْتا في عهد مِيسِنْسَ تستطيع أن تجعل منهم 10.000 رهن إشارة الملك.

ويقول نفس الكاتب إن الملوك كانوا يولون عناية خاصة لتربية الخيول، وأنهم كانوا يأمرون بإجراء إحصاء سنوي للمِهار. فكان يُحصى

منهـ نحـو 1000.000. ولا يـذكر سترابـون بـالتـدقـيق أيَ المـلـوك هـو المقصود. ولاشك أن المراد هم سادة المملكة النوميدية الكبرى، كما كونهـ مسنيسا، وكما حازها من بعده مسيبسا ويوغرطة. وفوق ذلك، فإن العدد بعيد عن الصواب، إذا كان حقيقة يعني احصاء المهار، أي لحيوانات المولودة خلال السنة التي تجري بين إحصاءين. فهذا يفترض مجموعاً لا يقل عن مليون من الخيول من جميع الاعمار، بينما في ايامنا هذه ليس في الجزائر اكثر من 220.000 منها. وليس بالقطر التونسي سوى 40.000. فلو كانت هذه الفقرة لسترابون تذكر 10.000 مهر عوضا عن 100.000، أو لو أنها ذكرت 100.000 فرس عوضا عن 100.000 مهر لاوحت لنا بالثقة.

ولكن عندما يؤكد الجغرافي سترابون عناية الملوك بتربية الفرس، فالاكيد انه على صواب. فهؤلاء الامراء كان يهمهم ان تكون لديهم خيلة قوية لاستمرار سيطرتهم. ولابد أنهم كانوا كرعاياهم يحبون ركوب الخيل والانطلاق بها، إما في الصيد واما في الحرب. وهذا مستنبغل احد ابناء مسنيسا اخذ من إسطبلاته مهارا قادرة على أن تذهب سنة 168 و 164 ق.م وتنال الجائزة في سباق البناثيني Panathenees [161].

ولافرس مرسوما على ظهر عملات سيفكس، وورمينا، وتقريبا على جميع العملات التي عليها صورة مسنيسا، والتي سكها هذا الملك ومن خلفه على الملك. وصحيح أن ذلك كان تقليدا للنقود القرطاجية، غير أن المول الاهالي ما كانوا ليعتمدوا هذه الصورة لو لم تكن لديهم مقبولة، ولو لم يروا انها صالحة نوعا ما لتكون رمزا لبلادهم. فسرتا Cirta ومدن أخرى واقعة – على ما يبدو في نوميديا – رسمت صورة الفرس على عملاتها[162].

والرسوم غير متقنة تماما. ولكنها مع ذلك كافية لتمكيننا من أن نعرف على هذه النقود، كما على نقود قرطاجة، أجداد سُلالةُ ، البرْب Barbe ذات الخلقة الثقيلة، المربوعة، والرأس الغليظ، والعنق العريض والعرف الوافر، والظهر المقعَر، والكفل الرداح والسيقان القصيرة. هذه هي الخيول الصغيرة، الهزيلة، البشعة التي تحدث عنها بعض الكتب. يقول لشاعر اللاتاني الإفريقي نيمْسيان القرطاجي Némésien de Carthage ، الرأس بشع والبطن مشوّه... والعرف يضرب الأكتاف الناهرة . وحين تنطلق مسرعة تمد رأسها فيمتد في غير رشاقة وبجفاء امام لعنق، ومظهرها العام. هو في آن واحد خشن ووضيع. ولكن خيول البرْب لها مزايا لم يجهلها القدماء، مزايا جعلت منها مساعدات رائعات في الحرب.

ولى المزايا القناعةُ والمكابدة، إن خيول النوميديين تتحمل إذ. لزم الامر العطش والجوع. يقول أپْيان Appien «إنها لا تعرف الشعير، ولا تأكل سوى العشب وشربها قليل». وهي لا تتطلب عناية، بحيث إن المرء لا يتعب نفسه في حكها وغسلها، وتنظيف سنابكها، وتمشيط أعرافها. والفارس عندما ينزل عن دابته بعد رحلة طويلة، لا يعود له بها أي اهتمام وإنما يدعها بسهولة تبحث عن قوتها في المروج المجاورة، وإن كانت هذه المروج هزيلة في الغالب.

وهذه الحيوانات طبيعة وتروّض بسهولة، ويمكن للأطفال أن يمتطوها. والبعض منها يتبع سيده وكأنه كلب. وتعجبها نغمات الناي الذي يستعمل أحيانا في توجيه حركاتها وتنسيق سيرها.

وهي تصبر على العياء. وتقطع إذا لزم الأمر مسافات طويلة. كما انها سريعة في عدوها، وخطاها ثابتة، وتمر في أشد الأراضي صعوبة.

وقد استخدما الأفارقة زمنا طويلا مثل شعوب أخرى في الحرب بأن شدّوها مَثْنى ورباع إلى العربات. فهناك نصوص تذكر وجود هذه لعربت في القرن الخامس ونهاية الرابع عند بعض العشائر بالقطر لتونسي. ولربما أن الأهالي تخلوا عنها مع القرطاجيين في نفس لوقت. ذ نـ لا نجد في عهد الحروب البونيقية وبعدها، عند النوميديين و لموريين سوى الفرسان. ويذكر سترابون العربات عند الفروسيين Pharosii وعند النكريتيين Nigritae أي الاثيوبيين لذين كانوا يعيشون بجنوب الاطلس الأعلى المغربي. ولكن يحتمل أن نستنتج أن لفروسيين كانوا في القرن الاول ق م يركبون الدواب غير مقرونة إلى عربات.

ولا يبدو ان الأهالي استخدموا خيولهم التي هي صبورة اكثر مما هي قوية في الأعمال الكبرة كجر عربات الاثقال أو كالعمل جيئة وذهوبا بالمحرث. فلقد كانوا يستخدمونها في نزهاتهم وهجراتهم ليريحوا انفسهم من السام ومن متاعب المشي على الأقدام، ويستخدمونها في جولات الصيد، وفي الحرب على الخصوص. وقد اشتهروا عن حق بأنهم فرسان ممتازون، وكذلك كانوا منذ ولادتهم.

وكانوا يمتطونها عادة بدون سروج، وذلك ما يشهد له في آن واحد لكتب والصور المرسومة. فمسنيسا في سنته الثامنة والثمانين كان كرعايد بأنف من استعمال السرج. والفرس كان يبقى عاريا تماما، أو لبس عليه سوى طوق في عنقه. والطوق إذا لم يكن لمجرد الزينة، فيمكن ستخدامه لتعلق به بعض التمائم. وأكثر الأهالي لم يكونوا يستعملون لشكائم ولا اللجم. ومع ذلك فقد رأينا أن جيوش يوبا الاول، كان لنظاميون فيها قد تزودت بالشكائم واللجم خيولهم، وبهذا كانوا يتميزون

عن الحشود التي بعثت بها القبائل. وكذلك لم تكن هناك مهاميز. وكان الد . ن يتم تسييره بقضيب خفيف، وربما كان يسير في الأغلب بالضغط عليه بالركبة ضغوطا بسيطة، وإذا دعت الحاجة فبحركات سريعة من اليد.

4

لابد أن زراعة الحبوب قد دخلت إلى بلاد البربر منذ عهد عريق في القدم، بعيدا قبل الاستيطان الفينيقي. وكانت قد انتشرت بشرق لقطر التونسي قبل ان تقيم به قرطاجة سيطرتها. وبلغت هذه لزر عة حتى الصحرا.. ثم اتسعت في المنطقة التي أصبحت هي المنطقة البونيقية. ولا شك أنها لم تكن مهملة حول المدن الفينيقية والقرطاجية المتتابعة على السواحل قبل جبل طارق وبعده، أي حينما كان المستوطنون يجدون الضواحي الواسعة. ولربما أن هذه الأمثلة احتذاها لأهالي الذين، وإن لم يكونوا تابعين لقرطاجة، فانهم كانو يعيشون بجوار منطقتها ومستوطناتها.

ومع هذا. فان مسنيسا هو الذي يعزو له پوليب Polybe وغيره، كسترابون Strabon وڤلير مكسيم Valere Maxime و پين، إدخال الزراعة إلى نوميديا. يقول پوليب . «إليك أعظم وأجمل م فعه. فكر نوميديا كانت قبله غير نافعة، وتعتبر غير قادرة بطبيعتها عى ن تعطي منتجات زراعية. فكان هو الاول والوحيد الذي أبان أنها يمكن أن تعطي كل المنتجات، وبالقدر الذي يعطيه غيرها من المناطق. لانه جعل يستثمر استثمارا جيدا مساحات كبيرة جدا». وتقرأ في سترابون قوله «كان مسنيسا هو الذي حول النوميديين إلى اجتماعيين وجعل منهم مزارعين»[163]

لاشك أن هذه الأمداح مبالغ فيها. ولكن مسينيسا، إذا لم يكن هو لمعلم الأول، فإنه كان المروّج الحازم للحياة الزراعية في الدولة لشاسعة الأطراف التي عرف أن يكونها. وفي هذا وجد مصلحته المكبة. ذلك أن الرعايا المرتبطين بالأرض، المتمتعين بالكثير من اليسر، يصيرون أكثر هدوءا، وأكثر استعدادا لطاعة السيد لذي يستطيع معاقبتهم بإتلاف محصولاتهم، ويكونون أقدر على اداء لضرس التي يفرضها. وبنظرة سامية لم تغب عن الملك الإفريقي لكبير، فإن تنمية الزراعة كانت شرطا ضروريا للتقدم الحضاري.

ملك مسينيسا المدن البحرية التي بنوميديا وعلى سواحل السدّرتين، وكانت خاضعة من قبل لقرطاجة. واستولى على قسم من لمنطقة ،لبونيقية، كما استولى على السهول الكبرى بمجردة، وموسطة تونس. وهي مناطق صالحة لزراعة الحبوب. فهو بهذا قد استولى على عدد كبير من المزارعين. ولم يكن بحاجة لتلقي الدروس من خارج ممكته نفسها. ومن بين رعاياه فالذين يريدون أن يشتغلوا كانت سلطته لقوية تبعثهم على الامل في انهم لن يحرموا من قطف ثمار عملهم. ولاشك ،نه اتخذ التدابير لتوسيع مجال الزراعات، وذلك بان ضيّق مجالات التنقل على الذين استمروا في العمل بتربية الماشية وحدها، وبان ضمن للقبائل المتعاطية للزراعة ملكية أراض ذات حدود ثابتة. لا يدخلها لرحّل إلا في أحوال معينة، بصفتهم ضيوفا، لا غزاة ولا ناهبين. ولكن لا علم لنا بشيء في هذا المضمار.

وليس من قبيل الصواب أن يكون الانتقال من الحياة الرعوية إلى الحياة الزراعية قد حدث فجأة. فهاتان الحياتان يمكن أن تتوافقا. ذلك ان لحبوب لا تطالب بالمجهود الإنساني إلا في حقبتين من السنة، ،ي

عند الحرث المصاحب لرمي البذور وعند الحصاد. وتعاهد القطعان يعطي الدواب المستخدمة في الحرث وفي الدراس، وفي نقل المحصيل. وعادة إراحة المزارع كانت تترك للماشية الأرض فتغنيها بروثها، وتجعلها أكثر صلاحية لتقبل البذور من جديد. أما الحشفات فكانت تقوت الماشية لبضعة أسابيع بعد الحصاد الذي لا يقطع سوى السنابل ثم تساق القطعان بعد ذلك إلى الغابة أو الجبل حين ينعدم النبت في منابته وينتهي العلف المخزون ولربما أن المواشي بالنواحي كانت بعد الحرث ورمي البذور تساق إلى الجهات هواؤها الطف. فنعش بها طول فصل الشتاء. ولكن حينما تعرف قبضة الملك القوية كيف توفر الأمن، فيكفي إما وجود بعض الحراس للسهر على القرية وعلى مخزن الحبوب، وإما وجود بعض الرعاة لسوق القطعان في رحلتها.

على أن الزراعة لم تكن لتستولي دفعة واحدة على جميع الأراضي التي كانت صالحة لها. إذ لاشك أن عمليات استصلاح الاراضي اقتضت زمنا طويلا. واثناء القيام بها بقيت تربية الماشية ضرورة لازمة. وكان لابد على الخصوص من مصارعة النباتات والعكاشات ذات الجذور المتمكنة والعميقة من دوم وعناب شائك وغير ذلك مما كان ينتشر على السهول. وكان اقتلاعه هو العمل المستمر لعدة اجيال من الناس. هكذا تهيأ في صمت ازدهار إفريقيا الرومانية. ولابد أن الهجوم وقع أيضا على الغابة، إذ كان يسهل ايقاد النار بها وتسميد التربة بالرماد الذي يخلفه الحريق. وكان ذلك أيضا وسيلة للقضاء على كارثة الوحوش. لكن الاراضي الغابوية كثيرا ما تكون قليلة الخصب، فيحسن المحافظة عليها كمراعي للصيف، ولو أن الكثير من الأهالي غافلون عن هذا ولا يعيرونه أي اهتمام.

ولا تعوز السواعد في الأعمال التمهيدية ولا في الأشغال السنوية لضرورية للزراعة. فالأهالي كان عددهم كثيرا كما ان نَسْلَهم كان كثير، بحيث إذا قبلوا القيام بالمجهود الضروري، فلا داعي لتقوية عددهم بعناصر أجنبية. وقد رأينا أن الكثير منهم لا يبذلون هذا المجهود، ويستمرون في تعاطيهم لتربية الماشية وحدها.

على أن النتائج التي حصل عليها مسنيسا تستحق الإعجاب مع ذلك. فلقد اراد أن بكون بنفسه مثالا لرعاياه. يقول ديودور الصقلي «إنه برع في الأعمال الزراعية إلى حد انه ترل لكل واحد من أبنائه ارضا سعتها 10.000 بلْثر Plèthres[104]، مزوّدة بالأدوات الضرورية لاستغلالها» وبعد موته لم يتوقف الاندفاع الذي أعطاه للزراعة. بحيث إنها كانت مزدهرة في عهد يوغرطة في قسم كبير من نوميديا، وكذلك لشأن في عهد يوبا الاول. إلا أن الحروب والفتن التي تعاقبت من نهاية القرن الثاني إلى الفتح الروماني احدثت أزمات متفاوتة في طولها وقصرها وخطورتها.

ولاشك ان موريطانيا قد كانت متاخرة عن نوميديا. يقول بمْبونْيوس ميلا [105] «إن تربتها احسن من أهلها». لأن أهلها لم يسُدهم أحد مثل مسِنيسا.

كانت الحبوب التي يزرعها الاهالي، كما بالمنطقة البونيقية، هي القمح والشعير. وكانت سنابل القمح مصورة على عملات بعض الملوك، مثل مَسْتابسوسْنْ (؟) وبوكوس الصغير، ويوبا الثاني، وبْطلمي، كما كنت مرسومة على نقود مدينة سِرْتا وعدة مدن بحرية بموريطانيا. ومند نهاية القرن الثاني ق.م استطاع مسِنيسا أن يبعث في عدة مناسبات القمح والشعير إما إلى رومة وإما إلى الجيوش الرومانية المتحربة

بالمشرق. وكان ما يبعث به عدة مئات من آلاف البُواصُو وفي إحدى المرات بعث مليون بُواصُو[166] كما بعث مسينسا قمحا لجيوش رومانية كانت تحارب في سرْدانية.

لقد سبق أن رأينا في تصريح لقيصر أورده بلوتارك Plutarque، أن الولاية التي أحدثت سنة 46 ق.م لابد أن تغل سنويا للشعب الروماني 1200 000 بواصُو من القمح (105 000 هكتولتير) تجبى حسب ما يعتقد على أنها ضريبة. فإذا فرضنا أن هذا القدر كان عُشْر محصول متوسط، فيكون هذا المحصول إنما يفوت بقليل مليون هكْتولتر لمجموع الأراضي الخاضعة لهذه الضريبة. وفي هذه الحالة يجب الاعتراف بأن ذلك لم يكن كثيرا. والمنطقة التي تحدّث عنها قيْصر لم تكن هي كل مملكة يوبا، لأن القسم الغربي من هذه المملكة، وهو منطقة سرْتا، كان قد اقتُطع منها ليكون دولة حقيقية، وأعْطي لسِتْيوس Sittius وأعفي طبعا من تحملات الضريبة تجاه رومة. لكن الولاية الجديدة كانت تشمل الشمال الشرقي للقطر الجزائري والشمال الغربي للقطر التونسي وموسطته، حيث تمتد أحسن أراضي القمح على مسافات شاسعة. فيحسُن التساؤل إذن هل إن 1.200.000 إنما كان يمثل ضريبة خفيفة الوقع جدا ؟ ثم هل كانت الفقرة التي أوردها بلوتارك تشتمل على بعض الغلط ؟ ثم هل أن ثروة نوميديا من الحبوب في عهد الملوك الأهالي لم تكن مبالغا فيها ؟ ويمكن تقديم افتراض آخر، وهو أن الامر لا يعني ضريبة ما، ولكنه يعني ما تغله للشعب الروماني الضيعات الملكية التي أصبحت ملْكا له (أي الشعب الروماني). فيكون قيْصر قد أكرى استغلال هذه الضيعات، ويكون على المكترين الملتزمين أداء المقادير المحددة قمحا، لا مالا كالمعتاد. وفي الأخير فمن المجازفة أن نستخلص من هذا النص

استنتاجات مدققة عن الانتاج الزراعي بنوميديا الشرقية في أو سط لقرن الأول ق.م.

ويبرهن على الأقل، أن هذه المنطقة كان قسم كبير من سكانه يتعطون لزراعة الحبوب. وكذلك كان الأمر في القرن السابق. ففي عهد يوعرْطه كانت ڤاگا (مدينة باجة) سوقا كبيرة تجتذب الكثير من الإيطاليين. وكما هي الحال اليوم في باجة كان لاشك يباع فيها الحبوب من محاصيل ناحية السهول الكبرى التي تخترقها نهر مجردة بالجنوب لغربي للمدينة. ولما خرج الجنرال الروماني ميتلوس Metellus من ولاية إفريقيا الرومانية، واقتحم المملكة النوميدية سالكا طريقا غير بعيد عن ڤگ، فإنه التقى بكل مكان بالمزارعين. كما عرض عليه القمح حيثما توجه. وتحصد الحبوب كذلك بناحية سكا (مدينة الكاف)، وبغرب هذه المدينة كانت شواطئ الموثول (وادي ملاق Oued Mellegue) يسكنه لمز رعون. وبعيدا عن هذا إلى الغرب، فإن سرتا تحيط بها حقول لقمح، لأنها رسمت، في القرن الأول على ما يحتمل، سنابل القمح على بعض النقود.

في سنة 117 ق.م. قسمت مملكة مسنيسا ومسبسا بين أذربعل ويوغرطة، فحاز الأول منها القسم الشرقي من الولاية الرومانية إلى ما بعد سرتا، المدينة التي كان يقيم بها. أما الباقي حتى موريطانيا إلى ملوية، فناله يوغرطة. ولكن سالست كتب عن هذا التقسيم فقال بأن نصيب هذا الأخير كان أكثر غنى بالأراضي الزراعية وبالرجال. اما قسمة أذربعل فكانت أكثر اشتمالا على الموانئ والمباني، وكان مظهرها أكثر من قيمتها الحقيقية. ويوجد مثل هذا الخبر عند سترابون، فهو يؤكد أن القسم، من ارض الماسيسيليين، المجاور لموريطانيا هو القسم الذي

يغلّ أكثر، وبه أكثر الموارد، بينما القسم الذي هو من جهة المنطقة القرطاجية وأرض المَسيليين فإنه الأكثر ازدهارا والأحسن استغلالا. ولعل سالُسْت وَسْترابون قد نقلا هنا عن نفس الكاتب الذي هو بوسدونيوس Posidonius. وليس أكيدا أن تكون هذه الأقوال صحيحة قطعا. ذلك أن القسم الذي حازه يوغرطة كان يشمل التل بولايتيْ وهران والجزائر وبغرب ولاية قسنطينة، حيث توجد أراض حسنة للقمح خصوصا حول سيدي بلْعبَاس وسْطيف، بينما القسم الذي حازه آذرْبعْل، كان من جملة ما به أراضي سِرْتا، وسِكّا، والسهول الكبرى لتي تشهد الوثائق الصحيحة بنمائها الزراعي فيبدو جيدا أن الفائدة كانت في صالح نوميديا الشرقية. ولكن نوميديا الغربية كانت هي أيضا تبدو بوجه لائق.

فمن الولاية الرومانية إلى موريطانيا، كانت الحبوب قد انتشرت من خلال جميع المنطقة المجاورة للبحر الابيض المتوسط، بجميع التل الجزائري، ولكنها مع ذلك لم تشغل جميع الاراضي التي كانت صالحة لها. إذ كان هناك – كما لاحظ ذلك بمْبونْيوس ميلا، أو الكاتب الذي نقل عنه ميلا – بعض المزارعين الذين لم يكونوا في عاداتهم يختلفون عن المزارعين في أوربا الجنوبية.

وإذا كانت الزراعة في موريطانيا قليلة الازدهار، فإنه لم تكن مهينة بكل مكان. وذلك ما تشهد له السنابل المرسومة على النقود المسكوكة في القرن الأول ق م أو بعده، وسكّتها مدن على ساحل الأبيض المتوسط أو مدن على ساحل المحيط مثل تنْجي (طنجة)، وزيلي (أصيلة)، ولِكْسوس (تشمش)، وسلا، وهذا دون النقود التي لم يمكن

التعرف عليها بتدقيق. وحتى الجيتوليون أنفسهم - هؤلاء الرعاة الحقيقيون - فلربما انهم لم يمكثوا اجانب تماما عن زراعة الحبوب.

إن أراضي الشمال الإفريقي، وهي أرض الماشية، قد أصبحت ايضا المنطقة الخصبة بالحبوب كما تحدث عنها سالُستْ. بل إن ذكر خصبها قد بولغ فيه. ففي القرن الخامس ق م سمع هيرودوت من يقول بأن وادي الكينبس Cynips، بين السدرتين يعطي به القمح محصولا يبلغ إلى ثلاثمائة حبة مقابل حبة زريعة واحدة. والمنطقة البونيقية القديمة التي حولت إلى ولاية، فيها الناحية المحيطة بهدْروميت (سُوسة) وكان يقال عنها إنها تعطي محصولا من 100 او150 مقابل واحد. ويحكي سترابون أيضا حكايات عجيبة أثناء حديثه عن الماسيسيليين سكان غرب وموسطة القطر الجزائري، فيقول [167] «البعض منهم يعمرون اراضي تغل مرتين، فيجمعون محصولين، واحدا في الصيف وآخر في الربيع. وساقُ النبات يبلغ طولها خمس أذرع – 2.20 م - كما يساوي غلظها غلظ الاصبع الصغيرة. والمحصول هو 240 مقابل واحد. وفي الربيع لا يرمي الناس البذور، وإنما يكشطون التربة بمكنسات تتكون من اغصان شائكة، وبهذا فالحبوب التي سقطت على الارض اثناء الحصاد تكون كافية لتعطي غلة كاملة في الصيف». هذا حديث خرافة، لأن هذه المحاصيل المرتفعة جدا، التي كانت تعزى ايضا حتى في العهد الإسلامي لجهات مختلفة من أرض البربر، لايمكن أن تكون طبيعية، وفي الحالات التي تأكدت فيها حقيقة، فانها لم يكن لها سوى أهمية إحدى أعاجيب علم النبات. على ان جمع محصولَيْن أمر ممكن، وقد ذكر منذ الاعصر القديمة ولكن تحت سماء حارة جدا، وفي أراض سقوية، وليس في الاحوال التي ذكرها سترابون، إذ لابد طبعا من رمي بذور

جديدة، وعادة ما يقع الاختيار على مزروع ثان مغاير للأول، كالذرة البيضاء مثلا بعد القمح، لأن محصولين اثنين متتابعين من لقمح و الشعير ينهكان التربة.

ولا نعرف شيئا عن الطرائق المستعملة في الحرث والحصد ولا عن الأدوات الزراعية. فالمعزقة التي بقيت في كنارْيا أداة لعمل عند الكوانش Guanches، والتي لا تزال مستعملة بالواحات الصحر وية، ربما تكون قد سبقت المحراث في بلاد البربر، ثم اختفت من لوجود لم ظهر المحراث. وقد عثرنا في أنصاب بونيقية على رسوم لمحاريث مشابهة للمحراث البسيط البالغ الانتشار اليوم بشمال إفريقيا. وتوجد أنواع أخرى عند الأهالي، ولاشك أنها ترجع إلى عهود عتيقة جدا. وكل هذه الأدوات لها تكوين بسيط جدا، بل إن منها ما له سكة هي عبارة عن رأس من عود اكتسب القساوة بالنار، وليس قطعة من حديد. فما هو أصل هذه المحاريث المختلفة ؟ نجهل ذلك. لكن هناك ملاحظة مفيدة نتبه لها بعضهم، وهي ان البربر استخدموا الفاظا من لغتهم لتسمية مختلف القطع المكونة لجسم محراثهم نفسه، ولم يستعيروا أي لفظ من اللغة البونيقية ولا من غيرها. وعلى عكس هذا، فانهم يستخدمون بعض الألفاظ التي هي من أصل لاتاني لتسمية بعض القطع في قر ن الدو ب. فلربما يمكن أن نستنتج من هذا أن المحراث عندهم لم يكن أد ة مستوردة من الفينيقيين، وأنهم في العهد الروماني فحسب أكملو صنعه باتخاذهم لطرائق قران الدواب التي كانت مستعملة عند سـد نهم. وكان الحصاد يتم بالمنجل، بقطع سيقان النبات قريبا جدا من السنبل. أما المقضب Haie فلم يجر استعماله بشمال إفريقيا قبل الفتح الفرنسي. وكما هي الحال اليوم، فإن الدراس غالبا ما يسند إلى لحيو نات المأنوسة التي تدوس السنابل في القاعة.

وكان لابد أن توضع في مأمن الحبوبُ التي لم تُبع مباشرة بعد حصدها. والتي لم تدفع إلى جابي الضرائب. والتي يحتفظ بها في لمنزل لقوت المعتاد. ونحن نعرف المطامير والمخازن التي تحدث النصوص[168] عن وجودها بولاية إفريقيا في أواسط القرن الاول ق.م. و لتي يرجع استعمالها بالتأكيد إلى عهد بعيد جدا. ومن المحتمل أن الاهالي خارج المنطقة القرطاجية قد كان لهم مخازن للحبوب لم يقتبسوا من الفينيقيين هذه الطريقة في حفظ الحبوب. وهي طريقة ستعملتها شعوب أخرى منذ عهد بعيد. والأسبانيون استعملوها منذ العهد الحجري الجديد. وليس لدينا على هذا برهان. وحفر المطامير يجد تبريره على الخصوص قرب الضيعات والمداشر التي تجاور مباشرة الحقول المحروثة. فبهذا تُخْفى المحاصيل وتنقذ من محاولات النهب والمصادرة.

ولكن المزارعين الاهالي على العموم لم يكونوا يعيشون منبثين في البوادي، بل كانوا يتجمعون ليسكنوا في قرى وحلل Agglomérations، مزودة بتحصينات طبيعية او مصطنعة. إلى هنا كانت المحاصيل عادة تنقل وتوضع تحت حماية جماعة السكان، ولا داعي لإخفائها. وإذ كان للمطامير مزية صون الحبوب عن النار، فإن الأرض التي اقيمت عليها القرية، غالبا ما كانت من صخر صلد، وكان حفره شاقا جدا. كما أن لأرض في ناحية أخرى قد لا تمنع الماء من النفاذ منعا جيدا كي تصان المخزونات من خطر التعفن. وجل البربر المتجمعين في جماعات قروية لهم مخازن غير محفورة في باطن الأرض، وتحتوي زيادة على الحبوب أشياء أخرى مما يراد حفظه.

وفي جهات مختلفة تكون هذه المخازن متجمعة، بحيث يمكن أن يتكفل بها حراس غير عديدين، يبقون وحدهم، بينما بقية السكان يغيبون غيبات تطول وتقصر إما في حرب وإما للانتجاع بالقطعان. وتقدم المخازن في أعلى القرية، أو فوقها او بجانبها في مواقع يصعب تماما الوصول إليها، ويسهل الدفاع عنها. فتجد هنا بنايات من عدة طوابق بها سلسلات من الغرف التي يملكها شيوخ الاسر. ونجد هنالك حصونا حقيقية لها أبراج في الزوايا، قادرة على مقاومة الحصار، ولكن عادة يضا بها مكانها. وفوق هذا، فان مجموعات للمخازن أو الحصون تستعمل لحفظ الحبوب وغيرها من الأشياء حتى في الأمكنة التي ليست مراكز للسكنى. كالمخازن المشتركة عند القبائل التي يعيش أفرادها حوالبها هنا وهناك، أو عند قبائل الرحل التي تجوب البراري في الشتاء وتذهب في الصيف إما الى التل واما الى الاطلس الصحراوي. فبالتأكيد هناك عادات قديمة جدا في هذا المجال. ولعل الاماكن المحصنة أو بعضا منها على الأقل كانت هكذا، إذ كانت تراكم فيها المحاصيل في عهد يوغرطة، لا في جميعها لان هذا الاسم (الاماكن المحصنة) لعله أطلق على بعض القصور الملكية.

والحبوب التي اختزنت هكذا، كان قسم كبير منها مخصصا لطعام الذين حصدوها، ولابد من بعضها ليرمى بذورا. وكان من المناسب توفير احتياطي كبير نظرا لعدم انتظام الانتاج بسبب تقلبات الطقس الإفريقي. أما الباقي فكان يدفع ضريبة عينية أو كان يباع.

ولاشك كان هناك ثلاثة أنواع من المشترين. وهم اولا الرعاة الذين يعوضون بالمقابل الصوف والجلود والدواب[169]، ثانيا أهل المدن الذين كانوا يبيعون المنتجات المصنوعة في مدينتهم او المستجلبة.

وثالثا لتجار الكبار مما وراء البحار. وقد قلنا ان العملة الذهبية و لفضية كان جميعها يأتي تقريبا من الخارج، ومن بين المنتجات الإفريقية التي كانت تستعمل في شرائها كانت الحبوب على ما يبدو تأتي في المقام الأول. فالتجار الإيطاليون العديدون الذين كانوا يترددون على دكا Vaga وسرتا Cirta، بل ويسكنونهما، كانوا على الراجح يعقدون صفقات الحبوب. وكان الملوك بالضرائب وبمحاصيل ضيعاتهم يتوفرون على كثير من القمح والشعير. ولاشك انهم هم الذين كانوا يبيعون منهم أكبر نصيب لهؤلاء الأجانب. ولكن رعاياهم كانوا دون شك يفتدون بهم. إن هذه المضاربات كانت تستلزم وجود الوسطاء، وأماكن للبيع، وأسواق ومعارضات في البوادي وعند ابواب المدن. ونظاما للنقل يعتمد – نظرا لانعدام الطرق – على البردعة أكثر مما يعتمد على العربة، وتستلزم وسائل الاحتراس، بل ربما عقود الوقاية لتلافي اللصوصية. ولكن جميع هذا لم يصلنا عنه أي خبر.

5

إن جل السكان المستقرين الذين يعيشون على ضفاف البحر الأبيض المتوسط، يتعاطون في عهودنا هذه لزراعة أشجار الفواكه والخضراوات. وبلاد البربر تتميز في هذا المجال بظروف حسنة. ولم يجهل الفينيقيون هذا. بل إنهم ساعدوا عن سعة في تنمية غراسة الأشجار بهذه المنطقة. وإذا كانت الدالية وشجرة الزيتون وشجرة التين أشجارا أهلية بها، فمن المحتمل أن يكون الفينيقيون هم الأولين الذين استنبتوا هذه الأشجار بالمنطقة، ولعلهم استجلبوا أنواعا ذات أصول شرقية، ولقحوا الأشجار البرية، واستعملوا التأبير لأشجار التين.

وبصفة عامة أدخلوا جميع ما كان عندهم منذ قرون يكوّن فنّ البسْتنة. وفي إفريقيا انتجوا الخمر والزيت كما في وطنهم. ولربما أنهم أثروا البلاد باشجار جديدة كشجرة الرمّان مثلا. لقد سبق أن رأينا أن غراسة الاشجار كانت مزدهرة في المنطقة البونيقية، وعلى الأقل في الضيعات التي يملكها القرطاجيون، لان رعايا الجمهورية كانوا يظهرون مزارعين ومربّين للماشية على الخصوص. وكذلك فان زراعة البقليات قد ازدهرت في ناحية قرطاجة.

أما الرياض وبساتين الزيتون والدوالي والفاكهة عموما فإنها أيضا انتشرت انتشارا متفاوتا حول عدد من المستوطنات البحرية الممتدة منذ المحيط حتى السدرتيْن. ولم تنقرض حين دخلت هذه المدن تحت سيطرة الملوك النوميديين والموريين. ونجد عناقيد العنب ممثلة على عملات ضربت في القرن الاول ق م في لكْسوس. وسلا. وفي أمكنة أخرى بموريطانيا لم يقع التعرف عليها بالضبط. وعلى عملات من كُنوكو Gunugu (بغرب شرْشال) نجد العنقود يصاحب إلاها أعطيت له سمات ديونسوس Dionysos. وبين السدرتيْن، فإن مدينة لبْتيس الكبرى Leptis Magna كانت قد وقعت في يد مسنيسا، ومكثت في حكم من خلفوه إلى سنة 111 ق.م. وانفصلت في هذا التاريخ عن يوغرطة، وأصبحت مدينة صديقة وحليفة للشعب الروماني. مفصولة عن ولاية افريقيا Africa بالمملكة النوميدية. وقد تكون فوق منطقتها الترابية الواسعة بساتين واسعة للزيتون بحيث إن يوليوس قيصر فرض عليها سنة 46 ق م غرامة سنوية مقدارها ثلاثة ملايين لبرة من الزيت.

ولكن الأهالي لا يبدو أنهم تسارعوا إلى تقليد المثال الذي ضربه لهم معمّرو المستوطنات الفينيقية والقرطاجية. ويحتمل ان بعضا من

مدن الداخل وسرْتا العاصمة على الخصوص، قد تكون أحيطت بحزام من البساتين التي استعملت خضراواتها وفواكهها للاستهلاك المحلي. ويحتمل أيضا أن استنبات الزيتون في بعض الجهات قد أخذ ينتشر بتلقيح الغرانس البرية أكثر مما كان بالغرس. ان البربر كالعرب يستخدمون لفظة «زبّوج» ذات الأصل المشترك فيه. ويطلقونه على شجرة الزيتون البري، ويستخدمون كذلك لفظا من لغتهم هو «رمّور» إما بنفس المعنى وإما بمعنى الزيتون البري الملقح. أما فيما يخص الزيتون المغروس والزيت فانهم يستخدمون لفظين من أصل سامي، فينيقي على غلب الظن، وهما زيتون وزيت، مما يساعد على الاعتقاد بانهم في مجال غراسة الزيتون قد كانوا تلامذة للفينيقيين.

ومع ذلك، فقبل العهد الروماني كانت غراسة الأشجار عند الاهالي لاتزال قليلة الازدهار. وحسب سالُسْت فان تربة إفريقيا لا تنسب للأشجار، وهو قول يمكن ان ينطبق على اشجار الفاكهة كما ينطبق على أنواع الاشجار الغابوية. وحسب پْلين الشيخ Pline l'Ancien، فإن الزيت والخمر هبتان طاب للطبيعة ان تحرم منها إفريقيا الموهوبة كلها إلى كيريس Ceres ربة القمح. وكل منهما قد بالغ في قوله. ولكن المؤكد هو أن الجهات الواسعة التي كُسيت بالأشجار بعد عهد پْلين، قد كانت لا تزال عارية في عهد يوغرْطة وسالُسْت. ففي السهول الممتدة جنوبي الهضبة الوسطى التونسية خلف الرومانيون بكل مكان معاصر للزيت الشاهدة على تعدد ما كان لهم من بساتين الزيتون. وقبلهم كان هناك، مثلما عليه الحال اليوم براري متجهمة. إن مدينة كَپْسا (مدينة قفْصة)، كما يقول سالُسْت، تقوم وسط أراض شاسعة موحشة. وباستثناء الجوار المدينة فان البلاد كلها مقفرة، عارية، ليس بها ماء، وتعبث فيها الحيات. وموقع تْهالة Thala شبيهٌ بها، إذ بين تْهالة وبين أقرب نهر اليها يبعد

عنها بخمسين ميلاً - لا يوجد سوى مسافات مقفرة قاحلة. وقد فر يوغرطة من هذا المكان مخترقا أراضي شاسعة موحشة. ويقول سترابون بدوره إن كل المنطقة الواقعة بداخل الأراضي قفراء منذ أرض الماسيسيليين إلى السدرتَيْن.

والنوميديون عندما يستطيعون، فإنهم يقدّرون للخمر قدرها وبأكثر مما ينبغي. ولكن هذه الفرص السعيدة كانت قليلة، لأن الخمور التي كانت تأتي من وراء البحار، أو التي كانت تصنع حول المدن البونيقية، لم تكن تصل إليهم. أما هم فلم يكونوا يصنعونها، او كانوا يصنعون منها قليلا جدا. وإذا كان البربر قد استعملوا الإسم الفينيقي لشجر الزيتون المغروس، فإنهم استعاروا من اللغة اللاتانية، في مختلف لهجات، الأسماء التي تدل على الأشجار المغلّة الأخرى، لذلك فيحتمل ان هذه الأشجار لم تعرف أبدا قبل العهد الروماني.

وهذا الابطاء الحاصل في اتساع غراسة الاشجار عند الأهلي في افريقيا يمكن تفسيره دون عناء. ذلك أن الاشجار المغلة لا تنتج شيئ طوال سنين عديدة، ثم لابد من انتظار بعد ذلك مدة أطول لتغل كامل غلتها، بحيث يتطلب ذلك نحوا من عشرين سنة بالنسبة لشجر الزيتون، ولا يمكن للمرء القيام بهذه الزراعة إلا اذا كانت لديه وسائل أخرى يعيش منها طوال المدة العقيمة، وإلا إذا كان يعتقد أنه سيمكث نهائيا في المكان الذي غرس به الأشجار، وإلا إذا كان لا يخشى حدوث الكارثة المفاجئة التي لا يمكن تلافيها والتي قد يسببها الأعداء بقطعهم للاشجار. وخلافا لهذا، فمن يعني نفسه بتحصيل التجارب، ويرهق نفسه بالخدمات التي يتطلبها تلقيح الأشجار وتشذيبها وسقيها وغير ذلك غير

أن هذا الأمن لم يكن متوفرا تماما حتى في عهد حكم الملوك الحازمين. وزيادة على هذا، فخارج أرباض المدن، حيث كانت الأسواق المحلية تتمون، كانت هناك زراعات ليس في الامكان أن تكون مربحة إلا بشرط العثور على اسواق ذات اهمية كبيرة. ولكن الأهالي على العموم لم يكونوا اثرياء ليكونوا مشترين صالحين. وينبغي عدم التفكير في وسق الخمر للخارج، لأن جزيرة رودس Rhodes وإيطاليا كانتا تبعثانه إلى افريقيا. أما الزيت فكان يمكن أن يكون موضوع تجارة نشيطة إلى ما وراء البحار، ولكن كان لابد من مزاولة صناعتها بعناية كبيرة لتنافس زيت إيطاليا ومناطق أخرى بالبحر الأبيض المتوسط.

لكن وجدت بعض الأمكنة، هي الواحات المتناثرة جنوبي بلاد البربر، حيث كان للحياة المستقرة شرط هو غراسة شجرة ذات فكهة، هي نخيل التمر. وأسفل النخيل يمكن غرس اشجار مغلة أخرى، وكذلك القمح والشعير باستخدام محرفة البستاني، لا محراث المزارع. في القرن الخمس ق.م عدد هيرودت Hérodote عدة مواقع مسكونة بالصحراء الشمالية. ومع ان معلوماتنا لا يمكن ان تصعد لما قبل هذا التاريخ، فمن المحتمل ان تكون الواحات يرجع لتاريخ أقدم من ذلك بكثير، وهناك ما يسوغ الافتراض بان استغلال بعض الاقسام المحظوظة بالصحراء قد قلد أمثلة جاءت من الشرق، أي من مصر. ولكننا هنا في مجال الاثيوبيين، لا البربر، على ان بعض الواحات قد كانت على ملك قرطاجة والملوك الاهالي. فعلى طول السدرتين، وفي داخل الاراضي بالجنوب التونسي، كانت كابسا (قفْصة) التي كان اهلها رعايا مخلصين ليوغرطة. والتمور لم تكن حسنة لا بقفْصة الواقعة كثيرا إلى الشمال، ولا بالساحل حيث المناخ رطب جدا، ولم تكن تصلح إلا


الأراضي التي
تصنيفها حسب
الرجال
التعسف
لمجموع
ملكية جماعية
الاستغلال
هذه الحالة، فإن
الأسر حسب
بعد ذلك على
هذه الطريقة
للاعتقاد
العهود

للاستهلاك المحلي، مع منتجات الزراعة التكميلية. ويحتمل أن أشجار لزيتون التي كانت كثيرة العدد بمنطقة لِبْتيس Leptis لم تكن مغروسة تحت النخل، وإنما كانت بالهواء الطلق، وعلى الخصوص في النحية الجبلية المجاورة للمدينة.

ونجهل متى انتشرت تربية النحل خلال بلاد البربر، حيث كنت تزولها عدة قبائل مستقرة بالنواحي الساحلية. فهيرودوت يذكر أن الكوزنْطيين Gusantes وهم عشيرة تسكن الساحل الشرقي لقطر لتونسي، يُصنع النحل عندهم كثيرا من العسل، ولكنه يضيف قائلا: وعبهم رجال أكثر مهارة يصنعون منه الكثير أيضا». ولا ندرى ماذا كن هذا العسل الاصطناعي. ولاشك ان هذا لا يعني فضلة التمر، لأن لنخل لا يند في الجهة التي كان الكوزنطيون يسكنونها. وكان لتربية النحل مكانة ممتازة عند القرطاجيين، الذين يحتمل أنهم لم يكونو معلمي لاهالي ولكن تمكنوا من إعطاسهم بعض الدروس النافعة. وفي ... طالبا كانت روسدير (مدينة المليلية)، وهي مستوطنة فينيقية على ... البحر الأبيض المتوسط، وكذلك مدينة أخرى لها نفس الأصل على ما يحتمل، تجعلان رسم النحلة على عملاتهما، وذلك حوالي القرن الاخير قبل الميلاد. وللبربر (او كان للبربر إلى عهد قريب) أنواع مختلفة من خلايا النحل، رباعية الشكل أو أسطوانية، مصنوعة من سيقان الخيزران ومن القصب ومن جذوع الصنوبر المقشور أو لجذوع المجوفة أو من لحاء شجرة الفرْنان أو من الفخار، ولكن يستحيل أن نعرف أصولها. وكان يوبا الثاني ملك موريطانيا ينصح باستعمال صندوق من الخشب، ولكن ليس لدينا تفاصيل عن كيفية تصوره لهذا الصندوق.

6

إن الحياة الرعوية تستوجب للقبائل التي تتعاطاها حيازة أراضي المنطقة التي ترعى بها قطعانها، سواء أن لا يكون الرعي في كل لأرضي إلا بإذن القبائل، أو لايكون له إلا حقوق الانتفاع. وهذه الأراضي ليس هناك ما يدعو إلى تقسيمها، لأن الماشية تنتشر بها حيثما وجدت المراعي التي هي رهن إشارة جميع أعضاء القبيلة. والحيوانات المؤنسة هي وحدها موضوع التملك الفردي أو الأسروي.

أما الجهات التي لم تعد فيها تربية الماشية الشغل الوحيد لجماعة، فإن أقسام الأرض غير الصالحة للزراعة، كالغابات مثلا، تبقى على ما كانت عليه كل الأراضي من قبل، أي تبقى ملكية جماعية للجميع بها حق الانتفاع.

وفي ظروف الأراضي، التي تسمح زراعة الحبوب بها بطر ىق مختلفة يكون من التعسف تصنيفها حسب تسلسل تاريخي دقيق.

ا) تكون الأرض ملكية جماعية لمجموع الرجال الذين يكوّنون جمهورية قروية صغيرة. وفي هذه الحالة، فإن الاستغلال يكون مشترك، مثل لمحصيل أيضا، التي توزع بعد ذلك على الأسر حسب عدد الأفراد لذين يقتاتون. ولستُ على استعداد للاعتقاد بأن هذه الطريقة في العمل قد ستعملت بشمال إفريقيا، وعلى الأقل في العهود التاريخية. إذ أن لمجموعة العائلية انذاك كانت هي العنصر الأساسي في المجتمع لاهلي. وقلما تذوب في المجموعات الأكثر سعة التي هي جزء فيها. فالمجموعة العائلية تكره الشيوعية.

2) وهناك طريقة أخرى، استعملت خارج إفريقيا، عند قدماء الجرمانيين مثلا، وقد تكون أليق بالبربر. وهي لا تزال - أو كانت إلى عهد قريب منا - مستعملة عند البعض منهم. وهي أن الأراضي مع بقائها ملكية جماعية، فإن الحقول الصالحة لرمي البذور توزع كل سنة بين الأسر. وهذه الأسر تمتلك فوائد عملها[170]. وقد يكون بعض الرجال الذين سكنوا ضيعات منعزلة ربما أرادوا أن يحتفظوا حولها لأنفسهم بالاراضي الصالحة للزراعة. ونتيجة ذلك يكونون لانفسهم ملكيات خصوصية. ولكن سبق أن رأينا أن السكان كانوا في الأغلب يعيشون متجمعين. وصحيح أن الناس كانوا يبحثون عن احسن الأراضي، وكذلك عن اشدها قربا من القرية. والاراضي المتساعة كان من شأنه أن يقع تخويلها على التوالي لأسر مختلفة، وذلك تدبير عادل. أما الحقول الجامة فهي لا تعطى لأحد، ولكن تبقى للرعي في متناول الجميع، وكذلك سيقان التبن التي يخلفها الحصاد في الحقول المزروعة.

3) وحسب نظام آخر، تقسم الأراضي إلى ملكيات خاصة، اما عائلية، وهذه بصفة عامة لا يستطيع رئيس العائلة تفويتها لانه مجرد مدير لها، وإما أن تكون ملكا لأفراد لهم كامل التصرف فيها. ولعل أحد أصول هذا النوع من التملك هو المبدأ المقبول في عدة من القوانين البدائية، وهو القاضي بأن الارض هي ملك للمرء الذي يحييها، وأنه - هو ومن يتركها لهم من بعده - يبقون مالكين لها ما داموا لا يهملونها، فلا تعود من جديد أرضا مواتا، وإلا فحق الاستيلاء عليها في متناول من يريد إحياءها بدوره.

إن الملكية الخاصة - أيا ما كانت طريقة تكونها - تربط الإنسان عادة بالأرض برباط قوي، وتولد فيه حب إخصابها لتدر عليه أكثر

الأرباح. وتكاد تكون الشرط الضروري في غراسة الأشجار. ذلك أن لمرء الذي يلقح أو يغرس أشجار الفاكهة، ومن يصلحها هو في حجة إلى ن يطمئن على تملكه الدائم للأرض التي يعمل هو فيها أو يشغل لغير بها.

إننا نجهل كيف كانت ظروف الأراضي عند قبائل المزارعين في عهود الملوك الأهالي. لكن الفينيقيين والقرطاجيين الذين انشاو مستوطنات على السواحل أوجدوا بها الملكية الخاصة على غر ر ما عندهم. وقد كان هذا هو النظام الوحيد الممكن قبوله للحدائق والبساتين المحيطة بهذه المدن. كما كان هو النظام الذي تفرضه كذلك الزراعة في الواحات بالحاشية الشمالية الصحراوية.

فإلى أي مدى كان انتشار هذا النظام بين البربر الذين في حالة عدم كونهم رعاة، فإنهم كانوا يتعاطون للزراعة أكثر مما يتعاطون لغر سة الأشجار، ولم يكونوا على العموم ونتيجة لذلك ملزمين بتخاذ هذا النظام المذكور؟ يستحيل علينا الجواب. ومع ذلك فإننا نعلم أن مسنيسا قد اتّخذ لنفسه ضيعات كبيرة، وأن أبناءه، من كان منهم ملك ومن لم يكن قد ورثوها. وقبل العهد المسيحي بقليل كان أحد الأمراء من لأهالي قد اصبح مواطنا رومانيا هو كايوس بوليوس C. Julius بن مسنبسَ وكان يملك بموسّطة القطر التونسي أراضي بالغة السعة لأنها انتسبت على حلة Agglomération وصفها فيتروف Vitruve[17] بأنها (قلعة حصينة). فلعل هذا النوميدي قد نال هذه الاراضي إرثا من احداده. ولكن يحتمل أيضا أنها لم تُعْط لأبيه أو له هو إلا بعد ان كوّن بوليوس قيصر ولاية افريقا الجديدة Africa Nova سنة 46 ق.م.

في هذه الولاية الجديدة، كانت توجد منذ بداية العهد الإمبراطوري ضيعات خصوصية واسعة على ملك بعض الرومانيين. فلربما أن هذه كانت أراضي صودرت عند الاستيلاء على مملكة نوميديا، وباعتها لدولة للخواص. وإذا كانت قد صودرت، فلأنها كانت على اغلب لظن ملكا ليوبا (الأول) عدوّ يوليوس قيصر. وربما يكون يوبا قد ورثها عن بائه، عن مسنيسا العظيم الذي كان ما بين الحربين البونيقيتين الثانية و لثالثة قد استولى على المنطقة التي وجدنا فيها هذه الضيعات في عهود الأباطرة. فقد انتزع هذه المنطقة من قرطاجة، التي يحتمل نها استولت عليها في القرن الثالث ق.م. ويمكن ان نتساءل هل إن قرطاجة نذاك لم تعلن أن قسما كبيرا مما استولت عليه قد حولته ملك عمومي ، وهل هذا الملك العمومي لم يحوله مسنيسا ليجعله ملكية لملك ؟ و ن هذه الملكية بقيت على حالها إلى ان ستولى عليها الرومانيون ، هذه مجموعة من الافتراضات نعلم أنها واهنة. لكن يحتمل أنها حسن ما يفسر تكوّن هذه الضيعات، اي هذه المنابت ذات النظام الاستغلالي لموحد، التي عرفتنا نقائش شهيرة بوجودها في إفريقيا لجديدة. فيكون مسنيسا بما اقتطعه من المنطقة البونيقية قد أصبح ملاكا عقاريا كبيرا.

وهل مسنيسا نفسه وغيره من الملوك الذين تولوا الحكم في نوميديا وموريطانيا قد طمحوا إلى ضيعات، ليس فحسب بالاراضي التي يمسكونها باعتبارها ميراثا لهم أو باعتبارها اقتناء شخصيا، و نما عى جمبع مملكتهم بصفة عامة على غرار الفراعنة ؟ اي ملكية قد نطبق على ملكية المجموعات الاجتماعية للأسر او للأفراد، فتكون ملكية نظرية أكثر

ممـ هي حقيقية، باطلة عمليا حيثما كانت التربة، لا قيمة لها كما في البراري، وباطلة حيثما كانت القبائل لا تبالي بالسلطة الملكية. وفيم يخص هذا الافتراض يحسن عدم التمسك به هو والافتراضات السالفة. ومع ذلك فإنه افتراض يمكن به (وبغيره من البراهين) تفسير لمـ الولايات الرومانيتان اللتان عوضتا عن مملكة موريطانيا، قد كانتا مثل مصر كانهما ضيعتان اميريتان يدبرهما وكلاء عن الأمير، وليست راضي للشعب الروماني يحكمها ولاة او مساعدون للوالي الأعظم. إن جهلنا لظروف الاستغلال يفوق جهلنا لنظام الأراضي.

وكان السكان الأحرار كافين للقيام بالمهمات التي كانت تبدو لهم ضرورية لتضمن لهم معيشة بسيطة مع خضوعهم لواجبات الضريبة. ويحتمل أن الرجال كانوا في بعض الأعمال يفضلون تشغيل النساء. وبدون شك فإنهم قليلا ما كان لهم عبيد. فمع فقرهم الشديد لا يستطيعون شراءهم. وعلى فرض ان حروبا سعيدة مكنتهم من اقتنائهم، فإن بيعهم كان أفضل من إطعامهم. على أن الراجح هو أن الملوك كانوا يجتهدون للتقليل من تكرار الصراع بين القبائل والعشائر، وذلك ليخصو أنفسهم بفوائد بيع العبيد. وفي هذا المجال فإن القضاء على إحدى الثورات كان بالنسبة لهم عملية مربحة.

كان وجود الضيعات الملكية الواسعة افتراضا صحيحا، فيمكن الاعتقاد بأنها كانت تحرث على غرار المنابت الرومانية التي تكون قد سننها في الزمن بواسطة رجال أحرار، يقيمون بالضيعات من غير عقد، وبدون تحديد للزمن. ولكنهم ملزمون بأن يؤدوا لرب الأرض نصيبا من المحاصيل.

7

من بين الثروات الطبيعية التي استغلت في عهد الملوك، لابد من ذكر الشجرة التي عرفها الإغريق كما عرفها الرومانيون وهي شجرة لعرْعر. فقد كانت هذه الشجرة تعطي للتجارة الدقيقة (أي صناعة الفيتنة) Ebénisterie الخشب المشهور منذ القرن الثالث قبل الميلاد. وقد بعث مسنيسا لأهل رُودِس Rhodes خشب العرعر والعاج. وفي نهاية لعهد الجمهوري وبداية العهد الإمبراطوري كان الاقبال شديدا جد بروما على هذا الخشب الذي كانت تصنع منه الموائد على الخصوص، وكان يودى عنها الثمن الغالي. كما أن يُوبا، وبْطلمي كانت لهما أيض موائد اشتهر أمرها بين الناس. وبلغت مستلزمات حب البذخ إلى حد أن ضمحلت في وقت قَيْصر غابات العرعر الجميلة.

في نوميديا لا نعرف سوى منجم واحد قبل الفتح الرومني: هو منجم النحاس الذي كان يوجد على قول سترابون في أرض لمسيسيليين. فلربما ان هذا كان هو المنجم المجاور لتِنيس Ténès، لذي لوحظ به وجود آثار لخدمات قديمة. وقد يكون الفينيقيون هم الذين بدأوا استغلاله.

أما مرْمر سِمْيثُو Smitthu (شِمْتو) وهو المرمر الأصفر والوردي لجميل المشهور باسم المرمر النوميدي فقد جلب إلى روما منذ سنة 78 ق.م، بل وقبل ذلك منذ القرن الثاني. وكانت ناحية السهول التي تنتمي إليها مدينة سِمْيثُو قد مكثت خاضعة لمسنيسا والمتولين بعده لمدة أكثر من قرن. إلى حين تكوين ولاية أفريقا الجديدة في سنة 46 ق.م. وقبل هذ التاريخ فتحت المعامل الملكية أي المحْجرة الملكية التي حافظت لن النقوش اللاتانية بشَمْتو على ذكراها.

في أراض أخرى من بلدان البحر الابيض المتوسط. كان أهم ما يتشغل به أهل السواحل عملين اثنين هما البستنة والصيد البحري. وقد ر بما أن غراسة الأشجار والبقوليات كانت قبل الفتح الروماني غير واسعة الانتشار بين البربر. ومن ناحية أخرى لا يوجد برهان على أن لكثير منهم تعاطوا للصيد البحري. وإلى أيامنا هذه فالسمك ليس ضعما مفضلا عند الاهالي. ولعل الامر كان يخالف هذا في المدن لبحرية ذات الأصل الفينيقي والقرطاجي. فقد استمرت على قيد الحياة بساحل سدرة الصغرى في عهد الملوك النوميديين مصايد للأسماك ومعامل لتمليح كانت قد انشئت قبل ذلك بكثير. وفي موريطانيا فإن لكّسوس المستوطنة القديمة. كانت تنقش الاسماك - ربما سمكة لنونة Thon - على البعض من عملاتها. وكان ذلك حوالي عهد الميلاد. وهذ بالإضافة إلى ان الصبادين الاتين من ميناء قادس Gadix لاسبني هم الذين كانوا في الغالب يستغلون النواحي الافريقية للمحيط الاطلسي.

ثم ن المصايد ومعامل صنع الأرجوان Pourpre (البرفير) التي لاشك أن لفينيقيين اقاموها في نقط مختلفة. لم تختف مع اضمحلال لسيطرة البونيقية. وسنرى أن الملك يوبا الثاني قد أنشأ معامل لصبغة الارجو ن في الجُزر الفُرْفيرية Iles Purpuraires، اي لاشك بالصَويرة (وجزيرتها) على الساحل المغربي.

الكتاب الثاني

استغلال الأرض وأنماط السكن

الفصل الثاني

المساكن

1

في عهود الحضارات الحجرية كان قسم من الأهالي قد اختاروا مساكنهم في المغارات والكهوف. وبعد ذلك بزمن كثير ذكر بعض لكتب الإغريق واللاتانيين وجود سكان المغاور troglodytes بالقرب من الصحراء وفي الصحراء نفسها. فكانوا يسكنون في مغارات طبيعية أو من صنع الإنسان، وكانت هذه المغاور موجودة حتى في بلاد البربر نفسها. وفي بداية العصور الوسطى كانت إحدى القبائل لتي تسكن مجموعتها الكبرى بناحية تلمسان، تسمى باسم بني يفْرن، ولا شك أن اسمها مشتق من اللفظ البربري (إفري Ifri) أي المغارة. فهؤلاء لافارقة - أو أجدادهم على الأقل كانوا إذن يسكنون المغارات، كما كان يسكنها جل الكوانش Guanches قبل الاستيلاء لأوربي على جزر كناريا.

وحتى اليوم نجد سكان المغارات بمنطقة طرابلس وفي جنوب لقطر التونسي، أي في ناحية السدرتَيْن حيث ذكرهم سِنيكا Sénèque، وكذلك في الأوراس، وفي غرب الجزائر (بتلمسان على الخصوص) وبالمغرب. فبعضهم يسكن فجوات طبيعية يكملها عند الاقتضاء جدران ثخينة من الحجر الجاف. والبعض الاخر منهم حفروا مساكنهم في صخر التفة Tuf. والمساكن تكون في باطن الأرض تارة، وأحيانا هي حجرات مقامة على وجه الارض خلف جدار صخري ينزل عليها عمودي او ينحني قليلا، بحيث إنه عبارة عن أجراف او بروزات. وأحيانا فإن الكهوف الطبيعية او المصطنعة تتراكب على جانبي رأس أحد الجبال او احد النتوءات الصخرية التي يمكن استخدام قمّتها كملجأ.

اذا كان هذا النوع من السكن قد استمر العمل به هنا وهناك، فبسبب قوة العادات، وكذلك بسبب الفوائد التي يقدمها للناس الذين هم في أغلب الأحوال من البؤساء. فهو سكن لا يستوجب عناية ولا يخشى النار، كما لا يخشى على العموم عبرها من اخطار التهديم، ويسهل به الدفاع ضد ذوي النوايا السيئة، وضد الوحوش، كما انه ملجأ أمين ضد الاحوال الطبيعية السيئة، وهو طري في الصيف دفيء في الشتاء. وصحيح كذلك ان هذه الجحور ينقصها الهواء والنور، وغالبا ما يكون بهذه المساكن رطوبة مضرة وتعشعش بها الجراثيم في طمانينة.

2

لقد راينا ان أكثرية الأهالي كانوا أثناء القرون السابقة على الميلاد يتعاطون تربية الماشية. وكان الذين بالتل يسكنون اراضي متوفرة بصفة جيده على المراعي والماء، يمكنهم ان يعيشوا حياة وكانها حياة

الحضر. وإذا فرض الجفاف عليهم أن يذهبوا بعيدا لقضاء الصيف، فلم يكن نادرا أن يقيموا طويلا بالمكان الذي اختاروه. لكن حيث إن ماشيتهم كانت هي ثروتهم الوحيدة، فقد كان لابد لهم من ان يكونوا على استعداد لانقاذها بالهروب بها من هجمات الناهبين. وكان هذا الخوف يدفعهم لتفضيل الملاجئ المتنقلة على المساكن الثابتة. والرعاة الذين يقيمون بالبراري في فصل الشتاء، كانوا مرغمين على التنقل بها كثيرا، حتى إذا جاء الصيف فانهم ينتقلون في هجرات طويلة الى التل وإلى جدل الجنوب. وكان لابد لهم أن يحملوا معهم مساكنهم. إذ لم يكن لهم لا الوقت ولا الوسائل المعتادة لإقامة مسكن في كل منزلة.

واليوم فان الرحّل بشمال إفريقيا يأوون الى خيام متفاوتة في الكبر، تجمع فيها شرائط طويلة منسوجة من الصوف او من وبر الجمل وشعر الماعز. هذه الخيام كانت تحمل مع بعض الاعمدة والأوتاد على ظهور الدواب، وتقام وتنزع في وقت قليل. وإذا تجمعت على شكل دائرة (هذا هو المعنى العربي للفظ «الدوار») فانها تكون ما يشبه نطاق تتجمع به القطعان كل مساء. وليست الخيام مساكن للرحّل فحسب، بل إن بعض المستقرين الذين يملكون الدور يفضلون ان يعيشوا في الصيف تحت الخيام، لانها اكثر طراوة بالليل. وأسهل في الصيانة عن الحشرات الطفيلية، وقريبا من الأمكنة التي يقيمون بها. فان ماشيتهم تترك ازبالا تخصب التربة المخصصة لترمى فيها البذور اثناء الخريف. وفي الارض التي يكون فيها البرد قاسيا جدا، فان الخيمة تكون في الغالب هي المسكن الوحيد المستعمل.

على أنها انتشرت متأخرة عند البربر. وكان اتخاذهم لها بعد الفتح الاسلامي على الخصوص، اقتداء بسادتهم الجدد. ففي القرن الثامن

للميلاد كان عدد كبير منهم لهم خيام شبيهة بخيام العرب، ولكن يحتمل أن البعض منهم كانت خيام قبل هذا العهد. فالشاعر الإفريقي كوريبوس Corippus ذكر قبل ذلك بقرنين، وفي عدة مناسبات، وجود الخيام Tentoria عند الأهالي الذين كانوا يحاربون البيزنطيين. كما كانت لهم الجمال كذلك. وهي حيوانات كانت نادرة الوجود جدا في بلاد البربر لغاية القرن الميلادي الثالث. ولكن قبل ذلك كانت مستخدمة بكثرة في جنوب هذه المنطقة في عهد الدولة السفلى Bas-Empire. وفي المعتاد، فإن الخيام تصنع من وبر الجمال. كما ان الجمال على الخصوص هي المستعملة في حملها لان الخيام في العادة اثقل من ان تحملها دواب أخرى. فمن حيث المادة والحجم فإن الخيمات Tentoria التي تحدث عنها كوريبوس يمكن انها أشبهت الخيام التي حملها الجمالون العرب من المشرق في القرن السابع للميلاد. ولكن هذا ليس امرا أكيدا، إذ يمكن ايضا ان نفترض ان هذه الماوي كانت مصنوعة على مثال الخيام التي كانت تستعملها الجيوش البيزنطية.

وهناك خيام صغيرة من الجلد شبيهة بتلك التي لا يزال الطوارق يستعملونها حتى اليوم. ويبدو أنها استعملت عند الافارقة منذ عهود عتيقة بعيدة. ولا شك أن هذه هي خيام الجلد التي كان يملكها (شعب أو قبائل) الماشواشا Mashaouasha الذين قام المصريون لمحاربتهم في عهد الدولة التاسعة عشرة. وربما انها أيضا هي ماوى بعض العشائر التي سماها بعض الكتاب المتاخرين عن العهد المسيحي باسم السكينيس Scenites. ويحسن التنبيه إلى أن اللفظ اليوناني «سكيني» لا يعني الخيمة بالتاكيد، وإنما أطلق على الاكواخ الثابتة أو المتنقلة.

ويحتمل أن بعضا من الأهالي قد اتخذوا الخيمة في حملاتهم الحربية، على غرار الجيوش الرومانية التي كانوا يحاربونها أو يحاربون

معها، وعلى الخصوص منهم القادة الكبار والأمراء والملوك. وبهذا فخيمة مسنيسا، وخيمة نَبْدلْسا Nabdalsa مساعد يوغرطة لابد أنهم لم يكونا مأوي بئيسة شبيهة بتلك التي يستخدمها الرحل.

هذه المساكن المتنقلة التي كانت للرحل، كثيرا ما جرى ذكرها منذ القرن الخامس ق م إلى السادس بعده. وكانت تصنع من المواد النباتية مثل نبات البروق Asphodèle والأسل (السمار) Jonc والبروق المشبك بالسمار ومن القصب، وتبن الحصائد.

ويمكن التساؤل : ألم يكن العديد منها يمكن تفكيكه ؟ ألم تكن تتألف على غرار بعض الخيام المستعملة بالمغرب حتى اليوم - من بعض الحصر التي إذا طويت سهل على الدواب حملها مع الأوتاد والأعمدة والدعامات ؟ بحيث ان تجميع هذه القطع المختلفة يمكن وقوعه بسرعة، كما ان الكوخ الذي اقيم بهذه الطريقة يمكن فكّها بنفس السرعة وقت الرحيل. ان النصوص المتعلقة بهذه المأوي لا تساعد جيدا على هذا الافتراض. بل إن بعضها يعارضه بوضوح. فلا نجد في اي منها حديث عن التجميع والتفكيك. والدار نفسها هي التي تنقل، وهذه الدار تحمل بالعجلات Charrettes. فالشاعر اللاتاني سيليوس يطاليكوس Silius Italicus يقول عن الرحل الافارقة بانهم يسكنون العربات ذات العجلات Chariots، وپْلين الشيخ يقول إنهم ينقلون مساكنهم على العربات Chariots.

فحسب سيليوس تكون هذه المساكن نقالات Roulottes حقيقية وحسب پْلين فانها اكواخ مستقلة عما حملت عليه من العربات لكن النقالات Roulottes إذا لم تكن قد زودت باربع عجلات، فانها تكون مساكن غير ثابتة. وعلى النقيض من ذلك، اذا أريد حمل شيء كالقفص،

فبالإمكان استخدام العربات الخفيفة المزودة بعجلتين كبيرتين فحسب، وهي أفضل من العربات ذات العجلات الأربع في بلاد ليس فيها طرق. والقفص نفسه كان خفيفا جدا بالنظر إلى المواد التي صنع منه، وبالنظر إلى الأثاث البسيط الذي يحتوي عليه. أما الشكل الذي كان يفرض نفسه هو إطار سيارة، أي شكل رباعي مستطيل. والسقف يمكن أن يكون مبسوطا أو مسنما. ويجوز أن نفترض بأنه كان يصان عن التقلبات الجوية بغطاء من الجلود.

ليس لنا أي علم بحيوانات الجرّ attelage. والثيران من شأنها أن تصلح جيدا لذلك. ونحن نعلم كيف استخدمها في هجراتهم باربار أوروبا وآسيا كدواب للجر. ولكن الرعاة الذين كانوا مضطرين كثيرا إلى التنقل كانوا هم الذين يعيشون في أشد المناطق فقرا، وهي الأقل صلاحية لتربية الثيران. لقد كان العديد منهم يملكون الخيول، ولكن لابد أنهم كانوا يحتفظون بها لركوبهم في الصيد وفي الحرب. ولربما أنهم كانوا يستخدمون الحمير، وربما أيضا، ولعدم وجود حل أفضل، أنهم كانوا يدفعونها بأنفسهم.

لتسمية هذه المساكن المتنقلة، يستعمل الإغريق واللاتينيون أحيانا ألفاظا مبهمة، لها معنى الدار، والكوخ فحسب. وعند كوربوس نعثر على لفظ كناي Cannac الذي يدل على المادة التي صنعت منها (وهو القصب). والشاعر يعارض بين كناي Cannac عند الأهالي وبين تنتوريا Tentoria التي عند الجيوش البيزنطية. لكننا نعثر أكثر من ذلك عند اللاتانيين على لفظ لا يستعملونه إلا لدلالة على مساكن الافارقة. وهذا اللفظ يرد دائما بالجمع، وعلى صيغتين هما : مكاليا Magalia ومباليا Mapalia (يمكن أن يكتب باثنين من حرف P). ولاشك أن الأمر يتعلق

بمجرد اختلاف في الكتابة. ومباليا Mapalia هو الاكثر استعمالا. و لفظ اغريقي لاشك. ومن الكتاب القدماء من يبدو أنه يعتقد له اصلا اهيا، ويرى سرڤيوس Servius أنه لفظ بونيقي. وعلى كل حال فإذا قبلنا القول بأن اللفظ بونيقي الأصل، فلا دافع للاعتقاد بأن الشيء المسمى به هو أيضا بونيقي، لأن «المباليات» المتنقلة استخدمت عند الرحل الذين كان نمط عيشهم يختلف كلية عن نمط حياة القرطاجيين.

3

وقد أطلق اللاتانيون كذلك لفظ «مباليا» على مساكن المستقرين لأفارقة. لأن هذه المساكن التي يأوي اليها الفقراء لابد انها مثل لمباليت المتنقلة كانت مصنوعة من المواد النباتية على الخصوص. بل يمكن أن نتساءل ألم يكن اللفظ يعني بصفة عامة مساكن بنيت على هذ النحو، سواء اكانت ثابتة أم متنقلة؟ ونجد كذلك الفاظا ليست مختصة بافريقيا، فهناك لفظ إغريقي هو باللاتانية tugurium، ولفظ آخر بالغ في الندرة Attegiae الذي يستعمله جوڤنال Juvenal أثناء الحديث عن الموريين. وهو لفظ ذو أصل مجهول.

ولابد أن اكواخا ثابتة قد اقيمت منذ عهود موغلة في القدم. ويحتمل أنها كانت موجودة في مواقع ما قبل التاريخ، حيث إن ناسا لم يعرفوا بعد تربية الماشية ولا الزراعة تجمعوا وعاشوا عيشة استقرار. وتكون هذه المساكن بعد مرور الزمن قد صلحت لبعض الرعاة الذين لم تكن لهم حاجة بكثرة التنقل، او تكون قد صلحت لبعض المزارعين الذين كانوا يعيشون متفرقين في البوادي. فالاسڤوديلود Asphodelodes فمن المحتمل أنهم حملوا هذه التسمية بسبب اكواخ البروق Asphodeles التي

كانوا يسكنونها، وحسب ما يظهر فإنهم كانوا قبيلة بالشمال لغربي لقطر التونسي. غير أن هذه الجهة المحظوظة بالأمطار لم تكن لمسكن بها «مباليات» متنقلة أي مساكن الرحل. وكانت أكواخ مماثلة لهذه تؤوي الجيوش التي ترجع لمعسكراتها حين تتوقف العمليات الحربية.

هذه كانت هي الأكواخ التي ارتضاها كثير من الأفارقة خلال لقرون. وهذه أيضا هي الأكواخ (النوالات) Gourbis التي تتكون جدرانها من القصب ومن الأغصان المشتبكة، وتشبيكات الأعواد اللينة، وسقفها أيضا من المادة النباتية، وعلى الخصوص من نبات الديس Diss أو من تبن الحصاند. فهي مساكن بحجرة واحدة، وليس بها سوى فتحة واحدة ضيقة هي الباب. ولا أسهل من بناء هذه الأكواخ حينما تتوفر لمواد. وإذا أصيبت بكثير من التلاشي، أو إذا الحشرات جعلته لا تطاق حقيقة، فإنها تترك وتحمل اعمدتها التي كانت تحمل السقف ولا تز ل صالحة، ثم تقام «نوالة» جديدة قريبة او بعيدة من الأخرى القديمة. وتطلى الجدران بطلاء من التربة الطينية المخلوطة غالبا بروث لابقار. وذلك نافع بقي من البرد ومن أشعة الشمس الحارة. ويحتمل ن هذه لطريقة المستعملة بكثرة في طمس الشقوق كانت مستعملة منذ عهد بعيد، ويزين الداخل كذلك بحصر تعلق عموديا.

إن جل الأكواخ العصرية ذات شكل مستطيل بسقف مسنم. والتصميم إما رباعي وإما إهلليجي (او على الأصح بأربعة أركن كل ركنين يتوازيان ويتجمعان بقطع دائرية). غير أن الشكل المستدير ذا السقف المخروطي يوجد بغرب المغرب وفي منطقة طرابلس. وهو بهذه المناطق من أصل سوداني. ونجده بعيدا إلى الشمال، بموسطة القطر التونسي. وفي بلاد القبائل الكبرى يستمل الشكل الدائري ليس للسكنى،

لأن المساكن من حجر، وإنما هو لخزن التبن، وبدون شك إن بربر هذه الأرض لم يستعيروه من السودان.

منذ العهد الحجرى الجديد بنيت الأكواخ المستديرة في عدة مناطق من حوض البحر الأبيض المتوسط، وفي أوربا الوسطى والغربية. ولربما أن مثل ذلك قد حدث بشمال إفريقيا. فالرومانيون عرفوا بهذه الأرض «مبليات» لها هذا الشكل، وهو ما ذكره كاتون الشيخ Caton l'Ancien والقديس جيروم St. Jerôme الذي شبهها بالأفران. والحديث هنا يعني المبليات الثابتة، وإلا فكما سبق أن لاحظنا، فإن استخدام الشكل المستدير قد يعتقد كثيرا وبلا فائدة أنه صنع العربات التي تستعمل لنقل الأكواخ المتحركة.

ولكن البوادي الإفريقية عرفت أيضا، حسب شهادة سالُسْت، أكواخ متطاولة الشكل oblongues بسقف له جوانب منحنية. فكانت تشبه هيكل سفينة مقلوبة. هذا الشكل المتطاول هو الذي غلب في الاستعمال بسقف مسنم. وحتى في بعض الجهات فإن المرأى الجانبي للسقف هو مرأى يذكر بالقسم الغائص في الماء من هيكل السفينة، وذلك يبرر تشبيه سالُسْت، أو على الأصح تشبيه هيمْبسال الملك النوميدي الذي نقل عنه سالُسْت.

4

ان الأكواخ التي من المواد النباتية تحدق بها مخاطر كبيرة، اذ يمكن ان تكون طعمة سهلة وسريعة للنيران التي إذا دفعت بها الريح خلال مجموعات المساكن، فإنها تحدث الاضرار في وقت قليل. وفوق ذلك فإن هذه الأكواخ ذات جدران رقيقة لا تكفي للوقاية من القرّ والحرّ

ولاشك أن السكان المستقرين أحسوا من زمن بعيد بضرورة بناء مساكن أكثر أمنا وأشد وقاية في حالات الجو المفرطة في الخارج. وبما أنهم لم يكونوا ينوون التخلي عنها، لأنها ثابتة على الأرض. فقد كان طبيعيا أن يجعلوا بناءها بالغ المتانة، ليمكن استخدامها سنين طويلة لهم ولأبنائهم. فعوضا عن الأكواخ حلت الدور الحقيقية. هذه لدور التي تحدث عنها هيرودت في القرن الخامس ذاكرا انها مسكن ليبيين الفلاحين.

وقد بنيت بالتراب أو بالحجارة. والتراب أحسن من غيره في الجهات التي تقل فيها الأمطار. هكذا – ومنذ أمد بعيد لاشك – بنيت الدور في الواحات. ويمكن الافتراض بأن المثال جاء من المشرق، حيث إن عادة إقامة المنازل من تراب هي عادة قديمة جدا على ضفاف النيل وعلى ضفاف الفرات. ولكن هذه الطريقة في البناء قد استعملت في بلدان بعيدة إلى الشمال، وهي لا تزال مستعملة بالقطر التونسي وبالمغرب، في جهات لا تنعدم فيها الأمطار. وتتكون جدران التراب على طريقتين. فتارة – وهذه هي طريقة البناء في الجنوب – يعجن قالب يسمى «الطوب» Toûb، يخلط فيه الطين بهشيم التبن وبالحصى، وذلك لينال الصلابة. وبعد تعريض القوالب للشمس للتجفيف فانها توضع متجاورة ومتراكمة كما يفعل البناؤون بالآجر. وتارة أخرى – وهذا بالمغرب على الخصوص – يكبس الطين المبلول المخلوط غالبا بالجير في صناديق من ألواح الخشب يكون لفراغها الداخلي سعة الجدار المراد بناؤه. وتنزع الصناديق حينما يملأ التراب ذلك الفراغ. هذا هو البناء بالتراب المدكوك Pisé. وقد عرفه القرطاجيون، ولعلهم عمموه للأهالي. ولكن البناء بالتراب المدكوك سريعا ما يصاب بالتلف، وأكثر منه الطوب في ذلك. فإذا انهار بالكلية فإنه لا يخلف آثارا. ولهذا

فيستحيل التدليل بالوثائق الاثرية على أن أجداد البربر قد استخدموا هاتين الطريقتين.

أما البناء بالحجارة فهو أليق بالبلدان المطيرة. ونحن نعلم كم كان هذا النوع من البناء مفضلا في مناطق البحر الابيض المتوسط منذ بعد الازمنة، خصوصا في مساكن الموتى التي لابد ان تكون قوية ومستديمة، وكذلك لمساكن الأحياء. ومواد البناء تعرض نفسها بنفسها في إفريقيا. فالفهور Galets في مجاري السيول، والأحجار الصغيرة مبعثرة على الارض، والصخور الورقية تغطي البلاطات التي تكفيها بعض الضربات بالمطرقة لتأخذ الحجم والشكل المطلوبين.

إن الخرائب Ruines المسماة بربرية كبقايا الدور، والاحواش Enclos والاسوار كثيرة جدا، وتتوزع على مجموعة طويلة من القرون. ولكنها عادة لا تسمح بالتاريخ لها. لان التصميمات وطرائق الانجاز قد تخلدت فعلا. ولا شيء أشد شبها في آثار قرية متروكة منذ خمسين عما بآثار قرية يسوغ الاعتقاد بأنها معاصرة للعهد الروماني، بل ولما قبله. وسنرى مع ذلك أن معالم التاريخ الزمني ليست منعدمة في كل مكان في المباني القديمة والحديثة. فليس للجدران أسس عميقة بحيث لا تفوت 20 أو 30 سنتمترا، وعلى العموم فإن داخل المساكن لا يحفر إلى أسفل من سطح الارض، كما كان الامر في أوربا غالبا. وأسفل الجدران كثيرا ما يتكون من صفَّيْن من البلاطات القائمة، فهما زينة نرمي بينهما بالحصى. هذه الطريقة تسمى بالتوضيع appareillage البربري. ولكنها ليست مختصة ببلاد البربر، لأنها مثلا كانت مستعملة في جزيرة قْريطِش Crete في الالف الثاني ق م. ولكن البلاطات لم تكن توجد بكل مكان، وربما يستحسن تنسيق آخر، كان تستعمل الأحجار الكبيرة.

والكتل الخشنة، أو التي جرى تربيعها دون اتفاق، والتي إذا وضعت أفقيا فإنها تكون قاعدة الجدار.

وعلى المداميك السفلى كانت الحيطان تقام بمواد نباتية خفيفة جدا، بحيطان تقريبا تتهدم دائما. لأنها من أحجار صغيرة الاحجام تارة وضعت كيفما اتفق، وتارة نُضّدت متدرجة في صفوف منتضمة إلى حد ما. وليس نادرا ان الأحجار الموضوعة بانحراف تكون صفوف منركمة، أي إن الصف الذي يكون انحرافه إلى ليمين يركبه صف يكون نحرافه إلى اليسار وهكذا، بحيث إن عناصر قاعدتين متجاورتين تكون لها صورة السنابل الممددة أو الزخارف المتكسرة. وتاخذ بعض لأحجار الكبيرة التي نحتت قليلا مكانها في زوايا المبنى وفي إطار البب. وهذه لتركيبات المختلفة لا يجمعها الملاط. ولكن يحتمل أن الثغرات كنت في الماضي كشأنها اليوم، تسد بالوحل الطيني المخلوط بالروث. ويحتمل أيضا ان يشطر الحائط الحجري بين مسافة وأخرى، بحزمات من لاغصان تعطيه كثيرا من التماسك. ولا تزال هذه الطريقة مستعملة إلى اليوم بالأوراس.

إن الشكل المستدير الذي كان استعماله هو الغالب مدة طويلة بين لدور في المناطق الأوربية، والذي لاحظنا ببلاد البربر وجوده في بعض الاكواخ، هذا الشكل قليلا ما يعثر عليه في خرائب المساكن التي من الحجر. وهو اليوم شكل مهجور. ويستحيل القول هل في عهد بعيد مضى كان هذا الشكل معمولا به بكثرة. وسندرس فيما بعد المدافن التي هي من حجر جاف، وهي الشوشات Chouchets (أي الشاشيات) التي تشبه بروجا منخفضة. ولكن إذا أريد إثبات أنها بنيت تقليدا لدور السكنى. فلن يوجد برهان يقدم لصالح هذه النظرية. ومع ذلك فنلاحظ ن

المساكن الحجرية كانت عند الكوانش Guanches في الأغلب ذات شكل دائري أو أهليليجي أكثر مما كانت رباعية. ونظرا لقرابة حضارة سكان جزر كناريا مع حضارة البربر البدائيين، فيمكن التساؤل عن هؤلاء الكوانش، ألم يستعملوا هم أيضا وبكثرة الشكل الدائري ؟

ولكن التفوق في الاستعمال كان للشكل الرباعي. ولربما يجب أن نقبل وجود تأثيرات مشرقية. ولكن هذا الافتراض ليس واجبا. فالشكل الربعي أكثر موافقة من الشكل الدائري لمن يريد تجميع عدة حجر بحيطان مشتركة بينها، ويساعد بصفة أخص وبسهولة على تغطية المساحة المحصورة بين الجدران. ولنفس السبب فإن العرض يكون غير كبير على العموم، بينما الطول كبير إلى حد ما. وحسب المساحة المحتاج اليها، فإن المبنى يكون ذا شكل متطاول. ذلك أن السقف سواء كان مسطحا أو مسنما، فلا يمكن مده إلى بعيد في اتجاه العرض، وإلا فلابد من استخدام دعامات كبيرة جدا وقوية جدا، وهي لا توجد بسهولة.

ويعتمد السقف على جائزة خشبية تمر بوسط الحُجرة بموازاة الجانبين الطويلين. وكل واحد من طرفي هذه الجائزة لا ينزل في الغالب على أحد الجانبين القصيرين، وإنما ينزل على عمود قائم مقتطع من شجرة بطريقة تجعل من نقطة تقاطع الجذع وأحد الغصون الغليظة مذرى يمكن للجائزة أن تدخل فيها. وإذا كانت الحجرة أطول من الجائزات المتوفرة فيوضع منها اثنتان أو ثلاث رأسا لرأس على أعمدة بشكل المذاري لتدعيمها. وتمتد الدعامات الخشبية الطويلة مائلة، فتعتمد من جهة على هذا المرتفع، ومن الجهة الأخرى على رأس أحد الجدارين الطويلين. فتكون هيكلا (مسنما) على شكل ظهر الحمار. ومن فوق هذا

يوضع بالعرض القصب وشرائح الخشب ويكسى ذلك بكساء من حطام النبات، ومن الديس والحلفاء والدوم وتبن الحصائد والاشنة وغير ذلك. وكثيرا ما يغطى هذا السقف بطبقة من التراب الصلصالي تجعله غير منفذ لماء المطر. واستعمال القرْميد النصف الأسطواني الشكل - هذ القرميد الذي يسميه الناس بجنوب فرنسا باسم القرميد الرومـني يرجع لاشك لتاثيرات خارجية اما رومانية، وإما قريبة العهد ي ندلسية أو غير ذلك، ونراه موجودا في بعض المدن وفي قرى بلاد القبائل الكبرى.

وتتكون السطوح (المنبسطة) من اعمدة ممددة بالعرض، ومن شرائح الخشب، وجذوع أشجار مقشورة تسندها هذه الاعمدة، و خير من ضبقة من الطين المدكوك. وهذه السطوح تقي من احو ل الجو المفرطة أكثر من وقاية السطوح المسنمة. واذا كانت لا تتحمل جيدا لتهاطلات القوية للثلج والامطار الطوفانية، فانها أشد مقاومة للرياح لعاتية. وتقدم في الصيف مساحة فيها الطراوة للاسترواح عند لمساء ولنوم بالليل، ثم إن السطوح مراقب. وهي عند الاقتضاء مراكز دفاعية وذلك عندما تتدرج الدور على المنحدرات كما يحدث في بلاد البربر غالب.

وتوجد السطوح (المنبسطة) ليس في جل المدن – في كل مدن لجنوب وجل مدن التل وإنما نجدها أيضا في قرى بجهات كـن لمنتظر أن نجد بها السطوح المسنمة، أي نجدها في سلسة جبل الأور س وعلى المنحدرات الجنوبية لجبال الجرجرة وبالاطلس المغربي. ومع ان هذه الطريقة في تغطية الدور تصلح بصفة خاصة للمنا خ الحار الجاف. والراجح أن هذه الطريقة استجلبت من المشرق، ربما من مصر إلى الواحات، ومن فينيقيا للأمكنة المجاورة للساحل. وقد كانت دور

قرطاجة مزودة بسطوح منبسطة، وكذلك كانت دور ڤاگا Vaga (اي باجة) المدينة النوميدية في نهاية القرن الثاني ق.م. وذلك ما يعرّفنا به فصل من فصول حرب يوغرطة كما يحدثنا عنه سالُسْت[٢٤].

ولا نستطيع أن نقول كيف اتخذ بربر تلك العهود السطح المنبسط، وبالتأكيد فانه عندهم كان متاخرا عن السطح ذي الجناحين (المسنم). وهذا الاخير هو الذي كان – كما يقول سالُسْت يغطي الاكواخ ذ ت لشكل المتطاول، التي كانت من أغصان الاشجار، والتي هي زيادة على ذلك غير قادرة على حمل سطح (منبسط). والراجح انه انتقل من الاكو خ لتغطي لمساكن المبنية بالحجر.

جل دور الاهالي ليس بها سوى حجرة واحدة. وفتحة الباب هي لوحيدة او تكاد تكون الفتحة الوحيدة. وليس هناك نوافذ، ومع ذلك فغالب ما تفتح كوة اوعدة كوات صغيرة في اعلى الجدار. والارض بالداخل من تر ب مدكوك، وفي الوسط توجد ثغرة مستديرة قليلة العمق هي الموقد للتدفئة وللطبخ بوجه اخص وبالثغرة ثلاث احجار موضوعة على شكل مثلث، بحيث يمكنها ان تحمل الصحون والقدور. ويخرج الدخان من لبـ ب و من الكوات، واحيانا يخرج من ثقب مفتوح في السقف يؤدي دور لمدخنة. وغالبا ما تكون هذه الحجرة الوحيدة مقسمة بسور صغير إلى قسمين، احدهما يستعمل للسكنى، والأخر يستعمل إسطبلا وزريبة لخيول والثيران. فهيرودت كان بامكانه أن يقول عن الليبيين ما قاله عن المصريين، وهو أنهم يسكنون مع حيواناتهم المؤنسة.

والدار عادة لا تفتح مباشرة على البادية أو على الطريق في القرية، بل تسبقها ساحة كبيرة أو صغيرة، يحيط بها سياج، وتكون ذات شكل

رباعي مستطيل أو ذات شكل مستدير، ويكون السياج من أغصان يابسة شائكة أو يكون سورا من حجر جاف. وهذه الساحة (هي لمرح بلمغرب) تسبق أيضا عدة من الاكواخ (النوالات). فهي تعزل لدار وتصونها عن الأنظار المتطلعة. وعلى العموم فإن الباب الذي هو المدخل لا يكون في مقابلة باب الدار. وفي هذه الساحة (المراح) تبرك باليل الكباش والماعز، صونا لها من السارقين والوحوش، وفيها يؤدي النساء لأعمال التي يحسن بها أن تودي في الهواء الطلق وفي النور الواضح، وفيها يستنشق الهواء في أمسيات الصيف. وأحيانا تحفر تحتها مطمورات صغيرة لخزن الحبوب.

هذه هي الدار البربرية في أبسط شكل لها. ولكن الحجرة لوحيدة لا تكفي دائما الذين يتحدد مسكنهم بسياج المراح. فتقام عدة حجر جنبا لجنب، وكل حجرة تأوي أسرة من العائلة التي لم يتفرق أعضاؤها الذكور بعد ما تزوجوا. والطموح لبعض الرفه أوجد بعض لأمكنة الاضافية، فالإسطبل والزريبة يكونان مباني خاصة متكونة من الأغصان أو من الاحجار. ومن الملحقات ايضا المخازن، ومساكن الخدم، وحجرات الضيوف. ولهذا وجدت النمادج المختلفة للدور. ويندر جد ان تكون الدور في البوادي والقرى مزودة بطابق. وإذا كانت بطابق فهو للسكنى. والسفلى إسطبل أو زريبة.

والضيعات المنعزلة يمكن ان تكون محصنة. فضيعت البربر بجزيرة جرْبة لها أبراج على أركانها الاربعة. وهو تجهيز نجده أيضا بالمغرب. ولم يكن مجهولا في عصور التاريخ القديم.

ـكـتـب الثاني

ـستغلال الأرض وأنماط السكن

الفصل الثالث

المواقع المسكونة

1

الرّعاة لابد لهم أن يعيشوا متناثرين مع ماشيتهم في البو دي، حيث توجد مساكنهم التي هي الخيام اليوم، وفي عهود التاريخ لقديم كانت هي «المباليات» المتنقلة ‹و الثابتة. أما المزارعون، فقد ذكرنا ‹الأسباب التي من أجلها تجمعوا في قرى. وحتى اليوم، ورغما عن ‹الامن الذي يخيم على القسم الأكبر من بلاد البربر، فإن جل المزارعين لأهالي ينفرون من سكنى الضيعات والمداشر المنعزلة. على أن بعض من هذه لضيعات كان موجودا حتى قبل السلام الروماني. لان سهولة لإقامة بمواقع الشغل، والموارد المائية التي يمكن أن تدرّها المناهل و لآبار بها، كل ذلك كان يجعل بعض العائلات تبقى مقيمة بها، ولم تكن تخشى كثيرا أخطار الوحدة والسأم.

الكتاب الثاني

استغلال الأرض وأنماط السكن

الفصل الثالث

المواقع المسكونة

1

لرّعاة لابد لهم ان يعيشوا متناثربن مع ماشيتهم في البوادي، حيث توجد مساكنهم التي هي الخيام اليوم، وفي عهود التاريخ القديم كانت هي «المباليات» المتنقلة او الثابتة. أما المزارعون، فقد ذكرت لأسباب التي من أجلها تجمعوا في قرى. وحتى اليوم، ورغما عن الأمن لذي يخيم على القسم الاكبر من بلاد البربر، فإن جل المزارعين الاهلي ينفرون من سكنى الضيعات والمداشر المنعزلة. على أن بعضا من هذه لضيعات كان موجودا حتى قبل السلام الروماني، لأن سهولة الاقامة بموقع لشغل، والموارد المائية التي يمكن أن تدرّها المناهل والابار به، كل ذلك كان يجعل بعض العائلات تبقى مقيمة بها، ولم تكن تخشى كثيرا أخطار الوحدة والسأم.

ورغما عن تباعد هولاء الناس الرعاة أو المزارعين، فإنهم ينتمون إلى هياة اجتماعية كان واجبها الأهم هو حماية أعضائها. وفوق تراب لمنطقة التي تعتبرها الهياة منطقتها، كان لابد من مكان يُجعل في حالة لحرب والغزو ملجأ لغير المحاربين إن لم يكن ملجأ للجميع. ويمكن أن تجعل به الماشية بعيدة عن يد الأعداء، كما يوضع به كل شيء له قيمة.

والملاجئ والماوي تهبها الطبيعة بكثرة في إفريقيا. فهي المرتفعات الممتدة على شكل قمم بين شعبين، أو التي تكاد يحيط بها تماما منعطف احد الانهار، وهي القمم الوعرة، كما هي على الخصوص لهضبات ذات الجوانب الوعرة، بحيث لا يوصل إليها إلا من ممر ضيق او من مصعد عسير. وهذه الموائد تكاد تكون افقية الوضع، او هي مائلة إلى حد ما. وتشمل أحيانا مساحات شاسعة، مثل «حمّدة الكسْرة» kesra بموسطة القطر التونسي، و«قلْعة سنّان» بالشمال لشرقي لتبسة، ومائدة الجحْفة بالشمال الشرقي للاوْراس، ومسْطوه التي تقوم على بعد قليل الى الشمال الغربي لهذه الهضبة، والتي احتله منذ نحو خمسين سنة ثوار من الاهالي، وأيضا مثل صخرة قسنْطينة لتي قبل أن تحمل المدينة، ربما كانت ملجا للسكان المحيطين به. وهناك مرتفعات او هضبات اخرى استخدمت ملاجئ، ذات سعة اقل، إما لانها لم تكن مهياة لاقتبال ضيوف كثيري العدد، وإما لان الاقوام لمحيطين بها رضوا بالتزاحم فيها لانهم لم يجدوا أصلح منه لهم. ولا خلاف في ان الناس كانوا قبل كل شيء يبحثون عن الامكنة التي بها منبع او منابع للماء، أو على الاقل يبحثون عن الأمكنة المشرفة على لمنابع والانهار التي يمكن منها التزود من الماء.

وفي الغالب فإن التحصينات الطبيعية كالشعاب العميقة، والمهاوي الصخرية تكاد تكفي لتثبيط العدوّ. والسور لا يكون وجوده ضروريا إلا حيث تنفتح الطريق التي يكون الصعود منها، وحيث يمتد الممر الضيق الرابط بين الهضبة والمرتفع المجاور. ففي هذه النقطة إذن كان يقام سور مانع لا ينفتح به إلا ممر للدخول، ويكون ضيقا جدا. وفي حين أخرى قد يكون من النافع أن تقام هنا وهناك أسوار أخرى لحماية بعض النقط الضيقة. بل في بعض الأحيان يتعاقب سوران فوق منحدر فيكون السور الثاني مدعما للأول. ولكن قليلا ما دعت الضرورة لأحد الملتجأ بسور مستمر. وبناء هذه الأسوار مكوّن من كتل حجرية مؤلفة من غير ملاط. فهنا تتراكم الأحجار دون نظام تقريبا. وهناك تتركب فيما بينها على شكل كتل غليظة بعضها متقهقر عن بعض. وهنا نجد السور المعروف باسم السو البربري. ذي القاعدتين اللتين من أحجار غليظة يملأ ما بينهما بالفهور Moellons.

من حيث المبدأ، فإن الملتجأ لم يهيأ إلا ليشغل موقتا، ولأقصر وقت ممكن. فهو لا يشتمل على مساكن مبنية بمواد تدوم. وفعلا فلا توجد خرائب أثرية في الكثير من هذه الأمكنة. إذ كان الناس يحلّون بها كيفما اتفق متسترين بالجلود، وفي أكواخ تصنع في ساعتها، وفي مجرى الهواء الطلق. على أنه إذا لم يكن بالمكان منبع للماء، أو لم يكن يجاوره نهر لا يقدر العدوّ على المنع من الوصول إليه. فيحسن تكوين احتياطي من الماء. وهناك بعض الملتجآت التي لايبدو أنها قديمة جدا. وهي مزوّدة بخزانات وأحواض.

والراجح أن الناس فكروا من وقت بعيد في أن هذه الملتجآت الضرورية في وقت الحرب، يمكن أن تكون نافعة في وقت آخر، وأنه

تصلح لاحداث مخازن يكون ما يحمل إليها في أمان أكثر مما في لنوادي، وعلى الخصوص من ذلك الحبوب التي يحتاج إليها الرعاة نفسهم، ويحصلون عليها باستعمال وسائل العنف أو الملاينة. ويكفي بضعة اشخاص لحمايتها. وهكذا فان بعض الرحل لهم حتى ليوم بجنوب القطر الجزائري، في الأطلس الصحراوي «قصور» KSOUR، وهي نوع من المواقع الحصينة يستخدمونها مستودعات لما لهم من الحبوب و لتمر والصوف. ولا يسكنها باستمرار سوى عدد قليل من الناس ذوي اصول وضيعة، وهم مكلفون بحراستها.

وقد يحدث أيضا أن رئيس الذين يسكنون في الملتجا، يستحسن ان يقيم به دارا متينة البناء تكون مسكنا ومخزنا. وذلك هو ما يسمى بالعربية باسم «البرج». فهو فيه في أمان كبير. وتحت يده مونه وثرواته المنقولة. .. قطعانه المنبثة في البادية. فإنه يترك لاقاربه ولخدمه أمر مراقبتها.

إننا نعرف المئات من الملتجات القديمة بشمال افريقيا، وفي لجزائر على الخصوص. أما في تونس فالقرية المحصنة المسكونة بصفة مستمرة يبدو انها سبقت الملتجا الموقت منذ عهد بعيد. ويبدو يضا ان هذه الملتجات كثيرة العدد بالمغرب الذي لا تزال الدراسات والتنقيبات الاثرية به في أطوارها الأولى وحتى في الجهات التي اجريت فيها التنقيبات الواسعة. فلاشك يوجد العديد من الملتجات التي لم يقع لتبليغ عنها. فبقاياها ضعيفة في العادة. ولا تنكشف إلا بالنظر لمتفحص، مثل بعض شقوق الفخار المتكدسة على بعض النجود او لكدى، ومثل بعض أجزاء الأسوار التي حافظت على تماسكها بارتفاع ضعيف، بينما في موضع اخر تكون هذه الأحجار قد انهارت. ولكونها لم تُنحت فلا يمكن أن تبرهن على ان الانسان استخدمها.

وكما هو الشأن في جميع الخرائب البربرية، فانه يصعب، بل يستحيل التاريخ لهذه الملتجات التي استخدمت منذ التاريخ القديم، وبدون شك منذ عهود بالغة في القدم إلى عهد قريب منا. فطريقة البناء لا تعطي أي إشارة، باستثناء ما إذا كانت بعض الأحجار المنحوتة قد أخذت من خرائب رومانية مجاورة واحتلت مكانا لها في البناء. ومع ذلك فيحسن أن نعرف هل ذلك ليس سوى إصلاحات جزئية. فأدوات الظر silex التي عثر عليها بالملتجا برهان على انه عمر منذ عهد بالغ في القدم، ولكنها لا تبرهن على أن الأسوار التي عثر خلفها على هذه الادوات قد أقيمت منذ الزمن الذي كانت القطع الظرية تستخدم فيه أدوات واسلحة. ولا شيء يستنتج من شقوق الفخار البربري غير المزخرف، لأن هذا الفخار جميعه يشبه نفسه سواء أكان مما قبل التاريخ أو كان حديثا. فبقايا الآنية المصنوعة بالمخرطة في المصانع الرومانية، أو التي هي احدث منها عهدا، لا تدل إلا على أن الملتجا قد سكن في صميم العهد التاريخي. ولربما ان التنقيبات تساعد على القول هل الملتجا قد عمر قبل ذلك بكثير. واحيانا، تقوم على الجوانب بعض الدّلمينات dolmens، التي هي عبارة عن مدافن لايمكن ان يكون أحدها متاخر في الزمن عن القرون المسيحية الأولى. والراجح ان مساكن الاموات هذه قد أريد لها ان تقام بالقرب من ماوي الاحياء. وبهذا، فلدينا إشارة غامضة جدا عن الزمن الذي كان فيه هولاء الاحياء يعمرون الماوي.

يتحدث ديودور الصّقلي Diodore de Sicile، فيصف نقلا عن كاتب نجهله – أخلاق الليبيين الساكنين، ليس بارض البربر، بل بالصحراء الشرقية، اي اللصوص الذين يذهبون لخارج الصحراء ويقومون بحملات سريعة للنهب، فيقول ... «... رؤساؤهم لا يسكنون المدن، بل لهم

غنية بما يكفي من الكلأ، فلا تضطر القطعان لقطع طريق طويلة بين القرية و لمراعي التي تساق للرعي بها. وكذلك حين يبدو الأمن شاملا فيمكن ترك القطعان في البادية في كفالة عدد قليل من الحراس. ولكن فمم كانت الحال هكذا، لان تربية الماشية كما سبق ان قلنا تفرض عادة انتشار من يتعاطاها.

وعلى النقيض من ذلك، فإن المزارعين قد تجمعوا في العادة في أمكن سهل الماء في متناول ايديهم، كما أن عائلاتهم ومدخراتهم من لحبوب وخبراتهم الأخرى قد كانت في امان. والزراعة تتطلب مساحات قل مما تتطلبه تربية الماشية. فالقرية يمكن ان تاهل بالسكان من غير ن تكون لمسافات بعيدة جدا بين الدور والحقول. وزيادة على ذلك فان هذه الزر عة البدائية لا تتطلب شغلا متواصلا إلا في حقبتين اثنتين عند رمي لبذور والحرث ثم عند الحصاد والدراس. إذن ففي القرية تكون لسكنى الدائمة، او اثناء أهم فصول السنة على الاقل، لان المزارعين لذين يملكون بعض القطعان يمكنهم ان يهاجروا معها موقتا لمراعي بعيدة، ويعيشون بها في ملاوي خفيفة.

ولاشك أن بعض هذه القرى قد كان موجودا منذ عهد ما قبل التاريخ، و لاجيال الجديدة إنما أضافت الزراعة إلى مشاغل اجدادها. بعضها الآخر أمكن أن ياتي بعض الملتجات التي كانت غير صعبة لمرتقى. ولا تقع بعيدا جدا عن الحقول المستثمرة وكان الماء بها عزيز . و.خيرا فان البعض منها ظهر للوجود في مواقع لم يسبق ان أقيم عليه شيء من قبل، وكان ظهورها متتابعا حسب اتخاذ الأهالي للحياة لزراعية ولنمو عددهم. وجلّ بربر التل انتهى بهم الأمر إلى ان يجمعوا في قرى، ذلك هو ما لاحظه پْلين الشيخ Pline l'Ancien في القرن الاول

الميلاد. ومثل ذلك حدث، ولنفس الأسباب في بلدان أخرى بحوض البحر الأبيض المتوسط، في إسبانيا، وليغوريا وألبانيا"[١٦].

ففي القرى التي كانت تُعدّ بالمئات، كان يعيش تقريباً جميع السكان الليبيين الذين كانت قرطاجة قد استولت عليهم في الماضي. على ان البعض من هؤلاء السكان وقعوا في قبضة مسنيسا. ففي عهد هذا الأمير ومن تولوا الحكم بعده، لابد ان يكون ازدهار الزراعة قد أوجد الكثير من القرى في نوميديا. كما يكون قد حوّل عدة تجمعات ضعيفة الى حلل كبيرة Gros bourgs، حيثما كان الماء غزيرا وساعدت عليه خصوبة البوادي المجاورة.

ان القرى والحلل تعرف على العموم في النصوص اللاتانية بكلمة كستيلا» castella (أي معاقل محصّنة). بينما لفظ «أوبيدا» Oppida (مدينة أو موقع حصين) الذي يصاحبه غالبا، يدل على المدن. ثم لفظ «ڤيكوس» Vicus (حلة، قرية، ضيعة)، فهو نادر الاستعمال. وهو يقابل في الاغريقية «خومي» χωμη. وكان پوليب الذي تبعه غيره يطلق اسم بولبس» πολεις على كل من المدن والقرى. وكان بوسيدونيوس يومه على انه رفع إلى مقام البوليس (المدن) ابراجا πυργοι بسيطة في إيبيريا. وهذا يوضح أن لفظ البرج πυργος كان يمكن إطلاقه على القرى المحصنة كما يطلق على الملتجآت، بينما لفظ «فروريون» φρουριον هو أحسن ما يقابل «كسْتيلوم» castellum.

ويعرّفنا علم الآثار في بلاد البربر بوجود العديد من القرى أو الحلل Bourgs الأهلية القديمة. والكثير منها استمر مسكونا في عهد السيطرة الرومانية، وحتى فيما بعد، وغالبا حتى في أيامنا هذه. لأن منبع الماء الذي استجلب الناس، حافظ عليهم بالقرب منه. ويبدو أن هذه الأمكنة

كانت في أحسن حالات ازدهارها في عهد السلام الروماني. فتحولت بعض الكسْتيلات (القشلات ⁶) إلى مدن. والدور والعمارات المبنية طبقا لطرائق الكلاسيكية، حلَت محل المباني الإفريقية. لكن بعض بقايا الاسوار التي نعثر عليها تحت الجدران الرومانية، وخصوصا الدلْمينات، وكلها قريبة جدا من المجال الذي تغطيه المساكن، تشهد بماض قدم من انتصار الحضارة اللاتانية. ومن قبيل التهور أن تضم لهذه الحجج الاسماء اللبية التي حملتها في عهد الإمبراطورية عدة حلل ومدن ذات مظهر لاتاني. فهذه الأسماء تبرهن بالتأكيد على أن الأمكنة المسماة بها قد كانت مطروقة قبل العهد الروماني، لا على أنها قد سكنها سكان مستقرون.

وفي جهة أخرى، خرائب ذات مظهر بربري، أي خرائب لا يمكن على وجه العموم ان يؤرخ لها. ومع ذلك فتوجد إشارات هنا وهناك مثل حوض مكسوّ باسْمنت من صنع روماني، او بقايا بناية أمر ببنائها شخص مهم من أهل المكان، وكان البناء على أيدي رجال اتوا من الخارج واشتغلوا حسب انماط قرطاجية او لاتانية، أو مثل كسرة الخزف المصنوع في مصانع رومانية، أو مثل نقش ليبي لايمكن أن يسبق بكثير أو يتاخر كذلك بكثير عن عهد الميلاد. واخيرا المدافن الاهلية، والدلمينات dolmens، والتلال الجنائزية tumulus والأبراج حيث نلاحظ الطقوس الجنائزية، ونعثر على الأدوات التي كانت مستعملة عند الليبيين في القرنين السابقين على عهد الميلاد أو القرنيين المواليين له.

في الارض الوطنية التي يحدّها الساحل التونسي الشرقي، والتي كانت جزءا من المنطقة البونيقية، ثم من الولاية الرومانية المكوّنة سنة 146 ق.م. كانت هناك حلل واقعة بالسهل، وكان أكثرها مزودا بالماء من

الآبار. ولم يكن بالإمكان استثمار هذه الناحية الخصبة بغير هذه الطريقة. ولكن في نوميديا وموريطانيا حيث كان الامن متزعزعا جدا، كانت القرى تبتعد عن الاراضي الوطيئة التي تعوزها التحصينات الطبيعية. كما كانت تبتعد عن الجوار المباشر للأنهار غير الصالحة للملاحة، والمعرضة للفيضانات المفاجئة، ولا تعطي سوى ماء من نوع رديء، وتنتشر الحمى من حولها.

كانوا يتربعون فوق الشعاب وفوق السهول. ولكن غير بعيد، لكي يستطيع عمال الحقول النزول والصعود من غير أن يتعبوا، ودون أن يضيعوا وقتهم في مسيرات طويلة. وقريبا جدا من أحد هذه الينابيع التي ليست نادرة الوجود بحاشية المناطق الوعرة. واخيرا يتربعون بموقع له تحصينات طبيعية، مثل لسان ارضي يحيط به وهدان يتصلان او نتوء جبلي، أو منبسط صغير معزول. او راس جبل مخروطي الشكل. و الرؤية يجب ان تكون واضحة بقدر الامكان، ليقل حظ العدو من الاقتراب مباغتة. وفوق هذا، فان المكان الذي لا تخترقه الريح يكون مباءة للأمراض، ويكون كالفرن في فصل الحرارة.

وعلى قرب، فإن الوهاد والمنحدرات تعطي الفهور والاحجار المنحرجة الصالحة لبناء الدور. اما المواد المكسرة الاحجام فيمكن اقتطاعها من المحجرات المفتوحة في الصخور. وكذلك فان الغابات الموجودة بالجبل القريب تعطي خشب البناء والتدفئة. وتستقبل المواشي في الصيف. وعندما تنضم غراسة الأشجار إلى زراعة الحبوب، فإن الاراضي المنحنية المجاورة للقرية تساعد عموما على السقي الضروري. وفي امكنة عديدة، فان الزيتون البري لا ينتظر سوى التلقيح لتزيد من إنتاجه الهزيل.

يمكن أن نعيب هذه المواقع ببعدها عن المزارع وعن الطرق الطبيعية لمو صلات. ولكن سبق أن قلنا إن العقبة الأولى لم تكن يتنبه لها إلا في حقبتين عن السنة، أي في الخريف وبداية الصيف. أما العقبة الثانية فلا تـت ان ي احد لم يفكر في التشكي منها لان القرية لم تكن مطلقا مهيأة لعمليات التجارية، ولا لزيارات الاجانب الذين لا يجدون بها ولو فندق ياويهم. إن القرية كانت عبارة عن معقل حصين يتجمع فيها لدواعي لأمن سكان ناحية فلاحية. ذلك هو ما يدل عليه بوضوح لفظ كسْتيلوم» castellum الذي يسمى به في اللغة اللاتانية.

ان التحصينات الطبيعة القائمة بالموقع، تكاد دائما تكون معززة بخدمات من صنع الانسان، مثل سور من الحجر يحيط بالقرية، باستثنا م إذا وجدت صخور تقف عمودية وتقطع السور. فيكون مجرد جد ر، ي حجز عظيم يساير تضاريس الأرض، ويكون على العموم غير مزود بالأحيد والبروج. اما الاحجار، وهي خشنة و شظيت تشظية خفيفة، فنها تُضم دون ملاط، وقد تبلغ أحيانا حجما كبيرا. وطرائق البناء هي لتي سبق أن ذكرناها للملتجات.

في قرى ما قبل التاريخ التي نعثر بمواقعها على الرماد، وعلى بقايا لاطعمة و لأدوات الحجرية، فان المساكن كانت على الراجح عبارة عن كو خ، عن «مَباليات» ثابتة ولا يستحيل وجود قرى، حتى في الازمنة التي سبقت عهد الميلاد مباشرة، وكانت كُلاً أو بعضا من هذه الاكواخ لمكونة من المادة النباتية، غير أن تزاحمها في مجال ضيق كانت فيه خطر شديد في حالة نشوب حريق. ومن جهة أخرى فان المواد لاقامة مباني من حجر كانت في متناول اليد. فالدار التي وصفناها بساحتها

المحاطة بسور، من الراجح انها عند النوميديين والموريين وكذلك بالمنطقة البونيقية، كانت هي المسكن الاعتيادي لأهل القرى. ولا تقوم هذه الدور بجانب الطرق التي قد تحدد موقعها. وبكلام دقيق ليس هناك من طرق. والمجالات التي تقوم مقامها إنما هي فوصص ذات تعرجات غير منتظمة، وتمتد بين الدور. وتقوم هذه الدور تقريب كيفما تفق فوق المساحة التي يحيط بها السور. على ان عددا من هذه لدور غلبا ما يعتمد من الخلف على هذا السور فيدعمه. بل قد تتصل الدور عى شكل سلسلة طويلة فيتكون منها السور المحيط، نتيجة اتصال جدرانها الخلفية.

وأحيانا تقوم في أعلى القرية قلعة، تكون ملجا عندما يتجاوز لعدو لسور. ويمكن ان تستخدم القلعة أيضا خزينا مشتركا. وهنا لا شك موقع الرقيب الذي يعسّ على البادية.

هذه القلعة، إذا وجدت، ربما كانت هي المبنى العمومي الوحيد، مالم يكن احد المحلات غيرها قد خصص لاجتماع الشيوخ. و دا، الشعائر السحرية والدينية لا يوجب وجود المعابد. وتعقد الاسواق بالبادية بخارج الأماكن المسكونة. فمن هذه الاسواق ومن المدينة عندم يحل المرء إليها يشتري ما لا ينتجه العمل بالمنزل. ولا يوجد دكّن بالقرية، بل قد لا يكون بها أحد من اهل الحرف. فايَ شخص ينصّب نفسه باسيا، ولكن عند الحاجة إلى رجل خبير حقيقة بفن البن.. فانه يُستدعى مؤقتا من المدينة المجاورة، وكذلك الامر بالنسبة للنجارة. ما الحداد فهو منبوذ، وإذا استقر بمكان فانه يعيش منعزلا. وفي العادة يعيش متنقلا بين القرى والأسواق.

3

على البحر الأبيض المتوسط وعلى المحيط الاطلسي، بساحل مقاطعة طرابلس والجزائر والمغرب، تتدرج المدن التي أقامها قديم لفيبقيون والقرطاجيون [6]. وهي مواقع تجارية. وكانت أبوابا لممالك لتي صبحت هي جزء منها.

لقد ذكر البعض منها كلّ من سْترابون Strabon وبُمْبونْيوسْ ميلا Pomponius Mela، وهما كاتبان كانا يكتبان في العهد الإمبراطوري. ولكن فيما يتعلق بوصف السواحل الافريقية، فإنهما استخدما وثائق أقدم من عهدهما. ويمكن أن يضاف إليهما إشارات قسية في نصوص اخرى، وبعض النقود البلدية، وبعض الوثائق الاثرية، على نه حتى في غيبة البراهين المؤرخة بعهد الملوك، فالمعتقد هو ن مدن كن وجودها متاكدا في العهد البونيقي ثم في العهد الروماني، لم تضمحل من الوجود خلال ذلك.

وكانت هذه المدن تؤلّف ثلاث مجموعات: المدن التي كانت تقع على طول خليجي السدْرتيْن، والمدن التي كانت تتوالى من الشرق إلى الغرب بنوميديا، منذ الولاية الرومانية (بمصب نهر تُسكا Tusca بالقرب من طبرّقة Tabarca) حتى ملْوشا Mulucha (اي نهر ملْوية)، واخير لمدن التي كانت بجنوب وبشرق مضيق جبل طارق، وكانت تنتمي لموريطانية.

كان مسنيسا قد وسّع مملكته حتى سرْنيكا (مقاطعة برْقة) وبالتالي حتى هياكل فيلين Autels des Philènes، التي كانت حدا بين القرطجيين والاغريق بداخل سدْرة الكبرى. على هذا الخليج ذكر سترابون ثلاثة اماكن، هي : شاركْس Charax، بُرج أُفْرنْتاس Tour d'Euphrantas،

وأسْبيس Aspis، وهي لم تكن مدنا. وبين السدرتَيْن كانت توجد لِبْتيس Leptis المستوطنة القديمة التي كانت لها منطقة ترابية واسعة، حسنة الاستثمار الزراعي، ولربما أن لِبْتيس استخدمت مركزا إداريا رئيسيا لسيطرة القرطاجية بمنطقة سدْرة. وقد استعادت لِبْتيس حريتها في بداية حرب يوغرطة. ولكن اراضي الملوك الذين خلفوه كانت تتاخم راضي لبتيس، بل قد تكون أحاطت بها إذا كانت تقدمت حتى هيكر فلين، كما كان الشأن في عهد مسنيسا. وفي الجهة المقابلة كانت تساير الساحل حتى ولاية أفريقيا. وفي هذه النواحي ذكر سترابون سم أبْروتُنون Abrotonon أي صَبْراتة Sabratha و(عدة مدن صغيرة اخرى). (ولاشك أن المقصود هنا هو كفارا، Gaphara)، وأويا Oea بين لِبْتيس وصبْراتة) ثم زوكيس Zouchis (على بحيرة البيبان) Bibân بمصْبغات لأرْجوان ومعامل التمليح من كل نوع. وعلى سدْرة الصغرى نضع «مدن صغيرة» وبداخل الخليج «سوق كبيرة جدا». اسمها اهمل ذكره في مخطوطات سترابون، وهو بالتأكيد تاكبي Tacape او تاكباسْ Tacapas (أي قابس) Gabes. وأخيرا مدينة اخرى صغيرة هي ثينة Thaine أو Thena وتسميها وثائق اخرى باسم Thaenae ثيناي، وكانت تقع على حدود المملكة والولاية الرومانية. وفي جزيرة منانْكس Meninx، التي هي جزيرة جرْبة اليوم، كانت توجد كذلك «عدة مدن صغيرة»، إحداها تحمل سم الجزيرة نفسه. ومن وراء نهر تُسْكا Tusca كانت مدينتا طبرْقة Thabarca وتونيزا Tuniza (La Calle) اللتان يحتمل أنهم سكّتا نقودا مشتركة في القرن الاول قبل الميلاد، ومدينة هيبو Hippo (بالقرب من عنابة) كان اللاتانيون يدعونها باسم هيبوريجيوس Hipporegius (أي الملَكية) الموقع الذي قد يبدو له علاقة خاصة مع الملوك النوميديين، وتابْسوس Thapsus أو روسيكاد Rusicade التي ربما كان لها نقود

مشتركة مع هيبو، وشولو Chullu (collo) حيث عثر على مدافن من العهد الملكي، وإيجِلْجيلي Igilgili (جيجلي) التي بها سراديب للدفن يمكن أن يورخ لها بنفس العهد. وصلْدَاي Saldae – وعلى الأصح صلْداس – أي بجاية bougie التي يقول عنها سترابون إنها ميناء كبير. وعندما أنشأ أوغسطس مستوطنات لقدماء المحاربين على طول الساحل، فإنه أقامها بمدن قديمة، جلها يدل على أصله باسمه الفينيقي، كما في إيجيلْجيلي، وصلْداس، ثم بعيدا إلى الغرب في روسازسْ Rusazes (أي أزفون Azffoun على ساحل بلاد القبائل الكبرى) وفي روسْكونيي Rusgunae (بالشمال الشرقي لخليج مدينة الجزائر)، وكُنوكو Gunugu (غرب شرْشال)، وفي كرْتناس Cartennas (أي تنيس). وترجع بعض نقود كنوكو للعهد الملكي. أما المدينة الفينيقية يول Iol (أي شرشال). فقد زادت أهميتها آنذاك. وهناك نقش نيوبونيقي Neo-punique، يبدو أنه يبرهن على أن حكم مسنْسا Micipsa قد ترك فيها ذكرا حسنا. وكان أحد الملوك الموريين، وهو بوكوس Bocchus. ولاشك أنه بوكوس الصغير الذي كان معاصرا لقيصر، قد أقام بها قبل أن يجعلها يوب الثاني عاصمة لمملكته باسم قيْصرية caesarea. ويقول سترابون إن المدن البحرية كانت عديده على طول أرض الماسيسيليين (بين رأس بوقرْعون Cap Bougazoune ونهر ملْوية). ويمكن أن نضيف مدنا أخرى لهذه التي سبق لنا ذكرها. مثل إيكوزْيوم Icosium (الجزائر) وتيبازا Tipasa، والمكان الذي يسميه الرومانيون باسم Magnus Portus (بشرق وهران) إلى غير ذلك[177]. وهذه كلها لم تعط أي برهان دقيق على وجودها في عهد الملوك. وقريبا من مصب نهر التافنة Tafna فإن سيكا Sigga وهي مركز فينيقي مثل يول Iol قد كانت في نهاية القرن الثالث قبل الميلاد إحدى عواصم الملك سيفكْس Syphax. ولربما أنها

دُمّرت بعد ذلك حسب قول سترابون، ولكن هذا القول لا يبدو صحيحا. لأن معملا ملكيا لسكّ النقود قد كان هناك في عهد بوكوس الصغير.

أما في موريطانيا، ففي القرن الأخير ق.م، أو في بداية العهد المسيحي سُكّت النقود في روسَدير Rusaddir (أي المليلية) وربما في تمودا Tamuda (غير بعيد عن تطوان)، وكذلك سكّتها زيسي Zili (أصيلة)، ولكْسوس Lixus (على نهر لَكّوس)، وسلا Sala (بالقرب من الرباط). ومدينة الشمس (Maqom Shemesh) أي لكْسوس ؟، كان بها معمل ملكي لضرب النقود في عهد بوكوس الصغير، وفي عهد يوبا الثاني أيضا. ولكننا لا نعثر على أي أثر للمستوطنات التي أنشأها حنّون قديما، والتي أقامها قبل سلا بمصبّ نهر سبُو، ولا التي تدرجت إلى ما وراء رأس كنْتان Cap Cantin. فلاشك أنها كانت قد هجرت أو هدمت. ولعل احدى هذه المستوطنات كانت مقامة حيث توجد اليوم مدينة الصويرة، ومع ذلك فإن الملك يوبا الثاني لما أنشأ هنا مصبغاته للأرجوان، قد وجد المكان على ما يبدو بكرا.

4

إذا كانت المدينة هي النطاق الذي كان يوافق الفينيقيين، فإن القرية كانت هي ما يوافق اكثرية المستقرين الاهالي. فالقرية محل لتجمع الفلاحين الذين يحروثون الأراضي المجاورة. وهي على العموم لم تكن مهيأة لتقبل سكانا كثيري العدد. إن الظروف المادية التي تحد من نموها تعطي لسكانها المتعاقبين جيلا بعد جيل العادة والميل لحياة جماعية ضيقة، وللانعزال المحلي المتعارض جدا مع التفتح الاجتماعي الواسع لدى الغاليين مثلا. فالكثير من البربر لا يعيشون ولا يحلو لهم ان

يعيشوا إلا في القرى حتى اليوم، مثلا في بلاد القبائل، وفي الأوراس، وفي الريف وفي الأطلسيْن المتوسط والأعلى.

ومع هذا، فإن النصوص الإغريقية واللاتانية تذكر أن الممالك الاهلية بها مدن : Oppida, Urbes, Poleis. وصحيح أن لفظ Polis قد جوزف بإطلاقه على القرى والحلل Bourgs، لكن حينما يستعمل لمقابلة XWMN (قرية) فإنه يدل حينئذ على المدينة حقيقة. وكذلك الامر حين يستعمل اللاتانيون الفاظ Oppida, Castellaque فانهم يقصدون بكلاهما على المدن وعلى القرى.

وعلى أي اساس اعتمد هذا التمييز؟ اما بالنسبة للأجانب، فلا بد أن المسألة كانت مسألة إحساس . فالمدينة كانت محلا أكثر سكانا، واكثر نشاطا، وله مظهر أحسن مما للقرية. وأما بالنسبة لنا، فيكاد يستحيل علينا تقدير سعة المراكز المسكونة في عهد حكم الملوك، إذ لم يبق منها شيء، او تقريبا لم يبق شيء تحت الخرائب أو البنايات المنتمية لاعصر أحدث عهدا. مع العلم أنه لا يلزم حتما ان المجال الواسع أو الضيق والمكسو بدور السكنى، هو الذي يكوّن المدينة هنا والقرية هناك. وفي الاراضي الكثيرة الخصب، كانت توجد لاشك بعض الحلل Bourgs التي كانت أكبر من بعض المدن التي اسسها في الماضي القرطاجيون بالساحل. فيمكن دون تردد أن نطلق اسم مدينة على المراكز التي كانت على غرار المستوطنات البونيقية القديمة قد سكّت فيها نقود مستقلة، وكذلك المراكز التي أخذت نظمها البلدية من هذه المستوطنات. ومن ناحية أخرى، يحتمل أن عدة قرى اهلية كان لها منذ ذلك العهد نظام بلدي، لهذا فإن الاستقلال الإداري لم يكن ميزة خاصة بالمدن.

في العهد الإسلامي كان يسهل معرفة المدينة بمسجدها الذي تؤدى فيه صلاة الجمعة، وتعلن عنه منذنته العالية، كما تعرف المدينة بمتاجرها وفنادقها وحمّاماتها. ونعرفها أخيرا بقلعتها.

إن بعض المدن في أعصر التاريخ القديم كانت لها معابد، ولكن من حيثما أردنا فليس لدينا أي برهان على أن المعبد قد أسس المدينة بمساعدة الأتقياء الذين اجتذبهم المعبد. بل على النقيض، يبدو هو وكأنه نتيجة للحضارة المدنية . فالمدينة إذن هي في الأساس مركز سياسي، أو مركز اقتصادي، وفي الاغلب إنها الاثنان معا.

إن المدينة مركز إداري رئيس Chef-Lieu أو عاصمة، فهي مقر للسلطة التي تمتد من هنا وتعم ناحية او منطقة. وهي مركز إداري ومعقل لاحدى الاسر الأميرية التي نجحت في السيطرة على قبيلة كبيرة أو على مجموعة من القبائل، واستولت في بعض الاحيان على السلطة بواسطة الغزاة الرحّل الذين لا يمكن أن يثبتوا في الحكم بدون نقطة رتكز. وهي موقع عسكري ومكان أمين استعدادا للمعارك التي لابد من خوضها من جديد. وهي رباط بين الغالب والمغلوب لما تحدثه هذه المدينة من جاذبية وإشعاع.

وأول اهتمامات أي رئيس لدولة بربرية جديدة هو إنشاء عاصمته أو عواصمه، لأن له عدة عواصم في الغالب. وهو يجعلها في لمدن الموجودة فعلا، أو يحدثها أصلا، إما تكبّرا بالنعمة حيث إنه يريد ن يواري الماضي، وإما لاسباب عسكرية واقتصادية. لهذ كانت هذه السلسلة الطويلة المتعاقبة من العواصم التي يقدمها لنا تاريخ بلاد البربر في العصور الوسطى.

ومعلوماتنا سيئة جدا عن العصور العتيقة، فلابد أنه قد وُجدت عواصم أخرى غير التي ذُكرتْ، أي سيكا Sigga، سرتا Cirta، يول Iol، زاما Zama، والتي يجب أن تضاف لها تنْجي Tingi.

فزاما Zama لاشك أنها هي المدينة التي تسميها النصوص باسم زاما ريجْيا Zama Regia (اي زاما الملكية)، لكن نفس هذا الوصف نجده بجانب اسماء بعض الاماكن الاخرى. ولربما أنها في بعض الاحيان مجرد ضيعات كبيرة يملكها الملوك. ولكن عندما يتعلق الامر بمدن مهمة مثل هيبوريجْيوس Hipporegius، وبولا ريجّيا Bulla Regia: فيمكن الافتراض بانهما نالتا هذه الصفة لانهما كانتا مدينتين للاقامة الملكية. وكان لتهالا Thala قصرُ ملكي. كان يوغرْطة يُرسي فيه ابنائه، فقد كانت إذن عاصمة.

هذه المدن الملكية، كان بعضها يقع على الساحل، وتقع الاخريات بداخل الاراضي. وعلى غرار سلاطين المغرب الذين يسكنون تارة بفاس، وتارة بمكناس او الرباط، او بمراكش حسب ذوقهم، او حسب ضرورات الحكم، فإن بعض الملوك اقاموا بالتعاقب في عدة عواصم. بحيث نجد سيفكْس في مدينة سيكا Sigga سنة 206 ق.م، وبعد ذلك بقليل نجده في سرتْا.

وتكاد المدينة السياسية تكون حتما مدينة تجارية، وذلك بفضل اقامة الامير وحاشيته بها، وبفضل زيارات اولئك الذين عليهم ان يتفاوضوا في الشؤون معه او مع مساعديه وفي جهات اخرى. فالتجارة وحدها المستفيدة من الظروف الجغرافية المناسبة هي التي انشئت المركز التجاري وعملت على نموّه. أما القرية فليس بها صناعة ولا تجارة، بينما في المدينة المصانع التي تصنع الأسلحة، والادوات

وغيرها من قطع الاثاث، والملابس والحلي، أو إن الوسطاء يتلقون هذه الأشياء من الخارج ويعرضونها للبيع. ولربما أن بعض هذه البضائع يُحمل ليباع في أسواق البوادي. ولكن الفلاحين يفضلون التزود من المدن فيفدون عليها، حيث يجدون الفنادق وأماكن المتع.

اما أهل المدن. فالمستطيعون منهم يبحثون عن رفه العيش بتأثيث منازلهم. وتشرف البنايات العمومية على دور السكنى. وبعد قرطاجة التي هدمتها رومة. كانت مدن فينيقية أخرى تقدم النماذج والمهندسين كذلك. وهكذا فإن السطح ذا الأصل الشرقي يحل محل السقف المسنم (له شكل ظهر الحمار)، الذي هو من مواد نباتية في المسكن البربري القديم، وقد خططت الطرق ولربما انها رُصفت بالبلاطات. لقد سبق أن لاحظنا أن بعض الجهات بشمال إفريقيا تعوزها المدن حتى اليوم. وقد كان الامر كذلك في عهود التاريخ القديم. حيثما لم تزدهر الحياة الاقتصادية، وحيثما لم تولد وتصمد الدول، سواء أكانت صغيرة أم كبيرة. لكن وجود المدن يجد تبريره على الساحل. بسبب العلاقات البحرية التي يمكن تعهدها مع الخارج. ووجود المدن يجد تبريره أيضا بداخل البلاد، حيث الاراضي الخصبة التي تستثمر، ويعيش منه خلق كثير. هم بحاجة إلى مراكز تجارية. وكذلك في نقط الاتصال بين مناطق مختلفة، من جبال وسهول، وتل وبراري، أي في اماكن يستطيع فيها المزارعون ومربو الماشية أن يتبادلوا منتجاتهم بكل سهولة، وفيها تستطيع السلطة الملكية أن تراقب أحسن مراقبة حركات الرحّل وأهل الجبال، وأن تجند الجيوش بالمناسبة من هذه القبائل المجاورة. وأخيرا فوجود المدن يجد تبريره كذلك في التشبيكات الكبرى للطرق الطبيعية، وكذلك حيثما كانت غزارة الماء. وفي مناطق جافة تفرض المرور وتحافظ على الحياة.

كانت المدن الفينيقية القديمة عبى طول الساحل تستجيب للاحتياجات. ولكن تأسست أيضا مدن أهلية. فكان بعض منها بالقرب من هذه المستوطنات الأجنبية. لأن مجموعتي السكان لاشك كانتا تريدان البقاء على الاتصال المتين، ولكن من دون أن تختلطا. على أن مدنا أخرى لم تكتف بدور التابع. ذلك أن تنْجي Tingi (طنجة) التي يرجع تأسيسها لتاريخ قديم جدا. لم يكن بها أبدا وعلى ما يبدو سوى مدينة أهلية. والكثير من هذه المدن الأهلية، مثل سيك، تون، تنْجي، ولربما هيبوريجيوس تحولت الى عواصم. فكانت معرضه لأسطيل الأعدا.. بل وحتى للقراصنة. ولكنها كانت مفتوحة مد حضر ت ما وراء البحار. فكانت اكثر تمدنا. وتمتع بمناخ الطف مم لمدن لداخل.

ومثلما كانت القرى تحل محل الملتجات، فغالبا ما استطاعت هذه المدن ان تحل محل القرى، وذلك عندما كان يساعد على هذا التغيير الموارد المائية، وسعة المجال المتهيء، وسهولة الوصول، وأن يبرر التغيير بأسباب اقتصادية او سياسية.

وسواء قامت هذه المدن أو لم تقم في أمكنة كانت فيما قبل مسكونة، فإنها لابد أن تستجيب قبل كل شيء لشرطين سبق ان الحخن عيهما ى أن يكون للمدن منبع او منابع للماء[9]، وان تكون في منجاة من الهجمات. وعلى غرار المدن في أسبانيا، فان اكثرية هده المدن تشغر مواقع مزودة بتحصينات طبيعية، سبق أن وصفناها اثناء الكلام عبى الملتجات والقرى كهضبة ذات جوانب وعرة، وكدية أو مرتفع بين شعبين، أو خاصرة جبل، ومنحدر جبل او قمته. ولكن حيث ان المدينة ليست ماوى خاصا بمن يسكنونها، وحيث انها لابد أن تكون حفية بمن

يزودونها، ويساهمون في نمائها، فيحترز من تنحيتها جدا إلى بعيد، وعلى علو يوجب صعودا مرهقا.

فمنذ هذه الحقبة، كما حدث من بعد في بلاد البربر المسلمة، كانت بعض المدن الكبرى تنتشر حتى في السهل. كذلك كانت الحال بالنسبة لمدينة زاما التي كانت عظيمة في عهد يوغرطة. وكادت تكون بالتأكيد هي زاما عاصمة يوبا الأول. فلماذا جعلوها على هذا الوضع ؟ إننا لا ندري، لأن الموقع الحقيقي لهذه المدينة لا يزال مشكوكا فيه. ومن جهة أخرى، فإن وجود منبع غزير للماء هو الذي يدفع لإقامة المدينة على أرض تكاد تكون مستوية كما في توفيست Theveste (أي تبسة). فالسبب الأهم الذي كان يحدد اختيار بعض الأمكنة غير الحصينة طبيعيا، كان بدون شك هو سهولة الوصول. ففي السهل توجد عدة تشبكات الطرق الكبرى، اقصد الطرق البربرية. لان ملتقيات الطرق النهرية، لا يمكن أن تودي بإفريقيا الدور الذي أدته في غاليا Gaule.

وبكل مكان، وحتى لو أن مواقع المدن كانت تحميها، فإنها كانت محصنة، كما يبرهن على ذلك استعمال اللاتانيين للفظ «أوبيدا» Oppida الذي يرد في الاستعمال أكثر من لفظ «أوربيس» Urbes. و النصوص تذكر أسوار وأبواب فاكا Vaga، وسيكا Sicca، وسرتا Cirta، وزاما Zama، وكبسا Capsa، وتهالا Thala. وتوجد هنا وهناك بعض الخرائب من الاسوار (أسوار المدن Remparts). ومع أن الاسوار لم تكن متانتها تقاوم كل الطوارئ، فقد كان بناؤها على العموم يجري بعناية أكثر مما لاسوار القرى، كما كان يستحسن إقامة الأبراج بها على الجوانب. ففي فكا. وفي مدن أخرى لاشك كانت توجد قلعة، هي عبارة عن مصنع للاسلحة وحرز للدفاع.

5

تفيدنا نصوص قديمة مختلفة أن المدن والقرى الحصينة (Castella وOppida) كانت كثيرة العدد بالقسم الشرقي من نوميديا. أي بالموسطة وبالشمال الغربي للقطر التونسي، وبالشمال الشرقي للقطر الجزائري. وكان مسنسا وهو يجرد قرطاجة عن املاكها. قد استولى في إحدى المرات على أكثر من سبعين منها. كما استولى مرة أخرى على خمسين. وحسب سالُسْت وسترابون اللذين يحتمل أنهما ينقلان في هذا عن بوسيدونيوس Poseidonius. كانت نوميديا الغربية (المحدودة غربا بملوية) اقل تروة بالعمارات واقل ازدهارا. وكانت حبراتها أقل. مع ان رضها كانت تغل اكثر وسكانها أكثر عددا. فكانت بها الحياة في المدن قل ازدهارا. ونعلم عن طريق بمبونْيوس مبلا ان موريطانيا كان بداخل رضيها مدن قال عنها إنها صغيرة. ولاشك انها لم تكن عديدة، بحيث انه لم يذكر منها سوى اثنتين أو ثلاث.

ومن خلف هذه المناطق المجاورة للبحر الأبيض المتوسط، فان المدن كانت غير موجودة حسب نفس الكاتب. إذ ندخل في المنطقة التاسعة الممتدة من المحيط إلى السدرتين. المنطقة التي كان سكانها الرحل يُعرفون باسم الجيتوليين Getules. ويؤكد كتاب آخرون ان الجيتوليين لم تكن لهم مدن. لكنهم ابتنوا البعض منها في الجهات التي كانوا يجوبونها مع قطعانهم. وقد ذكر مؤلف كتاب "حرب افريقيا" Bellum Africum منها مدينتين، ولم يذكر اسميهما. ومدن كبْسا Capsa، وتوفيْست Thuveste، وتهالا Thala كانت في جيتوليا Getulie. ولكنها كانت نوعا من الواحات التي هي بانعزالها، تبدو وكأنها مداخل للصحراء. فنحن نرى ان الحياة الحضرية - ومع بعض الاستثناءات لم تكن تتجاوز التل. وانها كانت في تناقص من الشرق للغرب.

أما القرى فكان وجودها مرتبطا بنمو الزراعة. التي كانت في عهد مسنيسا والذين عقبوه، قد انتشرت جدا في نوميديا الغربية، فمن المحتمل إذن أن هذه المنطقة لم تكن أشد احتياجا للزراعة من نوميديا لشرقية.

ونجد في بعض النصوص ذكرا لعدد قليل من المدن الأهلية التي لا نعلم شيئا عن مواقعها. بحيث اننا مثلا نجهل اين كانت تقع مدينة مسكلا Meschela وآكْريس Acris وملْتيني Milluné، وكلها مدن اجتهد لاغريق ليستولوا عليها في نهاية القرن الرابع ق.م[180]، كما أن نَرْكا Narca هي إحدى مدن مملكة مسنيسا. وهناك سوثول Suthul، وثالا Thala الوارد ذكرهما في قصة سالُسْت عن حرب يوغرطة.

ومن ناحية أخرى فان كثيرا من الخرائب الرومانية، ذات الأهمية غالبا، توجد في المواقع الممتنعة التي وقع الاختيار عليها لاشك بسبب ما لها من ميزات للدفاع، وبالتالي في حقب الاضطرابات، و لتي تميل لى التاريخ لها بما قبل – وليس اثناء – السيطرة الرومانية على إفريقيا، فتكون قوة العادة قد احتفظت في هذا المكان بذرية المقيمين لاولين به. لكن، إذا كان هذا الاستنتاج مقبولا بالنسبة لشرق بلاد البربر حيث هيمن السلام الروماني حقيقة طوال قرون، فإنه أقل بالنسبة لموسطة هذه المنطقة، كما أنه على النقيض تماما بالنسبة للغرب، حيث لم تستطع روما ضمان الأمن بصفة نهائية، وحيث بقيت الاحتياطات ضرورية كما في الماضي. وبالطبع فحيثما يمكن التصديق بموقع لرومانيين سابق على عهد سيطرتهم، فإن خرائب مبانيهم التي تكسو هذا الموقع لا تمكننا من تقدير سعته.

ولقد قلنا من قبل إن الأسماء الأهلية التي حملتها عدة مدن في عهد الامبراطورية ليست حجة على وجود مراكز حضرية في عهد أقدم. أما

الأسماء البونيقية وهي في الحقيقة نادرة - فهي أحسن الحجج في هذا المضمار، لأنها لم يقع إطلاقها إلا على أماكن لها نوع من الأهمية لتجارية أو السياسية، أي على مدن.

وباستثناء خمس عشرة مدينة على الساحل ومدينتين أو ثلاث بلد خن، فإن النقود البلدية ذات الكتابات البونيقية تعزى لأصول غير محققة. والولاة الملقبون بلقب سوفيط Sufetes (سبط)، على غرار ما بالمدن ذات الأصل الفينيقي، حجة على وجود النظام البلدي. لكن لوثائق المتعلقة بالسوفيط، فإن عددا قليلا منها هو الذي يرجع إلى عهود الممالك الأهلية. أما الأخرى التي ترجع لعهد السيطرة الرومانية فإنها لا تشهد جازمة بوجود قديم لخطة السوفيط في الأمكنة التي عثر فيها على تلك النقود، إذ لا يعقل أن تكون رومة قد خولت قانونا من النوع البونيقي لمدن جديدة.

وكذلك لا يمكن الاستناد المتأكد إلى النقوش البونيقية التي تنتمي على العموم باستثناء نقوش سرتا - إلى العهد الروماني. غير أن هذه النقوش، حيثما وجدت بعدد كبير، فالراجح أن لغة القرطاجيين، أي لغة التجارة، واللغة الرسمية في عهد الملوك، قد ترسخت منذ هذا العهد في الوسط الحضري، وأنها لم تكن به لغة التخاطب فحسب، بل لغة كتبت، وذلك هو ما اكسبها قوة لتقاوم من بعد مقاومة طويلة إلى حد ما اللغة اللاتانية.

ونقدنا البنايات التي من الطراز الاغريقي البونيقي، هي وثائق اشد إقناعا أيضا، لأن ما كان من بينها أحدث عهدا لم يكن متأخرا عن بداية العهد المسيحي. فهذه الأعمال الفنية كانت قائمة بمحلاتها في مدن أحسن منها، أي مقامة في قرى الفلاحين. أما المدافن الاهلية

وجميعها لا يرجع لعهد الملوك فكانت تقام قرب القرى وبالقرب من المدن، بل وتقام أيضا بعيدا عن الاماكن المسكونة.

وختاما، إننا بما لدينا من المواد، يستحيل علينا أن ندرس بصفة دقيقة توزيع المراكز الحضرية والحلل في المملكتين النوميدية والموريطانية. لذلك فلابد من الرضى هنا بملخص ناقص جدا.

6

بشمال نهر مجرْدة، قريبا من الولاية الرومانية، كانت فاكا Vaga (هي اليوم باجة) تقوم على المنحدرات الوعرة لمرتفع يشرف على واد عريض. وقد كانت واحدة من بين اخر ما استولى عليه مسنيسا من يد القرطاجيين. وقد كانت الدور المغطاة بسطوح يحميها جدار محيط حصين، وكانت تنزل متدرجة باسفل أحد المعاقل الذي لاشك أنه كان يقوم بالمكان الذي قام به الحصن البيزنطي والقصبة في العهد الإسلامي. وعلى بعد بضع مئات من الامتار بالشمال الغربي عثر على عدد كبير من السراديب الجنائزية، التي حفرت او حفر قسم منها على الاقل في عهد السيطرة النوميدية، غير ان هيأتها واثاثها هو ما يمكن أن نلقاه في مقابر احدى المدن البونيقية. ولربما أن التنظيم البلدي كان هو أيضا بونيقيا. وقد وصف سالُسْت مدينة «فاكا» Vaga بأنها مدينة كبيرة وغنية». ويضيف قائلا إنها كانت السوق المطروقة اكثر من غيرها في جميع المملكة، وقد رأينا أن كثيرا من التجار الايطاليين كانوا بها لاشك يتعاملون في الحبوب خصوصا. وفي سنة 108 ق م. هدم القائد ميتلوس Métellus مدينة فاكا[181]. ولا ندري هل استقامت قبل تحول نوميديا إلى ولاية رومانية.

والسهول الكبرى سهول «سوق الأربعاء» وسهول «سوق الخميس» التي يمر بها نهر مجرْدة - والتي هي الخزين الحقيقي للحبوب بشمال القطر التونسي. انتزعها مسنيسا من يد قرطاجة. ويذكر پوليب Polybe ان بها بولْيبس Poleis وهو لفظ يطلقه على الحلل كما يطلقه على المدن. اما «بولا» Bulla فهي حقيقة مدينة، كانت تشغل هضبة في سفح جبل لربيع Rebia على مسافة قليلة شمالي النهر. أما الخرائب التي هي بدون شك خرائب حمامات رومانية، فيجب التخلي عن القول مع تيسو Tissot بأنها خرائب قلعة نوميدية. ولكن وقع العثور حول هذ لمكان على عدة مدافن تؤرخ بالعهدين البونيقي. والملكي. وهي ما مقبر من النوع القرطاجي. وإما دُلْمينات اهلية. وفي سنة 81 ق.م لتج إلى بولا Bulla الملك المغلوب هيرْباس Hiarbas فالصفة Régia (أي الملكية) التي يضيفها اللاتانيون إلى اسم المدينة، ربما تشهد بأنه نالت مرتبة لعاصمة.

وفي اتجاه عالية النهر، على الشاطئ الأيسر لمجرْدة عند خصر أحد لجبال، كانت توجد مدينة سيميثو Simitthu (شمْتو). وقد سبق أن تحدثنا على مقالع المرمر بها، التي كانت تستغل منذ العهد الملكي. كما أن بقايا معبد كبير ذي هندسة إغريقية يمكن التاريخ له بالقرن الثاني أو الاول ق م. تشهد بأن مدينة كانت موجودة في سيميتو. وعلى مسافة قليلة في اتجاه الشمال الغربي، على واحد من اخر المنحدرات التي تحد من الشمال السهول التي يخترقها النهر. فإن ثوبرْنيكا Thuburnica (أي سيدي علي ابن قاسم) يظهر أنها هي أيضا كانت مدينة قديمة، نتشر بها استعمال اللغة البونيقية.

أما الناحية الجبلية الغابوية وذات المناخ الكثير الرطوبة، الممتدة بين نهر مجرْدة والبحر، جنوبي طبرْقة Tabarca والقالة La Calle، و لتي

تمر بها اليوم الحدود التونسية الجزائرية، فقد كانت اقل صلاحية للزراعة منها للماشية، ولكن لنوع من تربية الماشية يمكن أن يتعاطاه سكان يكادون يكونون من اهل الحضر. فقد تاسست في هذه الناحية قرى هنا وهناك، ولكن الراجح ان المدن كانت بها قليلة جدا. لكن يبدو ن هذه الناحية هي التي يحسن البحث فيها عن فليني Phelliné. (مدينة شجر الفرنان Chenes Lieges)، التي استولت عليها جيوش اكتكليس Agathoclès في نهاية القرن الرابع قبل الميلاد. وبالتاكيد فرن مدينة نوميدية قديمة بالجنوب الغربي للقالة قامت على هضبة مشرفة على لشعب الطويل للشافية بكهف بني فرج Kef Beni Fredj هذه المدينة التي كان الرومانيون يكتبون اسمها ثوبليوم Thubluim لم تتخل في عهد الإمبراطورية عن الاستخدام الواسع للكتابة الليبية. وتوجد حولها المدافن الأهلية التي هي على شكل الدلميات.

ومن قبيل الخيال ادعاء العثور على الخمسين (مدينة) بمنطقة قريبة من ثوكا Thugga التي سقطت في يد مسنيسا. ولاشك ان اهمها هي ثوكا (دُقّة Dougga) التي كتب اسمها TBGG أو TBGG' في بعض لنقوش الليبية. فقد كانت منذ القرن الرابع قبل الميلاد مدينة ذ ت رقعة و سعة، ولم تتضع مكانتها تحت سادتها الجدد الذين رضيت بسيطرتهم، وبعد موت مسنيسا بتسع سنين فانها أقامت له ضريحا بصفة رسمية. وقد كانت المدينة الليبية واقعة على إحدى الهضبات التي تنتهي بمهاوي عند الشرق والشمال الشرقي، وتنتهي عند الجنوب بنتو، صخري دقيق. وقد بقيت اثار من سور المدينة وبه ابراج، كما توجد دُلْمينات خارج هذا السور. وعلى بعض مئات من الأمتار إلى الجنوب، يقوم الضريح الشهير، ذو الطابع الاغريقي البونيقي، الذي يرجع تاريخه لاشك لقرن لثاني قبل الميلاد. وكانت بثوكا Tugga مبان اخرى من نفس الطراز

كالأضرحة والمعابد، كما يبرهن على ذلك وجود كسارات هندسية. ولربما أن معبدا أو معبدين اثنين لبعل حمّون Baal Hammon قد أقيما قريب جدا من المدينة. وكانت اللغتان البونيقية والليبية مستعملتين كلتاهما في النقوش وحتى في التدوينات الرسمية. ومع أن ثوكا كانت متشبعة بالحضارة القرطاجية، فيبدو أنها صمدت كي لا تفقد تماما مظهرها الأهلي. كما يبدو أن نظمها البلدية لم تنقل حرفيا عن نظم المدن البونيقية.

حول ثوكا حلت مدن رومانية محل بعض الحلل والمدن الليبية. وذلك هو ما يشهد به، بصفة أكيدة - إلى حد ما - اختيار المواقع، ووجود الدلّمينات التي تتكون منها أحيانا مدافن كبيرة، وأخيرا بعض القطع ذات الطابع الهندسي الاغريقي البونيقي. ومع أننا لا نقصد التمم والاستيفاء، فسنذكر بالجنوب الشرقي لدُقة Dougga أكّبيا Agbia. وفي الجنوب الغربي أونوباري Aunobari، وأبعد من ذلك مُسْتي Musti. ومن الشمال الشرقي إلى الشمال الغربي، نذكر ثبورْسيكو Thubursicu (أو ثيبورْسيكو Thibursicu) بور Bure (تبورْسيكوبور Tubursicu Bure) وتيميدابور Thimida Bure وثيكيبابور Thigibba Bure. ولربما أن اللفظ «بور» المشترك بين هذه المدن الثلاث، كل يدل على الناحية التي كانت المدن توجد بها.

في سالست نقرأ أن الملك هيمْسال ابن مسبْسا، اقام في (قلعة ثرْميد in oppido Thirmida)، في دار جعلها أحد النوميديين رهن تصرفه. ولربما يجب إصلاح اللفظ بثيميدا، فتكون هي ثيميدابور وفي بعض الوثائق التي من العهد الروماني نجد ذكرا لمدينة اسمها ثيميدارِيجْيا Thimida Regia، كما أن نقشا لاتانا، عثر عليه بخرائب في

شعب وادي مَلْيان مجاورة لأُذْنة Oudna، هي عبارة عن إهداء لشخص كبير يحمل ألقابا، من بينها انه : Curator splendidissimae rei publicae Thimidensium Regiorum وذلك هو ما دفع إلى استنتاج أن ثيميدا ريجيا كانت في هذا المكان. لكن حيث اننا هنا في الولاية الرومانية التي تكونت سنة 146 ق م فان لقب ريجيا Régia أي الملكية يصعب تفسيره إذا كان يعني ملك نوميديا. فلابد إذن من التسليم بأن «ثيميد ريجيا» هذه كانت في الحقيقة مقامة بعيدا عن المكان الذي عثر فيه على الاهداء. وفوق هذا، لاشيء يسوغ لنا القول بأنها هي «ثيميدابور»، وبأنها هي ثريميدا Thirmida التي ذكرها سالُسْت، إذ لاشك ان هذه لم يكن بها قصر ملكي، لان هيمْبسال اكتفى بالنزول في دار لأحد الخواص.

في الجنوب الغربي لناحية دُقّة Dougga، فان سيكا Sicca (أي مدينة الكاف) كانت أهم مدينة في ارض ذات سهول شاسعة. وكانت تقع بملتقى عدة طرق طبيعية وعلى مسافة قليلة من جيتوليا Getulie وكانت بالقرب من نبع مائي غزير، تشغل موقعا قويا على المنحدرات الوعرة والصخرية لجبل الدير Dyr، الذي يسرح منه البصر في المدى الواسع. وتذكر بعض النصوص سيكا Sicca في أواسط القرن الثالث وفي عهد حرب يوغرطة، فقد كان مرِيوس Marius أثناءها مساعدا لميتِلّوس Metellus وذهب إليها للتزود بالقمح. والراجح أن «سيكا» كانت سوق يتردد عليها الناس بكثيرة، وفيها كان الاجانب يزورون معبدا لأحد الآلهة التي تشخص فيها اللاتانيون فينوس Venus، وهو معبد كان النساء يتعاطين فيه البغاء. وليس موكدا ان هذا العمل كان أخلاقا فينيقية مستوردة.

وفي العهد الروماني كانت الحلل Agglomérations المحيطة بسبكا Sicca تابعة لها. ولربما أن هذه الارباض أو الحلل كانت موجودة منذ لعهد النوميدي. ففي أحدها، وهو أوبوزا Aubuzza، وقع العثور على تاج عمود هو عبارة عن كسارة من أثر إغريقي بونيقي. وكذلك في الجنوب لشرقي لسبكا، كانت لريس Lares التي كان لها بعض الأهمية في نهاية القرن الثاني، لأن مرْيوس استودع بها أقواتا ونقودا لرواتب جيوشه. وفي لجنوب كانت أوبا Obba، ببنايات ذات هندسة بونيقية وإغريقية، ومدينة كانت تحمل هي أيضا اسم ثوگا Thugga (وكان الرومانيون يسمونها باسم Thugga Terebenthina. وكذلك الثيبوروس Althiburos التي أعطتنا نقوشا بونيقية (أحد هذه النقوش يرجع ربما للعهد الملكي)، والتي خضعت لحكم السوفيط.

وكثيرة هي أيضا المدن والقرى التي كانت بجنوب أرض دقّة على النجد لتونسي الأوسط. فهنا هضبة صخرية تحمل مكْثار Mactar لتي توجد بها بعض البقايا لسور من عهد ما قبل الرومان، وكذلك بعض الدلّمينات. وبها نلاقي السوفيط، ولعلها خطة دخلت للمدينة قبل السيطرة لرومانية. كما نلقى بها نقوشا هي برهان على الاستخدام الواسع جد للغة البونيقية.

وفي نفس الناحية التي بها مكّثار، نجد دلْمينات تشهد بقدم حمّام لزواكْرة Hammam-Ezzouakra، ومغْراوة Magraoua، ويلِسْ Elles، وقصر مْدوجة Ksar Mdoudja، وهنْشير الجمال H.Djemal، وكسْرة Kessera (وكانت تُسمّى كوسيرا Chusira)، وهنْشير الكْسيبة Henchir el Ksiba، وهنْشير مْديد H Meded (وكانت تسمّى ميديدي Mididi). وفي «ميديدي» كما في مكّثار تحدث الناس وكتبوا باللغة البونيقية أمدا طويلا.

في هذه الجهة، وغير بعيد عن سيكا، كانت توجد زاما Zama التي نجحت في مقاومتها لميتلوس Metellus، أثناء حرب يوغرطة. يقول عنه سالُسْت : «مدينة كبيرة، غنية بالاسلحة والرجال، وهي معقل لقسم لمملكة الذي تقع به». ويضيف قائلا «هذه المدينة مقامة في السهل. وهي محمية بفن اليد أكثر منها بالطبيعة»[18]. وهذا توضيح يمنع من لقول بانها إحدى المدينتين، اللتين عرفتنا بهما نقوش لاتانية. فأحد هما ز مـ (الجمة Jama) الواقعة على بعد 30 كيلومتر في خط مستقيم شمالي مكثر. والثانية زاما بسيدي عمر الجديدي (على 40 كيلومتر شرقي الاولى)، لأن هذه وتلك تقعان في أرض وعرة.

أما زاما التي يتحدث عنها سالُسْت فلاشك انها كانت هي زاما لتي كانت عاصمة ليوبا الاول. فهذا الملك أقام بها سورين جديدين حول السور الذي كان بها من قبل وهو احتياط له ما يبرره في مكان تعوزه التحصينات الطبيعية.

ومن جهة أخرى، فان عاصمة يوبا كانت دون شك هي زاما لملكية، «زاما ريجيا» Zama Regia التي ذكرت في عهد الامبر صورية، وكانت تقع بنفس الناحية مع زاما التي تشاهد خرائبها في الجمّة Jama. ولكن لابد من العثور على هذه المدينة الذائعة الصيت.

في الجبال الممتدة بالشمال الغربي للكاف، بين «سيكا» ونهر مجرْدة، تقع مسْكُلولا Masculula وكيويتاس بوبْثِـنْسيس Civitas Popthensis بموقع وعر المندر، ويمكن أن يقال أنهما بربريتان، وقد قدمنا عدد من لنصوص النيوبونيقية، ولربما أنهما تكونتا قبل العهد الإمبراطوري. وهناك شك كبير في أن تكون ناراكارا Naraggara الواقعة بسيدي يوسف إلى الغرب من سيكا، هي المدينة التي سماها بهذا الاسم أحد

مخطوطات تيت ليف[185]. أي المدينة التي استولى عليها سيپيون الافريقي قبـل أن يخـوض ضد حنيبعـل المعركـة المعروفـة باسـم معركة زاما.

وبعيدا إلى الغرب وُجدت ثاگـورا Thagura ومَداوُرُس Madauros لئن كان وجودهما متأكدا جدا في العهد النوميدي. وتُعزى لثاكور على وجه من الاحتمال قطعة نقود عليها كتابة بالبونيقية هي : ت . ك. ر . ن TGRN. أما مداوُرس فان الكاتب أبولي Apulee، وهو أحد أبنـائها، ويخبرنا بانها بعدما كانت خاضعة لسيفكس. سقطت في يد مسنيسا.

كانت مداوُرس على تخوم أرض الجيتوليين، وكانت التخـوم تمر بموسطة ولاية قسنطينة، وتمتد على جملة من السـهول الشاسعة المرصودة آنذاك لتربية الماشية. وبالشمال في التل الذي هو جبلي، ولكن تخترقه شعاب خصبة، كان النوميديون يعيشون في مدن وقرى حدث فيها تغيير عميق في عهد السيطرة الرومانية. وكلها شهادات غير سابقة على العهد الامبراطوري، ولكنها تناسب إلى حد ما العهد الملكي، ذلك ان الحضارتين الليبية والبونيقية، في الجهات التي قامتا فيها منذ عهد بعيد، لابد انهما ترسختا فيها بسهولة اكثر من دخولهما في مراكز جديدة، فيما رومة حينذاك سيدة نوميديا وحضارتها تغري رعاياها.

أما تيبازا (تفاش) Tipasa، وكلاما Calama (قالمة)، فهل استعارت اسميهما من اللغة الفينيقية ؟ لا يمكن تأكيد ذلك دون تردد. ولو أن هذين الاسمين يعتر عليهما بالسواحل التي تردد عليها الفينيقيون واستوطنوا بها. ويبدوا ان تيبازا كانت مدينة قديمة، ولاشك في ان مركزا مهما بسكّانه قد وجد في كلاما قبل العهد الروماني. وليس الموقع هو الذي يبرهن على ذلك، لان هذه المدينة كانت منتشرة على منحدر خفيف بسهل

جدا الوصول اليه، ومع ذلك فقد كانت هناك إحدى المدن، التي قبل أن تتحول لاتانية، فإنها اتخذت اللغة والأنظمة البونيقية واستعملتها عن سعة. وحكمها السوفيض.

يقول بول أوروز Paul Orose الذي يحتمل أنه ينقل عن تيت ليف، أن يوغرطة قد دحر بالقرب من كلاما القائد الروماني أولوس بُستوميوس Aulus Postumius، الذي أغراه الأمل في الاستيلاء على الكنوز لمكية. ولم يذكر سالُستْ كلاما في هذا الموضوع بل حسب قوله كانت الكنوز في مدينة حصينة اسمها سوثول Suthul وكان بُستوميوس Postumius قد اجهد نفسه عبثا للاستيلاء عليها. ولما رفع الحصار، فانه سار متتبع لمدة عدة أيام وخلال اماكن شجيرة يوغرطة الذي كان يوهمه أنه يفر من امامه. ولما باغته الملك اضطر للاستسلام، وكانت سوثول تقع في قاصية جبل وعر المرتقى، تحوطه اراض منبسطة يمكن أن تحولها الامطار الغزيرة إلى مستنقعات. وهذا لا يتناسب مطلقا مع كلاما. وإذ أردنا ان نوفق بين أقوال اوروز وسالُستْ فلابد من قبول كون سوثول وكلاما كانتا مدينتين اثنتين متميزتين تماما إحداهما عن الاخرى، وأن الكنوز كانت في سوثول، وأن مسيرة بُستوميوس بعد رفعه الحصار قادته الى قرب كلاما. ويحتمل أن كلاما هذه كانت هي كَلْما Guelma، لأن مهلة الأيام العشرة التي اعطيت لبُستوميوس كي يغادر نوميديا، تتضايق مع مسافة نحو 240 كيلومترا التي كان لابد من قطعها قبل الوصول إلى الولاية الرومانية. أما عن موقع سوثول، فإنه مجهول.

اما مدينة سِرْتا Cirta (قُسَنطينة) فإنها منذ القرن الثالث قبل الميلاد قد كانت ولاتزال مدينة كبيرة في عهود السلام الروماني كما في عهد السلام الفرنسي. وتغلبت على ظروف وجودها.

ذلك أن الموقع الذي تشغله، هو ملتجأ قادر على أن يقاوم جميع وسائل الهجوم التي كانت متوفرة لدى القدماء.. هذه الهضبة شبه المنحرفة، المائلة من الشمال للجنوب.. هي السطح الاعلى لصخرة عظيمة، جوانبها التي على شكل جدران عالية تنتصب عموديا وتمنع كل محاولة للصعود، والوصول إلى أعلاها لايمكن إلا من ممر ضيق بالجنوب الغربي، ومساحة الهضبة كلها ليس بها سوى بعض الجيوب النابعة، بحيث إن المدينة لابد كانت تعتمد على الأمطار، قبل قيام الجسور المائية Aqueducs الرومانية وجرها المياه من عيون متفاوتة البعد عن المدينة، وفوق هذا فان بعض الملوك العظام قد ارتضوا هذه القلعة ونضموها على احسن ما استطاعوا.

من المقبول عموما ان سرتا Cirta[184] (هو في بعض النصوص سرث Cirtha) اسم فينيقي الاصل، معناه «المدينة»، وهذا أمر مشكوك فيه جدا لان نقود سرتا التي كتاباتها بيونيقية، عليها الإسم مكتوب كما يلي KRTN (أي Kirthan) بالكاف Kaph في الأول، بينما اللفظ الفينيقي الذي معناه المدينة، يكتب QRT (qart) بالقاف qaph.

لقد ذُكرت سرتا لأول مرة عند نهاية الحرب البونيقية الثانية، وكانت آنذاك عاصمة لسيفكْس ملك المسيسيليين، وبعد اندحار سيفكْس وجد مسنيسا بالمدينة صفونة بعل القرطاجية Sophonisbe زوجة سيفكْس، واعترفت رومة له بسيطرته على سرتا، فجعلها بدوره عاصمة له، وبها توفي سنة 148 ق.م، ثم كانت بعد ذلك دار الاقامة للملك مسبسا ولملوك آخرين، وفيها حاصر يوغرطة أذربعل مدة شهور عديدة، وبقيت عاصمة حتى في عهد حكم الملك النوميدي يوبا الاول الذي كان مع ذلك يفضل سكنى زاما.

ويقول عنها سترابون إنها كانت محصنة تحصنا جيدا، إذ كان يكفي سدّ الممر الضيق المؤدي إليها. ومع ذلك، فيبدو أن أسوارا قد قيمت في غير هذا المكان، على الحافات الوعرة للهضبة. وكانت هنال قلعة لاشك في القمة، حيث اقيم الكابتول الروماني فيما بعد. وحيث قيمت القصبة العربية ثم التركية.

لقد كانوا يتباهون بثروة سرتا. ومسيبسا بصفة خاصة جعل وكده في تجميلها. ولم يبق سوى كسارات هزيلة من مباني تلك الحقبة التي كانت مماثلة لاشك لضريح الخروب Mausolee du Khroub، الذي بني في لقرن الثاني غير بعيد من المدينة العتيقة. وقد كانت سرتا منفتحة على لحضارة الفينيقية، لانها كانت دارا لاقامة الامراء الذين كانت البونيقية هي لغتهم الرسمية. ولأنها كانت ايضا مركزا تجاريا عظيما. وخارج قرطاجة وقع بقسنطينة اكبر عدد من الكتابات البونيقية، من تقديمات للالهين القرطاجيين بعل حمون Baal Hammon وتانيت بني بعل Tanit Pene Baal قدمها اناس تقريبا يحملون جميعا اسماء فينيقية، وجل الكتابات تورخ بالتاكيد بالعهد الملكي. ومن وراء البحار كان يأتي لسرتا لاغريق والرومانيون الذين يجلبهم البلاط والتجارة بل كان يزور سرتا حتى الاثيوبيون الذين كانوا يعيشون خلف الأطلس المغربي.

وكانت منطقتها واسعة جدا. وحول المدينة كانت تقوم عدة حلل Bourgs، سمتها الكتابات اللاتانية باسم كستيلا Castella، وقد عرفت لازدهار في العهد الامبراطوري، وهي في الشمال كلديس Caldis، تيديس Tiddis، كلتيانس Celtiams. وفي الشرق تبليس Thibilis، وفي الجنوب الشرقي : تيكسيس Tigisis، كاديانفلا Gadianfala. وفي لجنوب سدار Saddar، سيلا Sila، سيكوس Sigus. وفي الجنوب

الغربي سوبزْوار Subzuar. أرْساكال Arsacal. وفي الغرب كسْتيلوم لفانْتوم Castellum Elephantum. مسْتار Mastar. أوزيليس Uzelis. فوا Phua. وغيرها مما لم تصب أسماؤها. وكلها كانت ماعدا بعض الاستثناءات القليلة تقوم بمواقع تبرهن على الاهتمام بالدفاع عن نفسها. لكن السلام الروماني جعل هذا الاهتمام دون شك زائدا. وحتى اليوم لا يزال يظهر في بعضها بقايا أسوار ما قبل الرومان. والدلْمينات ليست قليلة الوجود في جوانب هذه الأمكنة. بحيث أنها في سيلا Sila وسيكوس تكون مدافن عريضة استمر الدفن بها حتى القرن الثاني للميلاد. ولكنها ترجع لأزمنة أقدم. وكانت كسْتيلا منطقة سرْتا لاشك موجودة بجميعها او ما يقارب الجميع منذ عهد الملوك النوميديين.

وفي الجنوب كانت الحلل تتقدم حتى حاشية ارض الجيتوليين. فعند مدخل هذه الارض، في ناحية العين البيضاء، تذكر «مسالك انطونين Itinéraires d'Antonin» على الطريق من سرْتا إلى توفيسْت Theveste (تبسة) اسم مكوماديبوس Macomadibus، الذي تذكره ايضا بعض قوائم الابرشيات. وهو اسم فينيقي علق بآخره لاحقة لاتينية ومعناه المدينة الجديدة. ونجده مرة أخرى بساحل السدرتين. ولكن لم يكن القرطاجيون هم الذين أسسوا مكوماديس Macomades هذه، بعيدة جدا عن المنطقة التي استولوا عليها. فهي مدينة اهلية، أخذت اسمها من اللغة التي اتخذها الملوك رسميا. وكانت على ما يبدو من تاسيس الملوك. ويبدو انها كانت تقع في المكان المسمى اليوم باسم «مرّيكبْ تهلا» Mrikeb Thala حيث تشاهد خرائب رومانية كثيرة. والموقع سهلي ولربما كانت في اول الامر سوقا مشتركة بين النوميديين والجيتوليين.

ونجهل أين كانت تقع المدينتان الجيتوليتان اللتان استولى عليهم القائد ستيوس Sittius سنة 46 ق.م، أثناء الحملة التي مكنته من السيطرة على سرتا. فلابد أنهما لم تكونا بعيدتين جدا عن العاصمة النوميدية.

منذ أواسط القرن الثالث ق.م، كانت توڤيست Theveste (تبسة) مدينة مهمة. وقد سقطت في يد القرطاجيين. الذين لاشك أنهم أضاعوها في نهاية الحرب البونيقية الثانية. ووجودها تبرره الطرق الطبيعية التي تلتقي بها وتجعلها ذات اتصالات سهلة مع سدرة الصغرى، وهدروميت (سوسة)، وموسطة تونس (وبقرطاجة من بعد)، وبمداور Madaure، وسرتا. وهي مبنية في أرض منبسطة، ولابد أنها استطاعت من عهد باكر أن تكون سوقا كبيرة.

وعلى نحو 55 كيلومترا إلى الشمال الشرقي لتبسة Tébessa، تقع تهالا Thala، واسمها في البربرية يعني عين الماء، وهي حقيقة تتوفر على عدة عيون مائية. كما أن الدلمينات تشهد على أنها سكنت قديما.

واسم المكان . تهالا (Thala أو تالا Tala) نعثر عليه في النصوص اللاتانية، ونظرا لمدلوله، فإنه لاشك كان واسع الانتشار. وقد كان ليوغرطة منزل ملكي في تهالا، «المدينة الكبيرة الغنية[183]»، والمحصنة جدا، التي كانت مستودعا لقسم كبير من كنوزه، والتي كان يربي فيها في رفاهية أبناءه الصغار. وعند أسوارها كانت تنبع بعض العيون. ولكن الأراضي المحيطة بها كانت أشبه بالصحراء. بحيث إن خمسين ميلا (74 كيلومترا) كانت تمتد بين تهالا وبين أقرب الأنهار إليها. وهذه المسافة بينهما كان ينقصها الماء تماما. إذن لقد كانت تهالا واحة حقيقية. وإذا كان يوغرطة قد جعلها إحدى عواصمه، فلكي يمسك في قبضته بالجيتوليين، الذين كانوا رعايا مراسهم صعب، ولكنهم عند

الضرورة مساعدون لا غنى عنهم لجيوشه. وقد زحف القائد الروماني ميتلوس Métellus على تهالا. وبرغم مصاعب هذه الحملة، وبعد أن وقف عند النهر للتزود بالماء، فإنه بلغ المدينة واستولى عليها، ولربما أنه هدمها.

فهل تكون تهالا هذه هي تهالا العصرية؟ يستحيل ذلك. مالم يكن سالُسْت قد بالغ كثيرا في وصف الجفاف بالاراضي التي اخترقها ميتلوس. ذلك اننا حينما نبتعد عن تهالا العصرية في اتجاه الشمال الذي منه أتت الجيوش الرومانية، فلا لزوم لقطع خمسين ميلا لنعثور على عيون مائية، او على انهار تروي بالماء ولو في الصيف[16]. إذن فنحن لا نستطيع ان نذكر بدقة أين كانت تقع تهالا الملكية، التي كان موقعها، كمايقول سالُسْت، مماثلا لموقع كبْسا (قفْصة).

وبالنسبة لكبْسا (قفصة)، لا يسوغ أي تردد، لان «قفْصة» بقيت هي المدينة الوحيدة التي لها بعض الاهمية بين موسطة القطر التونسي وبين الناحية الصحراوية بالشطوط الكبرى. ويصور لنا سالُسْت لوحة قاتمة عن القفار الموحشة المحيطة بها، اي المفاوز الجرداء العطشى. ولكن المدينة، وهي «كبيرة وقوية» كان لها، داخل أسوارها عين تنميها مياه الامطار، فتعطي للسكان الماء الشروب، وتساعد كذلك على العناية بواسطة السقي، ببعض الواحات التي بخارج الاسوار.

كانت كبْسا مدينة قديمة، بل قيل عنها إنها من تاسيس أحد الالهة، اي هِركول الليبي أو الفينيقي. وكان بها ملتقى الطرق الطبيعية المؤدية الى الواحات المجاورة، إلى قابس Gabès، وإلى بيزاسين Byzacène ومكْثار وتبِسّة. ومن الجائز أن يكون القرطاجيون قد استولوا على كبْسا. وقد كان يوغرطة يود الاحتفاظ بهذه المدينة، التي كانت لبعدها الشديد،

لا يسهل حكمها بالقوة. فكان يعاملها بلين، وكانت معفية من الضرائب. أما مريوس Marius فقد أحرقها، ثم نهضت من بعد. وفي عهد حكم ترجان Trajan كانت جماعة إدارية Commune يحكمها السوفيط. ولربما ن هذه الخطة التي هي في الأصل بونيقية، قد انخلت إليه قبل هذا لعهد بكثير.

أما في داخل التل الجزائري، فلم يرد ذكر لأي مدينة غربي سرتا قبل العهد الامبراطوري الروماني. فمن الخطأ القول عن أوزا Auza المستوطنة الفينيقية التي من القرن التاسع ق م - بانها هي اوزيا Auzia المعروفة اليوم باسم اومال Aumale. لأن علم الآثار لا يساعدنا في التعويض عن سكوت النصوص. فهناك مدافن بالدلمينات يظهر انها قد استخدمها أقوام لم يكونوا يعيشون في المدن. وهناك مقابر أهلية اخرى على جوانب بعض المراكز المتفاوتة القيمة، ولكنها عمى غرار تلك، أو يمكن أن تكون معاصرة للسيطرة الرومانية. أما لنقوش البونيقية فغير موجودة، وكذلك الكسارات الهندسية التي يمكن لتريخ لها بعهد الملوك. ان نوميديا الغربية كما قال ذلك سالست عن صواب - كانت أقل ثروة عمرانية عن نوميديا الشرقية.

اما أن تكون المدن مفقودة منها تماما، فهذا أمر ليس محتمل لوقوع. فالسلسلات الجبلية التي يسكنها أقوام مستقرون مثل بلاد القبائل والريف، والبراري التي يجوبها الرحل يمكنها أن تستغني عن لمراكز الحضرية. ولكن لابد من وجود هذه المراكز في نقط تصل وتلاقي الجهات المختلفة، وذلك عندما تتكون بينها علاقات قتصادية، وعندما تكون الجهات منظمة تحت سيطرة مشتركة. وعلى سبيل المثال، يكاد يكون وجود مدينة ضروريا بين التل الشرقي للجزائر الذي هو

مجموعة عريضة من الجبال، وبين التل الغربي الذي تشغل القسم الاكبر منه سهول واطئة، بعضها قريب جدا من البحر، وبعضها الآخر يكون التشعب العريض لنهر شْليف. هذه المدينة هي ملْيانة Miliana و هي لمدْية Medea. فكلتاهما قد حلت محل مدينة عتيقة. ففي ملْيانة أسس أوغسطس مستوطنة رومانية في جهة لم تتحول إلى ولاية من ولايات لامبر طورية إلا بعد زمن طويل، ولاشك أنها لم تؤسس في مكان فارغ. عهذا لمكان الذي نلاحظ به وجود بقايا للتاثير البونيفي، كان اسمه زوكبر Zucchabar، وهو اسم ربما دخل في تركيبه لفظ فينيقي، معناه السوق Marché.

وهناك مستوطنة أخرى أسسها أوغسطس في تُوبسُبْتو Tubusuptu، بالجنوب الغربي لبجايه Bougie في وادي صمام. وهناك أيضا يمكن الاعتقاد بوجود مدينة عتيقة، لأن الموقع نقطة تغلغل نحو بلاد القبائل لكبرى غربا، ونحو القبائل الصغرى شرقا. وهو ايضا مرحلة على إحدى لطرق الطبيعية النادرة التي تربط الساحل بالاراضي العالية (عن طريق الصومام ثم سهل مْجانة، ثم الحَضْنة إلى بعيد).

لابد أن التجارة والسياسة قد فرضتا من عهد باكر وجود مدن على طرق طبيعية اخرى تنزل عمودية او تسير موازية لساحل البحر الابيض لمتوسط. واذا اردنا القيام ببعض الافتراضات، فيمكن البحث عن إحدى هذه المدن في اتجاه تْيارْت Tiaret، عند رأس الممر الذي يكونه شعب نهر المينا بين السهول العليا والسهل الأسفل لنهر شليف. ويبحث عن أخرى في اتجاه أومال Aumale، على الطريق الممتدة من الشرق لى الغرب بحضيض سلسلة البيبان وتصل ناحية سْطيف بناحية المْيّية، ويبحث عن اخرى في تلمسان الغنية جدا بالمياه، عند ملتقى

الأرض العالية بالسهل المحاذي للبحر، فوق الطريق الكبرى التي تربط بين الجزائر والمغرب، والتي كانت فيما مضى تربط مملكة الماسيسيليين بمملكة الموريين.

وما وراء الملْوية التي سماها القدامى «مولوشا»، تمتد هذه الطريق صوب البحر المحيط عبر ممر تازة. هذه المدينة المتربعة على نتوء صخري مشرف على السهل، تتحكم شرقا في وادي أحد روافد نهر الملْوية، وغربا في وادي أحد روافد نهر سبْو. وهنا أيضا إشارة من الطبيعة إلى الانسان على المكان اللائق لانشاء المدينة. ولا نزال نجهل بر هين التاريخ القديم لتازة. لأن المغارات الحجرية الكثيرة والمحيطة بها لا تحتوي على آثار أقدم من سنوات العصر الوسيط.

من بين «المدن الصغيرة» التي كانت موجودة بموريطانيا، يذكر بمْبونْيوس ميلا «أكثرها ثروة». ولكن النص المتعلق بالموضوع من كلامه مبتور في هذا المكان. فالمخطوطة تذكر قوله Procul a mari) (Gildavo du britania. ومن السهل على المرء أن يعرف جيلدا Gilda التي جعلتها مسالك أنْطونان في طريق تنْجي Tingi إلى فْلوبليس Volubi-lis (وليلي) وتبعد عن هذا المحل الاخير بثمانية وعشرين ميلا. ولربما أنها هي «جيلدا مدينة بليبيا» التي تحدث عنها الِكْسنْدر بوليهسْتور Alexandre Polyhistor الذي هو أحد معاصري قيصر. وبعد جيلدا وقع التقدم باقتراح لقراءة ميلا كما يلي «فلوبليس، بناسا Volubilis, Banasa» وهو تصويب ممكن جدا فيما يخص وليلي، ومشكوك فيه جدا بالنسبة لبناسا. فقد كانت هذه تقع على نهر سبْو، بسيدي على بوجنون. وكان هذا أحد موقعين اثنين بداخل موريطانيا الغربية، بعث إليه أوغسطس بالمستوطنين. «وكانت المستوطنة الثانية قد أقيمت في بابًا Babba التي نجهل موقعها).

أما فُلوبِليسْ (وَليلي) فقد تركت آثارا قيمة، على مسافة قريبة إلى لتسمال من مكْناس. وارتفعت إلى بلدية في عهد حكم كُلود Claude، بعد ضم موريطانيا إلى الإمبراطورية بمدة قليلة. ولكنها قبل ذلك، كان يحكمها السوفيط. إذن فبهذا المكان، كانت توجد مدينة من الطراز لبونيقي في عهد الملوك. ويحتمل ان اسم فُلوبِليس Volubilis، ذا المظهر اللاتاني، هو تغيير بتلاعب لفظي في الاسم الأهلي، الذي نجهل صيغته الحقيقية. وقد كانت فلوبليس تمتد على هضبة بين نهر وشعبين، ولكن في وضع لم يكن قويا جدا. ويمكن التساؤل الم تكن لمدينة لأهلية في آزمنة سابقة تشغل، قريبا من مكانها الحالي، موقع حريز، جدا، وهو الموقع الذى تشغله اليوم مدينة مولاي إدريس (بزَرْهون)؟

شروح وإحالات

1) أو يمكلها العرب الرحل الذين حلوا محلّ البربر.

2) هناك نصوص أخرى تذكر وجود المازيك بالصحراء، ولكن بالصحراء الشرقية بين مصر وطرابلس.

3) هيرودت : ك 4، 181 وما بعده.

4) نظر Maspero في كتابه Histoire ancienne des peuples de l'Orient classique, II. P.430 , N. 3.

5) ديودور الصقلي : ك 3، 49. 2 - 5.

6) للكْسيون الذين ترجمتْ اسمهم من الفرنسية Lixites يمكن أن يكونو أجداد قبيلة إسلامية شهيرة هي أيت اللّكْست الذين ثاروا أيام الموحدين بنفس الموقع الذي التقى فيه حنّون بأجدادهم الرعاة. انظر أخبر المهدي بن تومرت» للبيْدق، ص 77 نشر دار المنصور بالرباط سنة 1979.

7) الصواب هو أن النكريتيين والفاروسيين كانوا يعيشون في اتصال متين وأنهم كانوا على الجانب الجنوبي الشرقي للأطلس المغربي بين وادي درْعة العليا ووادي كير، هذا وربما كانت مساكنهم تبعد وتصل حتى الأعواط بالجزائر (ولكن هذا ليس صحيحا). انظر Jenan Desauges P. 226.

8) هيرودُت ك 4. 183.

9) عن هؤلاء الأثيوبيين التَرغوليين Troglodytes، أي سكان الكهوف والمغارات انظر هيرودُت ك 4 . 183 وانظر اگْصيل في Hérodote ص 151-154.

10) انظر : De Lafosse : Les Noires de L'Afrique, P. 31- 34

11) انظر : Gsell, Hérodote, P. 211-212

12) ذكر معادن الفضة هنا كثير من الجغرافيين العرب، انظر مثلا البَكْري في وصف إفريقيا.

13) ميلانْوجيتول Mélangétules الجيتوليون المسْوادون هم إذن جيتوليون خلاسيون اي بيضُ بشرتهم سمراء غامقة فهم مهجنون من البيض الجيتوليين السود. «... ويبدو أن مساكنهم كانت هي البسائط العليا والأطلس الصحراوي من الأطلس المتوسط المغربي إلى الأوراس... إلخ..) Desanges : Catalogue des tribus ... P. 223

14) سْترابون ك 17، 3، 3. يروى هذا الخبر ولا يصدقه. ولكن هل يمكن القول إن في هذا إشارة لثورة أو لهياج أحدثه الأهالي بجنوب المغرب للقضاء على المتاجر التي أسسها حنّون ؟..

15) أميان مرسلان . ك 29، 5، 37. وكذلك فإن أپيان Appien يقول أن بوكوس Bocchus ملك موريطانيا في نهاية القرن الثاني، بعث لحشر الجنوب من بين الأثيوبيين الذين كانت مساكنهم قرب أراضيه بسفوح جبال الأطلس.

16) لمّا نُحي مسِنيسَا عن عرش أبيه، قيل إنه التجأ إلى هؤلاء وأنهم مدّوا له يد المَساعدة. انظر تيت ليفْ : ك 29، 33، 9.

17) سترابون ك 2. 5. 33.

18) لاشك أن الكاتب حينما يذكر ليبيا فهو يقصد أرض البيض وهو شمال إفريقيا باستثناء مصر. إما عن وصول الاغريق، فيمكن أن يكون هذا العهد الذي عرفوا فيه رأس سولويس Cap Soloers أي راس كنْتان على المحيط، ولربما أن هذا أيضا هو العهد الذي حدثت فيه رحلة الإغريقي المرسيلي أوثيمين Euthymène الذي سار بحرا مع الساحل المحيطي لإفريقيا حتى وصل لنهر مليء بالتماسيح وبأفراس النهر. وقال بنظريتيْن إحداهما هي أن نهر النيل أصله من المحيط، والثانية هي دور الرياح الموسمية في فيضانات هذا النهر. والقول الأول هو نفسه الذي قال به العلماء الأيونيون في القرن السادس. كما ان الرأس الثاني شبيه برايهم، ويضاف لهذا ان ما بين هذا القرن السادس وحملات الاسكندر المقدوني التى لا شك ان رحلة اوثيمين متقدمة عليها بزمان فان القرطاجيين لم يسمحوا للمرْسيليين بعبور المضيق.

19) وردها هيرودوت في ك 4 من 168 على 204 وقد قمتُ بترجمتها إلى العربية بعنوان «هيرودت يتحدث عن ارض المغارب». ولا تزال غير مطبوعة.

20) في مؤلف أبْيان. نجد الكتاب الثامن مخصصا لتاريخ ليبيا منذ نهاية الحرب البونيقية الثانية. والقسم الأول منه موجود لغاية تخريب قرطاجة. (أما الحرب البونيقية الثالثة فإن مصدر أبيان عنها هو بوليب). وفيما يخص القسم الثاني الخاص بالعلاقات بين الرومانيين والملوك النوميديين منذ سنة 146 فلم يبق لدينا منه سوى بعض الفقرات.

21) في الكتاب السابع من مؤلفه المتكون من أحد عشر كتابا.

22) سيقع الحديث عنه بتفصيل في الجزء الثامن من هذا الكتاب.

23) نذكر أن ليكوس الرهْجيوني Lycos de Rhégion الذي عاش حوالي نهاية القرن الرابع قد كتب تاريخ ليبيا. وكذلك Libyca في ثلاث كتب على الأقل بقلم أكْثرويْتاس Agroitas الذي يحتمل أنه كان في قورينة وعاش في القرن الثالث أو الثاني. ولعل كتابه الذي يغلب عليه الطابع الميثولوجي كان محدودا في برْقة والنواحي المجاورة لها. ويعزى لكاتب يدعى هزْيانكس Hésianax مؤلف آخر باسم Libyca في ثلاثة كتب على الأقل. وكان اسم هذا الكاتب يذكر بمناسبة الحرب البونيقية الاولى، ولعله هو هيجزْيانكس Hégésianax، إغريقي من اسيا الصغرى كان يعيش في بداية القرن الثاني. وكذلك Libyca في أحد عشر كتابا بقلم بوزدونيوس الُبيا P. d'Olbia وهو من أهل القرن الثاني على ما يبدو. كما هناك Libica في ثلاثة كتب على الأقل بقلم الكْسندر بوليهستّور A. Polyhistor الذي كان يكتب بإيطاليا في القرن الأخير قبل الميلاد. وقد بقي لنا منه عشرون فقرة ذكرها الكاتب المعجمي اتْيان البيزنطي Etienne de Byzance وتتعلق بأسماء جغرافية. وكذلك Lybica التي يعزوها اسُويداس Suidas إلى شارون اللَمْبساكي Charon de Lampsaque أحد كتّاب القرن الخامس غير أن هناك اشتباها في الأمر على ما يحتمل، وأن هذا الكتاب Libyca هو لشارون القرطاجي Charon de Carthage، لا لسميّه السابق.

24) سترابون في : ك 17، 3، من 1-23.

25) من أخطائه أنه في ك 17 . 3 . 12 يذكر أن أذربعل حوصر في أوتيكا وليس في سرتا وهو خطأ كبير من رجل كتب تاريخا لاشك أنه ذكر فيه الحرب التي جرت بين يوغرطة وأذربعل. فهل يرجع الخطأ لأحد الناسخين ؟ كما ذكر أن المدينتين المعروفتين باسم هيبون Les deux Hippones هما مدينتان للاقامة الملكية Residences royales أي عاصمتان. وهذا لم يحدث قط بالنسبة لمدينة بنزرت التي كان اسمها هيبون ديارهيتوس Hippo Diarrhytus. وكذلك في ك 17 . . . جزيرة كُسورا Cossura في موسطة خليج قرطاجة. و... اشتباه بجزيرة إيجيمور Aegimure (جزيرة الجامور) ... سترابون هي أيضا. كما ذكر بعد ذلك كسورا حيث يجب ... وكذلك في ك 17. 3. 20. ذكر «أضرحة فيلين» بسدرة الكبرى ... كان هو في ك 3. 5. 5 أخطأ ونقل خطأه هذا عن بوزدونيوس لانه ... فجعل الأضرحة بين السدرتين.

26) كما تحدث بذلك هو عن رحلاته في ك 2. 5. 11، وفي ليبيا نفسها فانه لم يتعد سرنيكا Cyrénaïque أي برقة كما في ك 17. 3. 20.

27) في ك 17. 3. 15 تحدث عن إعادة بناء قرطاجة على يد يوليوس قيصر، وقال إنها عاد لها ازدهارها الكبير. ولكنه لم يقل إن ذلك الازدهار مرجعه الى المستوطنين والمعمرين الرومانيين الذين بعث بهم أغسطس إليها.

28) في ك 17. 3. 19 يتحدث عن الإحصاءات السنوية التي تقوم بها الملوك والتي اعطت مجموع مائة ألف فرس، ولاشك ان هذا كان في مملكة كبيرة هي نوميديا، لان الترتيب الذي جرى عليه سترابون وكذلك سياق الحديث يُخرج موريطانية من الموضوع. لكن مملكة

نوميديا كانت قد اندثرت من الوجود على يد قيصر سنة 46 ق م وفي ك 17. 3. 13 يتحدث عن مدينة سرتا وكأنها لم تكن مستوطنة رومانية منذ 44 على أقل تقدير.

29) في ك 1. 34 يذكر موت كاتون Caton التي وقعت سنة 46، وكذلك في ك 1 . 30، و 34 يذكر مستوطنة سرتا ومستوطنة قرطاجة، وكذلك في ك 1. 20 و 33 يذكر أن إفريقيا تبتدئ غربا عند راس ميتاگونيوم Cap Metagunium أو عند نهر امبساگا Ampsaga.. ولم يكن ذلك واقعا حقيقة إلا بعدما تأسست سنة 46 ولاية إفريقيا الجديدة Africa Nova وربط مقاطعة سرتا بهذه الولاية ربما في سنة 44. بل يسوغ أن نتساءل عن هذا المصدر أليس راجعا إلى ما بعد سنة 38، لأن ميلا Méla في ك 1 . 29 يقول ان ملوشا (ملوية) لم يعد حدا فاصلا بين مملكتين. وهذا فعلا هو ما حدث سنة 38 أي حين ضم بوكوس إلى مملكته مملكة اخيه بوگود Bogud، ومن لمحتمل ايضا أن تكون هذه الاشارة هي لميلا أي أنها غير و ردة في مصدره. ولعل ميلا Méla يكون قد أشار هنا إشارة خفية إلى ستيلاء رومة على المنطقة قبل إصداره لكتابه بأربع سنين. فنهر ملوشة (ملوية) لم يعد يفصل بين المملكتين كذي قبل. وذلك لسبب بسيط هو أنه لم يعد هناك وجود لاي مملكة.

30) Numismatique de l'ancienne Afrique, t. III, les monnaies de la Numidie et de Maurétanie (Copenhague, 1862). Supplément 1874. P. 61 et Suiv

31) في هذا الموضوع يرجع إلى : L. Charrier.

Description des Monnaies de la Numidie et de la Maurétanie. Macon 1912.

32) هيرودُت : ك 4 . 180، وك 4 . 172، وك 4 . 176.

33) هو نيقولا الدمشقي في Fragon. Hist. Graec، الجزء الثالث، ص 462 3 الفقرة رقم 136، وبرغم الاضطراب الحاصل هنا في سم لعشيرة فلا شك أن الإسم المقصود هو اسم المخلو.

34) ك 4 .180 عند هؤلاء الليبيين يتحارب البنات بالحجارة والعصي في أحد الأعياد السنوية، ومنهن من يمتن بجروحهن فيقال لهن ذن إنهن عذارى مكذوبات.

35) هذه العادة ذكرها أرسْطو في «السياسة»، ك 2 . 1 . 13 عند بعض الليبيين من سكان الداخل، وذكرها ميلا Mela ك 1 .45 وپْلين Pline ك 5 . 45 الذي اعتمد على مصدر مشترك واشار لوجودها عند لكرامنطيين سكان الصحرا..

36) هيرودُت ك 4 . 172.

37) لبكْري في وصف إفريقيا.

38) E. Doutté : les marabouts (Paris 1900). P.97. le même en tribu (Paris 1914), p. 183 et suiv. H. Basset dans Rev. Afr, L XII 1921, P.371. N 2.

39) ك 4 .168 و172عند الادرماشيين وعند النَصمونيين.

40) Fraçm hist. Graec, III, P. 432, N 142.

41) بو عبيد البكْري «المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب»، ص 17٦ طبعة الجزائر بعناية البارون دوسْلان، سنة 1857.

42) هل الكاتب يجهل أو تجاهل أن النساء أيضا لهن حقوقهن من الميراث المبيّنة في الشريعة ؟!

43) ك 3 ، 52 وما بعدها لديودور الصقلي.

44) آمّيان مرْسلان : Ammien Marcellin ك 29 ، 5 ، 28.

45) لواضح ان الرجل يجهل الإسلام أو يتحامل عليه. وإلا فأين ومتى وكيف نحّى الاسلام المرأة عن إقامة الشعائر كلها إلا برخصة تفرضها الضرورة كما هو معلوم لمن يعرف شريعة الإسلام ؟

46) هيرودت ك 4 ، 180

47) هيرودت ك 4 ، 172

48) سْترابون : ك 17 ، 3 ، 19

49) ميلا Mela ك 1 ، 42

50) سالُسْت «حرب يوغرْطة»، 80، صفحة 163 بترجمتنا.

51) كْلوديان حرب جلدون Bell. Gildon 441 (الزوجات الالف Conubia milles).

52) بركوبيوس . حرب الوندال Bell. Vandalicum ك2، 10، 11 وك 2 ، 20، 24.

53) نفس المصدر ، ك 2 ، 11، 13.

54) ربما باستثناء الكوانش Guanches الذين كانوا بجزر كناري. فالأخباريون الأسبان قالوا عنهم ان النساء كن تقريبا شركة عندهم، وان الرجال كانوا بكل سهولة يتعاقبون عليهن. انظر كتاب L'evolution du mariage et de la famille ص 109، بقلم Letourneau.

55) كمثال على هذا نذكر ما رواه پْلين Pline في ك 17، 41 حيث قال إنه شاهد في مقاطعة البيزاكيوم Byzacium محراثا وقد شُدَّ إليه في آن واحد حمار وامرأة عجوز.

56) لذلك فقلما تكون البنات – على ما يظهر أبكارا عند زواجهن.

57) «حرب يوغرطة»، 80 صفة 163 بترجمتنا.

58) پلين. ك 5، 17 يقول:

Gens maurorum attenuata bellis ed paucas recidit familias

«شعب المور... أضعفته الحروب عددا فاستحال إلى بضع قبائل».

ويقول النقش التونسي

Mathun, Massurauis Filius, princeps familiae medid.. (?)

«مثون، رئيس قبيلة المديديين، ابن ماسران».

59) الواقع أن الكاتب يحتار - ونحن نحتار معه – في التمييز بين gens و familia و tribus. والواقع أيضا هو أن البربر قديما وحديثا كالعرب وغيرهم من اغلب امم العالم القديم عاشوا على النظام القبلي الذي هو عبارة عن مجموعات أساسها الأسرة. والأسر تجتمع في اب تنتسب له فتكون القبيلة والقبائل تجتمع بدورها في تجمع كبير هو الشعب الذي ينتسب جميع افراده لجد اعلى مشترك بينهم. ولكي نجد مسكنا فهل نضع gens مقابل الأسرة ؟ وهل نضع القبيلة أمام familia ؟ وهل نجعل الشعب مقابل tribus ؟ ثم هل نجعل العشيرة مقابل clan، وإذا كان البربر كما قال الكاتب قد عرفوا الخروبة = إيخس، فانهم ايضا عرفوا تقْبيلت - القبيله

وعرفوا الصف = Sof اللف Leff وهو مجموعة من القبائل، على أن لصف = اللف يغلب أن يكون عصبية سياسية فوق كونه رابطة دموية. وفي الأخير لاشك ان الانتساب – خلافا لما يراه الكاتب – يشارك فيه كل من البنت وأخيها على السواء. وطبعا فإن لمسؤوليات الكبرى تقع على الذكر. لكن البنت تحتفظ بنسبها لمجموعتها التي ولدت فيها حتى بعد زواجها فتبقى دائما فلانة الفلانية التي هي زوجة فلان الفلاني.

60) هيرودُت : ك 4، 172.

61) باستثناء حالات الزنى حيث العقاب هو الموت.

62) ك 1، 42.

63) لحلة وتجمع الحلل هي المكان الذي به الناس ويقيمون به، كما تطلق أيضا على المقيمين أنفسهم. وأنا أصطلح عليها فأجعلها مقابلة للفظ الفرنسي agglomération.

64) في القرن السادس للميلاد، قدم لنا كل من كورْبوس وبْروكوب أهالي منطقة طرابلس وجنوب تونس في حربهم ضد البيزنطيين وهم يسوقون معهم قطعانهم من الثيران والضأن والحمير والجمال. وكذلك فعل قبلهم بعدة قرون الليبيون الذين هاجموا مصر في عهد الفرعون منفْتاح Menephtah.

65) بروكوب : ك 4، 3، 12.

66) هذا المجمع يحمل اليوم اسما عربيا هو "الجماعة La jemaa".

67) هذا النقش هو : 17327.

68) الإسلام هو الذي جعل بعضا من البربر - لا كلّهم - يقبلون فكرة الدية والعمل بها.

69) پْلين الشيخ ، ك 5 .29 (نقلا عن وثيقة رسمية من عهد أوغسطس) يذكر 516 جماعة شعبية Populi وكان اكثرها قبائل. ونفس المصدر أيضا ك 5 .30.

70) مثال ذلك في ، 1، ص 58 G.G.M. عن رحلة سيلكْس 109 من ن قبيلة الماصيين Maces وهم من اهل ساحل السدرتين، كانو في لقرن الرابع قبل الميلاد يقضون فصل الشتاء مع قطعانهم بساحل لبحر، وفي الصيف حين يقل الماء أو يجف يدخلون للداخل إلى لاعالي (أي إلى الجبال التي تكون القاصية الشمالية الشرقية للجبال في طرابلس).

71) كمثال على ذلك حول سنة 1129 ق.م اسم مراتو Maratou ابو ديدي Didi وكذلك حول سنة 1195 رئيسان لهما نفس الأسماء ديدي ومراتو وهما من أسرة واحدة لاشك، وكذلك حول سنة 1189 نجد اسم كبور kapour وهو رئيس او شيخ او قائد الماشْواشا Mashaouasha وابنه ماشاشالو Mashashalou. انظر . Hist ancienne des peuples de l'Ori-ent classique Maspéro. T. I.I. P 431. 436. 471. 472.

72) ولا يستثني من ذلك إلا إذا كانت القبيلة كلها تنضم الى صف و حد أي إلى حلف واحد وتحافظ على انضمامها إليه.

73) في عهد مينفتاح وعهد رمسيس الثالث هاجمت عدة قبائل إفريقية الاراضي المصرية بقيادة مراتو Maratou ملك اللوبيين Lebou وكذلك بقيادة ديدي Didi ومراتو، وأخيرا بقيادة كابور kapour رئيس المشاواشا Mashaouasha. انظر التعليق السابق رقم 71.

74) نجد مثال ذلك ذلك في العهد البيزنطي مثلا في القائد كَرْكَسان Carcasan زعيم قبيلة الايفوراس Ifuraces. انظر : 4-142، Corippus. Joh. VI.

75) لحظ ان پلين الشيخ يميز بموضوع بين هذه القبيلة وبين الجيتوليين الذين يذكر سالُسْت نقلا عن كتب هيمْبسال البونيقية أن غزوا نوميديا. ارجع إلى التاريخ الطبيعي ك 17.5.

76) حول هذه السلسلات من الانساب وأصولها، انظر R. Basset في مجلة Archives africaines، العدد 1 ص 3-9 سنة 1915.

77) ... عن هذه القبائل Herodote بقلم المؤلف اسْطيفان اكْصيل 139-1.. وفي نفس الكتاب الحديث عن قبائل الواحات بشمال ...صحر... ص 139 155.

78) عن النصمونيين، انظر هيرودت ك 4. 172، 173، 182 وك 2. 32.

79) «الاوديسة» لهوميروس، النشيد التاسع، البيت 84 وما بعده، وكذلك النشيد 23، البيت 311، ونجهل ماذا كان هوميروس يقصد باللوتُس Lotos ذي الفاكهة الحلوة كالعسل، التي كان يأكلها هؤلاء اللوتوفاجيون.

80) هيرودت . ك 4. 187 و191.

81) هي الرحلة المنسوبة لسيلكْس.

82) في ديودور، ك 20. 38، 2 عن الزوفونيين، وفي ك 20، 57. 5 عن الاسفوديلوديين.

83) پوليب Polybe ك 3، 33، 5.

84) أخطأ تيت ليفْ فذكر هؤلاء اللرْجيتيين Lergètes وهم من شمال إفريقيا باسم الإيلرْجيتيين Ilergetes الذين هم شعب أسباني وليس إفريقياً.

85) وفيما يخص قبيلة الأطلوليين الجيتوليين فسنذكرها فيما بعد، في صفحة 110 بترقيم الأصل الفرنسي.

86) پوليب : ك 15 ،11 ،1 وك 38 ،7 ،9.

87) لفظ Maurou'sioi نجده في ديودور الصقلي، وسْترابون، وبْلوتارك، وفي أپْيانْ، وأثيني، وأيليان، وهيرودْت وپروكوب وغيرهم.

88) نجده عند الشعراء أمثال ڤرْجيل، ولوكانْيوس، سيلْيوس إيطاليكوس، وكْلودْيان، وكوريپوس وغيرهم.

89) لستُ أدري لماذا يرفض المؤلف فرضية اشتقاق الاسم من ور بمعنى الجبل وهي على العموم نظرية Sabatier في (Sur l'écriture et la langue berbères) ص 27 الذي يرى أن اللفظ بونيقي معناه المغاور Troglodytes. مادام الامر كله يدور على مجرد افتراضات ليس لأي منها ما يدعمه نهائيا على غيره.

90) يرجع هذا القول على أقل تقدير لحوالي العهد الميلادي لأن منيلْيوس Manilius يشير له في ك 4 ،727/8. وذكر هذا الاشتقاق أيضا بعض الكتّاب المحدثين.

91) Bochard في Geographia sacra, Edition de Caen 1646, P. 544.

92) نحن نعرف أنها ماحوريم Mahourim وليس موحاريم Maoharim.

93) پْلين، التاريخ الطبيعي. ك 5 ،17.

94) يذكر جُستان Justin في ك 21 .4 .7 أن حنّون الثائر طلب العون من ملك الموريين. ارجع للجزء الثاني، ص 255 وما بعدها بترقيم الأصل الفرنسي.

95) جُستان ك 19 .2 .4 يذكر حربا جرت بين القرطاجيين والموريين في أواسط القرن الخامس. وفي نهاية نفس القرن حشدت قرطاجة جنودا من الموريين المحالفين لها. انظر ديودور : ك 13 .80 .3.

96) يذكر تيت ليڤْ ك 29 .30 .1 أن باگا جعل 4000 من الموريين رهن إشارة مسِنيسَا لحمايته منذ موريطانيا حتى المملكة المسيلية.

97) سترابون ك 17 .3 .6 و9 (مع أخطاء في المسافات).

98) ويضيف سترابون : ك 17 .3 .9 أن هذه الأرض للماسيسيليين وتحدها ملوخات، وخضعت على التوالي لسيفكْس الذي كانت عاصمته هي سيكا ثم خضعت لمسِنيسا ومسِبْسا.. الذي

99) يقول پْلين Pline ك 5 .19 كان الحد بين الولايتين الرومانيتين هو نفسه الذي كان بين مملكة بوكوس Bocchus ومملكة بوكود Bogud (المعاصرين لقيصر) وكانت سيكا في مملكة بوكوس بموريطانيا الشرقية.

100) يذكر بطليموس : ك 4 .1 .3 نهري ملْوخا Molochath وملْوا Maloua بينما هما في الحقيقة مجرى مائي واحد. ويقول ان مصب ملْوا يشكل الحد بين الولايتين : ك 4 .1 .4 وك 4 .2 .1 ونفس المعلومات نجدها في «مسالك انطونان». ويذكر پْلين في ك 5 . 18 هذا النهر باسم مَلْوان Malvane، ويجعله كما هي الحال بين ريسّدير Rhysaddir أي مدينة المليلية وبين سيكا.

101) ميلا Méla ك 1. 29 وپلين ك 5. 19. ولكن ننبه إلى أنه قبل ذلك كله كان الماسيسيليون وملكهم سيفكْس في أواخر القرن الثالث قبل الميلاد قد وصلوا إلى سرْتا (قُسَنْطينة) واستولوا عليها وعى الأرض خلفها جنوبا حيث يجرى نهر مْلاك الخالي. أفلا يذكرنا اسمه باسم مْلوشا – مُلوخات – أو مُلوكا ؟ خصوصا وأنه يقع في أرض المسيليين بنوميديا التي اصبحت ملكا لماسيسيلين !! هذا رأي يجب أن يدرس بتفصيل وعناية.

102) يذكر بطليموس في ك 4. 2. 2 اسم خوليماث Chylimath اسم لنهر شليف، فهل نفرض أن الاضطراب الحاصل هو التحريف الذي جرى من خوليماث إلى ملوخات (ملوشا) Molochath.

103) كمثال على ذلك نذكر المقاومة ضد الرومانيين التي يشهد لها عى الخصوص اقامة معسكر فيلق إفريقيا في لمْبيز Lambèse بالشمال الغربي للسلسلة الجبلية، والحرب ضد البيزنطيين في عهد جُسْتينْيان، ومقاومة الفتح العربي بقيادة الكاهنة مكة جبال الاوراس، وثورة ابن كيداد صاحب الحمار ضد الفاطميين في القرن العاشر للميلاد (الرابع الهجري).

104) Hesanax. dans E.H G. II. P 70. N 11. وانظر كذلك الجزء الثالث من اكْصيل ص 83 التعليق رقم 3 بترقيم الأصل الفرنسي.

105) مثال ذلك الأرض التي انتزعها كايا (ج 2، ص 96 بترقيم الاصل الفرنسي). والأرض المختلف عليها بين سيفكْس وكاي (ج 3، ص 182). وكذلك فإن سيفكْس كان على ما يبدو في خلاف مع بكا ملك موريطانيا الذي دفع لمسِنيسَا جيشا يخترق به مملكة الماسيسيليين (ج 3، ص 191). وكذلك في 205-204 كان سيفكْس في حرب ضد جيرانه (ج 3، ص 197 التعليق 1).

106) ارجع الجزء الثالث ص 6-193 وكذلك ص 9، وكذلك 12، وكذلك 13 وكذلك 20. وپْلين الشيخ Pline l'Ancien في ك 20 .22.

107) نقلاً عن سْترابون في ك 17 .3 .6 وكذلك 9، وكذلك 12. وكذلك 13 وكذلك 20. وپْلين الشيخ في ك 20 . 22.

108) Bates. The Estern Libyans. P 212 - Gsell. Hérodote, P 70.

109) Hérodote. II. Conf. Gsell. l. c. p17.

110) هيرودُت ك 4 .197 وانظر أيضا اگْصيل في كتابه عن هيرودُت، ص 113، 118.

111) L. Müller : Numism. de l'ancienne Afrique. 1. P. 130 - 5 Supplément. Page 21 - 23.

والملاحظ أن الكثير من هذه النقود قد ضُربت على نقود قرطاجية وعى لنقيض من ذلك فإن كثيرا غيرها هو ضرب قرطاجي يغطي الأصول لليبية.

112) هيرودُت · ك 4 .181 .186 .187 .188 .190 .191 .192

Fragm. Hist. Grec. 1. P 23. N 304.

1. P 57. N 93. Pyth. IX. 123.

113) پـولـيـب : ك 1، 19، 3. ك 1، 31، 2. ك 2، 65، 3. ك 1، 74، 7. ك 14، 1، 4.

114) ديودور الصقلي : ك 13، 80، 3. ك 20، 38، 39. ك 55، 4، 20. ك 20، 57، 4.

115) سالُسْت ك 5 و 4. ك 6. 3. تيت ليف . ك 21 .22 .3. ك 1 .21 .29.
جُسْتان ك 19 . 2 .4. ك 22 . 8 . 10.

116) كانت قبيلة تحمل اسم Gens Numidarum موجودة بناحية خميسة بشرق الجزائر، انظر (Gsell: inser. Lat. de l'Algérie. I. P 115) وأيضا Gens Numidarum آخرى مثلها بعيدا إلى الغرب انظر (C.I.L. VIII, 8813 - 8814).

117) ديودور الصقلي : ك 20 . 55 . 4. ويوغَرْطة لسالُسْت ، ك 91. 4 . 6 وكذلك ك 78 . 4.

118) يقول پْلين . ك : 5 . 5 مدينة سلا كانت معرضة لهجمات قبيـة لاطلوليين (الجيتولية) وكذلك ميلا Mela ك 3 . 104، وپْلين أيضـ ل 9 . 127.

119) هؤلاء العلماء هم Carl Riter, Movers, Carette, Tissot, Vivien de Saint- Martin, Quedenfeldt

120) ارجع للجزء الأول، ص 7 . 336 بترقيم الأصل الفرنسي.

121) من المحتمل أن هذه الأسماء بافريقيا الشرقية قد اشتقت من لاغريقية بارباروي Barbaroi، كما اسم البرابر Bràber. في شمال فريقيا مشتق من اللاتانية برباري Barbari. ولكن ليس هناك علاقة مباشرة بين هذه المستعمرات عن الإغريقية وعن اللاتانية.

122) وهناك مجموعة ثالثة وهم الروم عند العرب أي البيزنطيون وهولاء كانت لهم سيطرة ما على بعض الجهات بالشمال الإفريقي، ولا محل لتفصيل ذكرها هنا. فالعرب لم يتصلوا بالرومان في شمال

إفريقيا وإنما اتصلوا بالبيزنطيين وسمّوهم الروم وحاربوهم، كما اتصلوا بالافارقة أي البربر المسيحيين. (الذين يستعملون أو لا يستعملون البيزنطية وهي اللغة الإغريقية)، واتصلوا بالطائفة الثالثة وهي الأغلب والأكثر وتتكون من البربر الذين حافظوا على لهجاتهم وعاداتهم. ولم يذكر طائفة أخرى رابعة وهي طائفة البربر اليهود، إذ كانت اليهودية شائعة في كثير من القبائل عند قدوم العرب.

123) بطلمي، ك 4، 1، 5، (ص 585 نشرة مولَرْ).

124) أي مازيك : الجهات الجميلة.

125) Expositio totius mundi dans Reise : Geogr. Lat. Min, P. 123.

126) أي : قبائل المزيكيين المتعددة.

127) دوسْلانْ في ترجمة لابن خلدون، ج 4، ص 495.

128) Movers : Die Phönizier, II, 2, P 395. Carette, Recherches sur l'origine des tribus, P. 26.

129) الآريون الذين استولوا على السهول العليا الإيرانية وعلى قسم من الهند.

130) يمكن أن نقول متسائلين : هل لم يكونوا غزاة من أصل أجنبي؟ ذلك أن هيرودُت في ك 4، 191 يقول «إن المَكْسي Maxyes يقولون بأن أجدادهم من الطروانيين (Troyens) مع العلم بأن هذا القول لا قيمة له. انظر هيرودُت بقلم الكْصيل ص 119-120.

131) لا يزال عند الطوارق بالصحراء قبائل سادة وقبائل خاضعة.

132) لا ندري كيف كان انتقال المُلك قبل گـايا. لأن زيلَلْسان Zilalsan وهو أبو گـايا لم يتول الملك، إذ تذكر عنه نقيشة بلغتين من دُقَة Dougga أنه كان شوفيت (سبطا) Sufète انظر في هذا . Chabot. Punica. P 210.

133) تيت ليڤْ : ك 29، 29، 8 و 29، 11 وما بعدها.

134) مسبڤا Massiva طالب بالملك ولم ينله. أما كوْضا Gauda فقد ناله وخلفه عليه ذريته من بعده، وانتهت سلسلة أبنائه في بطلمي بن يوبا الثاني. وهناك حفيد آخر لمسنيسا هو دابار Dabar ابن مسوگْرادا Massugrada. وأبوه هذا كانت أمه محظية.

135) في الخطاب الذي عزاه سالُسْت لمسبْسا وهو على فراش الموت، حضّ مسِبْسا الوارثين الثلاثة بأن يحكموا في وفاق كامل، ومعنى هذا أنه حضهم على الحكم في مملكة تحتفظ بوحدتها.

136) كان ليوغرطة بضعة أبناء منهم الصغار ومنهم اليافعون على الأقل أثناء حربه ضد الرومانيين. انظر سالُسْت في مؤلفه «حرب يوغرطة»، ك 28 .1. ك 46 .1. ك 47 .3. ك 62 .1. ك 75 .1. ك 76 .1. و ثنان من ابنائه كانا معه معروضين في موكب التمجيد الذي اقامته رومة لمرِيوس المنتصر. انظر تيت ليڤْ في Epit. L. ك 67. وأوتْروب : ك 4 .27 .6. وباولُسْ آورسْيوس في Adv. Pagan ك 5 .19.15 وبعد ذلك بخمس عشرة سنة كان أحد أبناء يوغرطة يعيش في إيطاليا. انظر آپيان Appien في مولفه عن الحرب الأهلية: ك 1. 42.

137) في الترجمة الفرنسية بقلم دوسْلان، ج 2، ص 270.

138) تيت ليڤْ . ك 45 . 14 يتحدث عن عبيد الملك الذين صاحبوا أحد أبناء مسنيسا المبعوث في سفارة إلى روما.

139) نظام الـ Municipe بالفرنسية، هو Municipium باللاتانية، هو نظام مخالف لنظام المدن الحرة. لافمونيكيبيوم يقصد به المدينة أو على العموم الجماعة المشاركة لرومة في تحمل الأعباء المالية أو العسكرية بالإكراه، بسبب استيلاء رومة عليها وتبعية تلك لها. وكانت رومة طبعا هي التي تحدد مقدار تلك المشاركة، ومع ذلك تحتفظ الجماعة أو المدينة غالبا بنظامها الخاص وأعرافها وقانونها، كما تعين هي موظفيها العلاة.

140) تيت ليڤْ : ك 29. 29. 9.

141) تيت ليڤْ : ك 24. 48. 1. وكذلك ك 30. 11. 4. وانظر الجزء الثالث ص 179-180 بالترقيم الفرنسي الأصلي.

142) في الفرنسية Pretorienne في اللاتانية Praétorianus وهو الحرس الذي يمكن أن نقول عنه «حرَس بريطورياني». ولكن اللفظ هنا لا يدل على شيء، إذ المقصود الحقيقي هو الحرس القاسي الذي كان للقياصرة الشداد. لذلك فضلتُ الانتقال إلى تراثنا التاريخي وعربّتُه بالحَرَس الزيادي نسبة لزياد ابن أبيه الوالي بالعراق المشهور بقسوة جيشه. وأنا متأكد أنه لا مانع من هذه الترجمة.

143) لفظ «الگوم» يُستعمل بالمغرب أيضا كما هو معروف، ولكنه من أصل جزائري، جاء به الفرنسيون وسمّوا به الفِرق التي كوّنوها هنا فذاع استعماله.

144) وقفَ لَكومازيس ملكُ المَسيليين والوصيّ عليه ماجيتول Magaetule في وجه مسنيساً بجيش من 15000 من المشاة و 10.000 فارس. (عن أبيان في 11). ولما عاد مسنيسًا إلى مملكته سنة 205 ق.م جمع في بضعة أيام 6000 من المشاة و 4000 فارس، (عن تيت ليڤ ك 32 .13 .29). وفي 204 اتصل سيفكْس بالقرطاجيين بجيش من 50.000 راجل و 10.000 فارس، (عن پوليب ك 14 .1 .14) و(تيت ليڤ ك 29 .35 .11). وفي 202 مسنيسًا، الذي استعاد مملكته، يقدم لسپْيون 6000 راجل و 4000 فارس. (عن پوليب ك 15 .5 .12). وفي 150 قاد مسنيسًا جيشا من 50.000 فرد. (عن أپيان في 71 و73). ويحكي پولْ أوروز Paul Orose (في Adv. Pagan ك 5 .15 .10) أن يوغرطة خاض معركة ب 60.000 فارس. (وفي ك 5 .15 .18) ان يوغرطة وبوكوس خاضا معركة ضد الرومانيين بجيش من 90.000 جندي. وهذه أرقام لا يُعتمد عليها... إلخ.

145) سترابون : ك 17 .3 .12.

146) L. Charrier , Descr. des monnaies de la Numidie... P. 10.

147) فتكون م - ن إشارة لاسم مسِنيسان Masinissan، وربما إشارة إلى مكِوْسان (هو مسِنْسا) Mikiwçan، ويكون ك - ن من كُلوسان Gulussan أو من كَوْضان Gaudan، ويكون أ - ل من أذَرْبَعْل.

148) ارجع لصفحة 104 بالترقيم الفرنسي.

149) In Vatinium, 5, 12.

150) سترابون: ك 2 .5 .35.

151) سالُسْت يوغرطة ك 5. 17 ويذكر قِطْعان ماشية الأهالي في ك 3. 20 وك 5. 46 وك 4. 48 وك 4 . 75 وك 2. 90.

152) بوليب : ك 12 . 3 . 4-3، وارجع لهذا النص في الجزء الرابع ص 40 بالترقيم الأصل الفرنسي.

153) تيت ليفْ · ك 8. 31. 29 وبومْبونْيو مِيلا Méla في ك 1 .41.

154. ارجع لصفحة 106 بالترقيم الأصلي الفرنسي من هذا الجزء.

155) يوغرطة : ك 90 .1.

156) سترابون · ك 17 .3 .7.

157) ارجع للجزء الأول، ص 235 بالترقيم الأصلي الفرنسي.

158) بومبونيوس مِيلاَ : ك 1 .41-42 وسالُسْت : يوغرْطة ك 19 . 5.

159) في هذا الجزء ص 59-61 و 74-75 بالترقيم الاصلي.

160) Odyssée, IV, 85-89 Pindare, Pyth, IX, 6. Oracles attribuées à la Pythie, apud Hérodote, IV.155 et 157, 187 et 189. Elien Nat. Anim. VII, 8 , XVI, 33.

161) ألعاب وطنية كان أهل أثينا يقيمونها تمجيدا لربَتهم أثينا.

162) رجع للجزء الثاني من هذا الكتاب، ص 364 بالترقيم الفرنسي الأصلي، في التعليق رقم 1.

163) بوليب . ك 36 .16 .7-8 وسْترابون : ك 17 .3 .15، وقَوْل سترابون هذا إنما هو صدى لقول بوليب السابق.

164) ديودور الصقلي : ك 32 . 17، وهذا منقول عن پوليب ك 8 .36 .16.
والپلِثْر Plèthre في الزراعة مقياس للمساحة يبلغ 100 قدَم في كل ضِلْع، أي 10.000 قدم مربّعة، أي نحواً من (876 م) وهو من المقاييس عند الإغريق القدماء.

164 مكرر) بْليثر Plèthre. البليثر الواحد من الأرض يعادل 874 متر مربعا، وعليه، فتكون مساحة كل مِلْك 874 هكتاراً.

165) پومْبونْيوس ميلاَ Méla ، ك 1 .28، ك 1 .30، ك 3 .105.

166) البواصو Boisseau من مقاييس المواد الجافة، يزن نحو من 13 كيلو.

167) سترابون . ك 17 .3 .11 نقلا عن پوسدنْيوس ؟

168) «حرب إفريقيا» : ك L XV, 1 .Bellum africum .65 , 1

169) يغلب على الظن أن العمليات بين مربّي الماشية والفلاحين كانت تتم بالمقايضة، لا بالشراء والبيع.

170) يكون تقسيم الأراضي وتوزيعها في القرى البربرية من اختصاص هيأة الجماعة، اي أنه من الناحية المبدئية راجع لمجلس شيوخ الأسر. ومن جهة أخرى كان الفاصيون Vaceens بإسبانيا يوزعون سنويا الأرض للزراعة، ولكن المحاصيل تبقى مشتركة بين الجميع. (انظر ديودور الصقلي . ك 5 . 34 . 3).

171) كانت هذه القلعة تسمى إسْموك Ismuc، وكانت تقع على عشرين ميلا من زاما Zama العاصمة القديمة ليوبا الأول.

172) «حرب يوغرطة» لِسالُسْت ، ك 67 .1.

173) ديودور الصقلّي : ك 3. 49. 3.

174) پروكبْيوس. «الحرب الوندالية» : ك 2. 20. 33.

175) في هذا المضمار يعقد مؤلّف «الحرب الأسبانية» Bellum Hispaniense (3 . 8) مقارنة قوية البراهين بين إسبانيا و إفريقيا.

176) فيما يخص هذه المدن، ارجع للجزء الثاني، ص 111 وما بعدها في الترقيم الفرنسي الأصلي.

177) ارجع للجزء الثاني، ص 158 وما بعدها، بالترقيم الأصلي الفرنسي.

178) الاسم السامي هو مقْوم شماش، أي مقام (مدينة شَماش وهو الإله المعبود قديما). كما أن لِكْسوس تعرف في المصادر العربية باسم تشْمس، فالاسم إذن ليس مدينة الشمس، بل مقام الإله شماش.

179) في الصحراء يتزاحم الناس في الأماكن القليلة التي يساعد فيها وجود الماء على الزراعة، ومن هنا كان وجود المدن. لكن هذا الأمر لا يكون أحيانا سوى مظهر، لأن كثيرا من المدن إنما هي في الحقيقة تجمّعٌ لامفرّ منه لعدة قرى، كل واحدة منها أحاطت نفسها بسور.

180) ديودور الصقلي : ك 20. 57. 5-6، وك 20. 58. 1، وانظر ج 2 ص 95 وج 3 ص 51 و52 بالترقيم الفرنسي الأصلي.

181) سالُسْت : ك 3. 69، سترابون : ك 3،17. 12، الذي تذكر مخطوطاتُه واتّا Ouata عوضاً عن واكا Ouaga، والصحيح هو واكا، أي (ڤاكا Vaga).

182) سالُسْت في «حرب يوغرطة» : ك 56 .1. وك 57 .1.

183) تيت ليڤْ : ك 30 . 29 . 9 (وفي مخطوطة أخرى له ذُكرت باسم نَرْكارا Narcara) كما ذكرت بصيغة المفعولية، أي نرْكـارون Nargaron في پوليب : ك 15. 5. 14. انظر الجزء الثالث، ص262-261 بالترقيم الأصلي الفرنسي.

184) اسم سرْتا Cirta كان يُطلق أيضا على مدينة سيكًا Sicca التي عُرفت بأنها «المستوطنة اليوليوسية الڤينوسية سرّتا الجديدة سيكا – أي Colonia Iulia Veneria cirta Nova Sicca»، ارجع لديوان النقوش اللاتانية C.I.L الجزء الثامن، في الأرقام الآتية : 16258، 1632 1641، 1648، 15883.، وموضوع سرْتا قُسنطينة، وسرّتا سيكا يثير نقاشا حاداً بين المؤرخين حول جملة من القضايا في حرب يوغرطة. (انظر مقدمتنا لترجمتنا العربية لـ «حرب يوغرطة».

185) سالُسّت في «حرب يوغرطة» : ك 76 . 4.

186) السبب هو أن نهر حيْدرة Haïdra يمر على بعد عشرة كيلومترات منها في ناحية الشمال الغربي، فالماء إذن قريب المناب.

الفهرس

الجــزء الخامس

مطبعة المعارف الحديثة